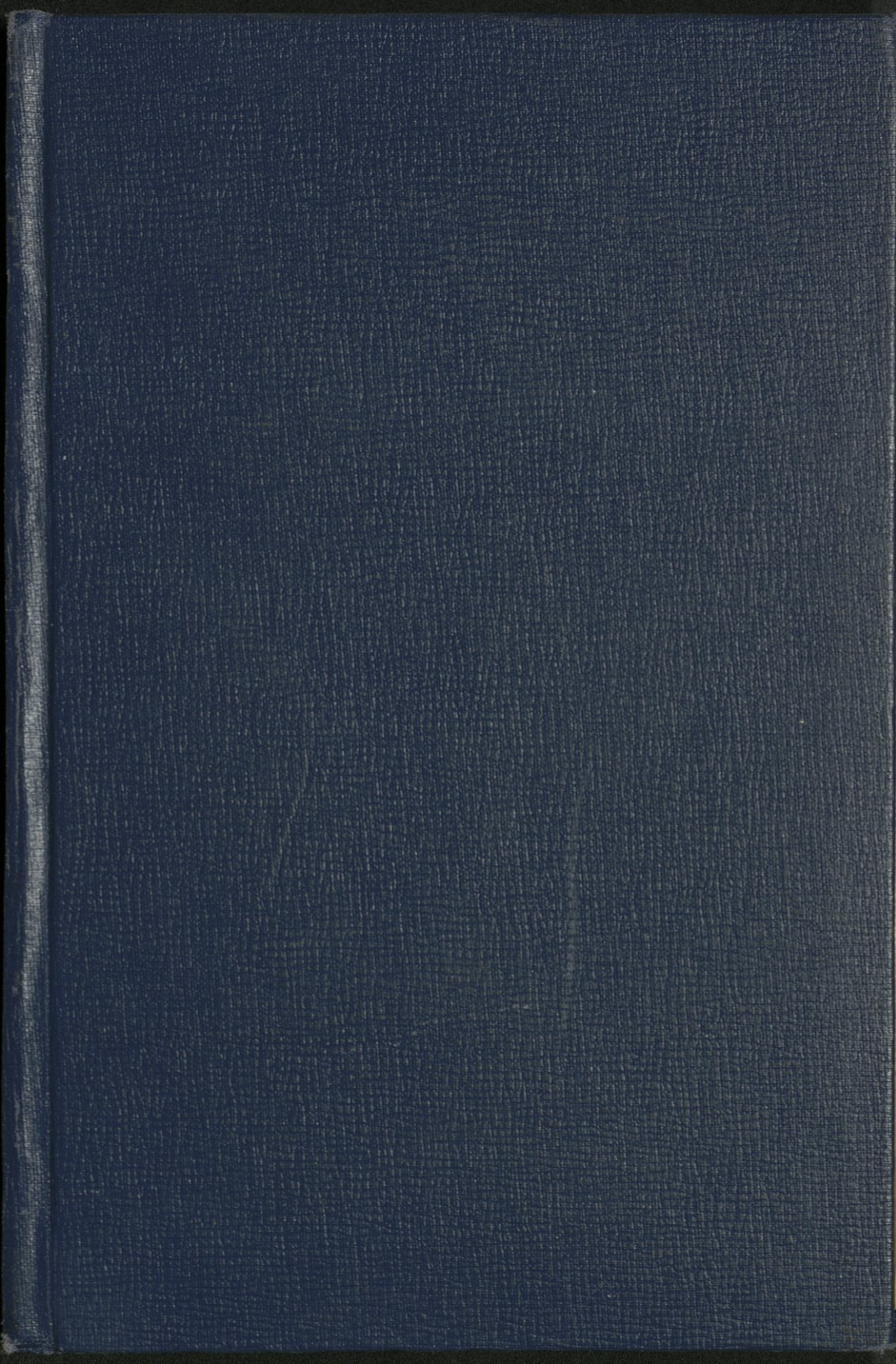
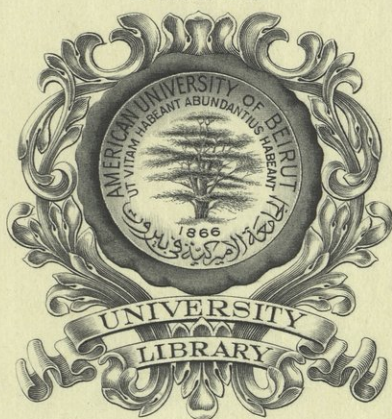


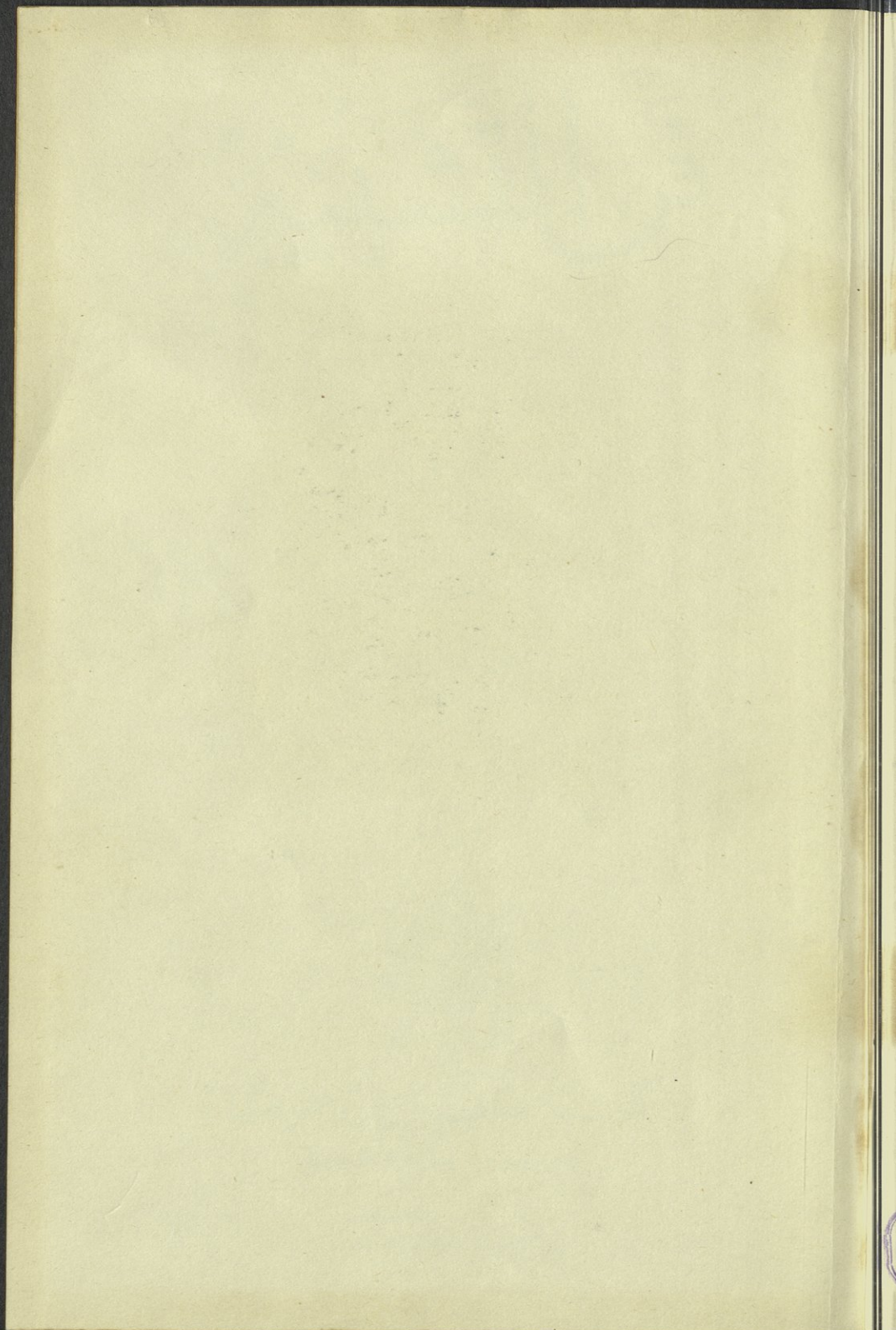


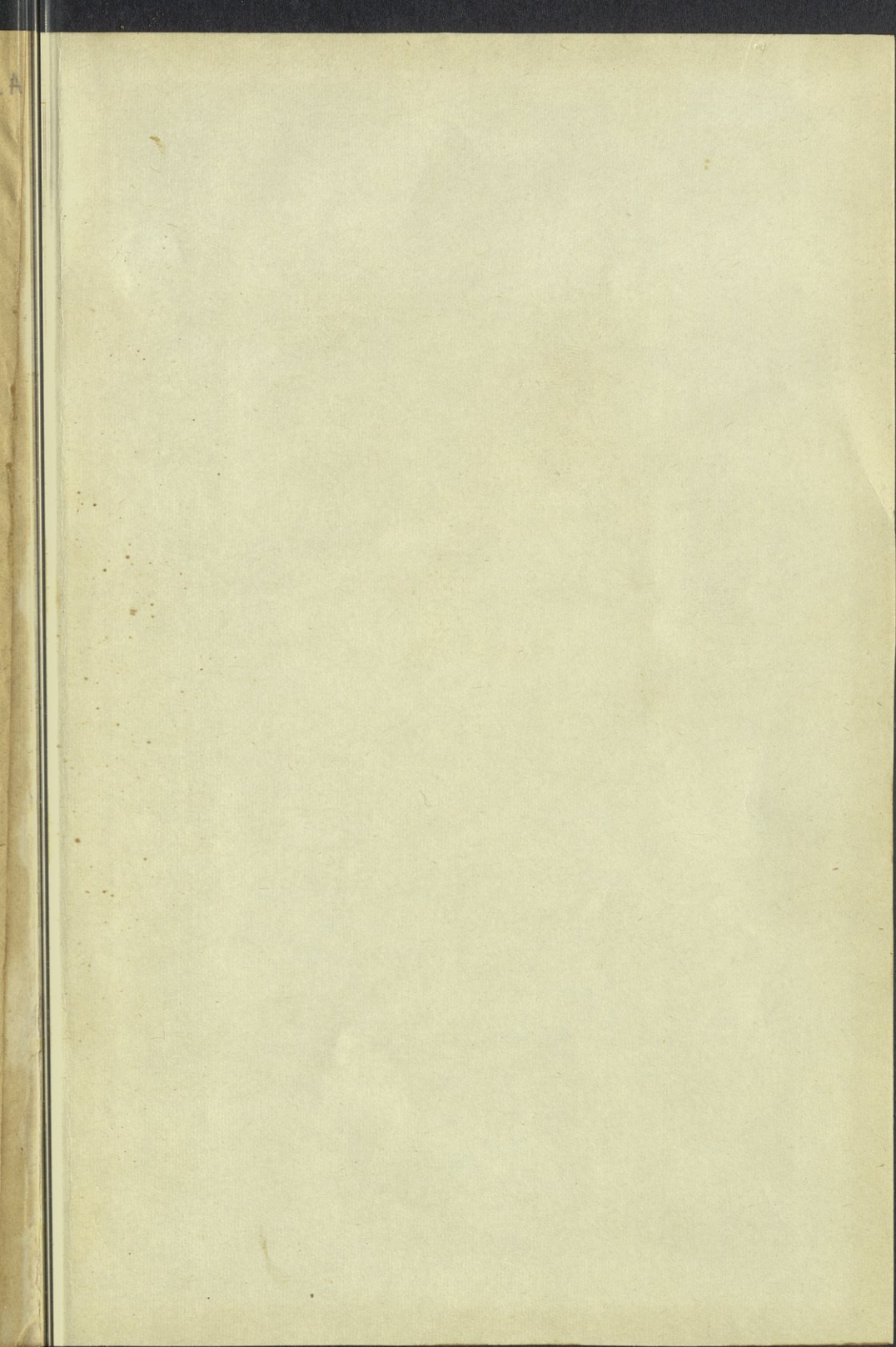
AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



مجلس صالح الدقر

تلفون ٢٢٩٧٧





808
J952a A
V.2
C.1

فرد التثنية

بلاغية . أدب . نقد

الحجز الثاني

تأليف

عبد الحليم الجبوري

كلية دار العلوم . جامعة فؤاد الأول

الطبعة الأولى

١٩٥٢

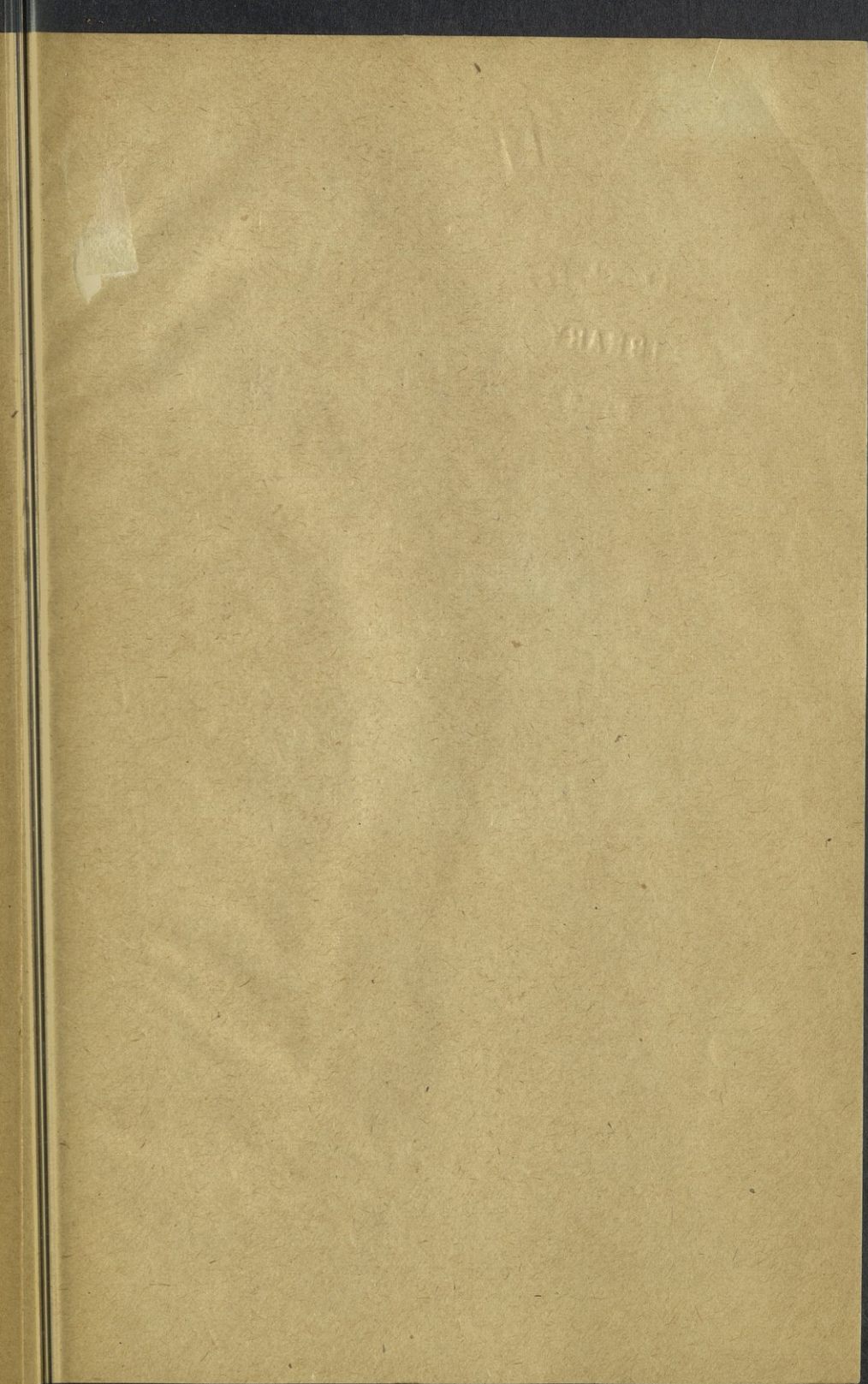


مكتبة الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر ومطبعتها

شارع كامل باشا صدق « الفجالة سابقاً »

مطبعة نهضة مصر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

«الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ . عَلَيْهِ الْبَيَانُ ،

قرآن کریم

الفصل الأول

التشابه

المتبادر من صيغة التشبيه ، أنها تفيد إلحاق الناقص بالزائد في وجه الشبه حقيقة أو ادعاء ، ولهذا يقول المعري :

ظلمتك في تشبيه صدغيك بالمسك وقاعدة التشبيه نقصان ما يحكى
وصحَّ أن نسمع قول علي بن عبد الرحمن المنجم :

شبهتها بالبدر فاستضحكت	وقابلت قولاً بالنكر
وسفّحت رأى وقالت متى	سمجت حتى صرت كالبدر
البدر لا يرنو بعين كما	أرنو ولا يسم عن ثغر
ولا يميّط المرط عن ناهد	ولا يشدّ العقد في نحر ^(١)
من قاس بالبدر صفاتي فلا	زال أسيراً في يدى هجرى

ولكن قد يحدث أن الشاعر مثلاً لا يريد إلحاق الناقص بالزائد في وجه الشبه ، بل يريد مجرد الجمع بين شيئين في أمر من الأمور ، والقصد من ذلك الأمر إلى القدر الذى اشترك فيه واستويا في نصيهما منه ، دون نظر إلى زيادة أحدهما على الآخر ، وإن كانت الزيادة موجودة بالفعل ، لاقتضاء المقام المبالغة في ادعاء التساوى .

أو لأن الغرض إفادة أصل الاشتراك فيلغى الزائد — إن كان — فيتحقق التساوى في المراد بين الطرفين .

(١) المرط بالكسر : كساء من صوف أو خز تتلفع به المرأة .

وللوصول إلى هذه الحال يحسن ترك التشبيه ، لأن صيغته تقتضى ترجيح أحد المتساويين على الآخر - وهو غير مراد هنا - ويعدل عنه إلى التشابه ، وما وزن هذه الصيغة من التماثل والتساوى والتضارع ، إلى غير ذلك من الأفعال اللازمة ، لأن المتعدية مثل شابه تفيد إلحاق الناقص بالكامل ، دون صيغة التفاعل ، الذى يقتضى حصول مدلوله من الجانبين فيكون كل من الأمرين مشبهاً ومشبهاً به من غير تفضيل لأحدهما على الآخر احتراز من ترجيح أحد المتساويين فى وجه الشبه ، لأنه غير مختص بأحد الطرفين بزيادة اختصاص .

وقد مثل الخطيب ^(١) لذلك بقول الصابى :

تشابه دمعى إذ جرى ومُدَامَتى فمن مثل ما فى السكّاس عينيَ تشرب
فوالله ما أدرى أبالخنر أسبكت جفونى أم من عبرت كنت أشرب ^(٢)
فإنه لما اعتقد التساوى بين الدمع والخنر ، ولم يقصد أن أحدهما زائد فى الحمرة والآخر ناقص ملحق به ، حكم بالتشابه وترك التشبيه .

وقول مروان بن أبى حفصة فى معن بن زائدة :

تشابه يوماه علينا فأشكلا فما نحن ندرى أى يوميه أفضل
أيوم نداه الخنر أم يوم بأسه وما منهما إلا أغر محجّل
وقول الصاحب بن عباد :

رقّ الزجاج وراقت الخنر فتشابهها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

ومن طريف التشابه قول ابن مطروح :

كيف السيل إلى وصال محجّب تحمى ملاحظته ظباً وصعاد

(١) الإيضاح - ١٧٤ (٢) أسبكت : أمطرت .

(٣) الصعاد : القنوات المستوية جمع صعدة بالفتح .

حرسوا مهفف قده بمثقف فتشابه الميأس والبياد
وقول عبد الرحمن بن عبد الرازق الأندلسي :

كأن ماء الحسن في وجهه مدامة شعشعها المازج
عنوان ما في ثوبه وجهه تشابه الداخل والخارج
فلا تقيسوه بيدر الدجي ذا مُعَلَّم الوجه وذا ساذج
وقول شرف الدين بن الحلاوى :

وبدت نظائر ثغره في قرطه فتشابه متخالفين فاشكلا
فرأيت تحت البدر سافعة الطلا ورأيت فوق الدر مسكرة الطلا
شبه عنقه تحت وجهه بعنق الظبي الوليد تحت البدر ، وشبه ريقه فوق
ثناياه بالخرقة .

وقول شوقي :

فيارب وجه كصافي التمر تشابه حامله والتمر
ويجوز مع ذلك التشابه ، قصد التشبيه أيضا ، لأنهما وإن تساويا في وجه
الشبه بحسب قصد المتكلم ، فإنه لا يمتنع أن يجعل أحدهما مشبها والآخر
مشبهاً به ، لإمكان ترجيح أحد المتساويين باعتبار ، كقول ابن المعتز :
وكان الشمس المنيرة دينا ر جلته حدائد الضراب
فإن بين الشمس والدينار المجلو تفاوت هائل في النور والجرم ، ولكن
هذا التفاوت غير منظور إليه البتة ، وإنما أريد استدارة متألئ متضمن
لخصوص في اللون .
ولا شك أنهما تساويا في هذا المعنى .

وكذلك قوله :

والليل كالحلة السوداء لاح به من الصباح طراز غير مرقوم

شبه الصبح في الظلام بعلم أبيض على ديباج أسود ، فوق التشبيه حسنا مقبولا ، وإن كان التفاوت في المقدار بين الصبح والطراز في الامتداد والانبساط شديدا .

وقد اجتمع في المثالين السابقين :

« تشابه دمعى إذ جرى ومدامتى »

« ورق الزجاج وراقت الخمر »

صيغة التشابه والتشبيه معا .

أما التشابه فقد مريانه .

وأما التشبيه ففي قوله :

« فن مثل ما في الكأس عيني تشرب »

وقوله :

« فكأنما خمر ولا قدح »

وذهب ابن السبكي مذهبا خالف فيه الخطيب ، فقرر : أن التشابه قسمان :

١ — تشابه يقصد به التساوى حقيقة أو ادعاء ، كما في قوله :

« تشابه دمعى »

٢ — تشابه يراد منه مجرد الجمع ، كما في قوله :

« وكأن الشمس المنيرة »

والأحسن في الأول التشابه ، واستعمال التشبيه فيه خلاف الأصل .

ويجوز في الثانى التشابه والتشبيه .

أما التشابه فلا إرادة مجرد الجمع ، وأما التشبيه فلرعاية كون الوجه المشبه به أتم باعتبار الخارج .

ثم يقول : هذا هو التحقيق وإن كان فيه مخالفة لظاهر كلام المصنف وغيره (١) .

ويرى المرشدى : أن أسلوب التشابه ، دون قلب التشبيه فى المبالغة وفوق التشبيه المتعارف ، لأن فى المتعارف اعترافاً بالنقصان ولا كذلك فى التشابه .

ويرى كذلك أنه ينبغى أن يشترط فى التشابه عدم شهرة أحد الطرفين عن الآخر (٢) .

ومن بديع التشابه الذى جاء بعضه مطوياً قول صاحب :

متغايرات قد جُمعن وكلها متشاكل أشباحها أرواح
وإذا أردت مصرّحاً تفسيرها فالراح والمصباح والتفاح
لم يعلم الساقى وقد جُمعن لى من أى هذى تملأ الأقداح

وقول طاهر العتّابى :

ويا ليلة قد بت أهرم بردها بجيشين من خمر عتيق ومن جمر
فطوراً أظن الخمر من ذوب جمرها وطوراً أظن الجمر من جمد الخمر
وقول بن سناء الملك :

فتحيرت أحسب الثغر عقداً لسليمى وأحسب العقد ثغراً
فلثمت الجميع قطعاً لشكى وكذا فعل كل من يتحرّى

وقول آخر :

قلت لخلّى وثغور الربّا مبتسمات وثغور الملاح

(١) عروس الأفراح - ٣ - ٤١٢ - ٤١٦ (٢) شرح المرشدى - ٢ - ٢٣ .

أيهما أحلى - ترى - منظرأ فقال لا أعلم كل أفاح

ومن الروائع قول ابن خفاجة الأندلسي :

له رشفها دوني ولي دونه الشكر	تعلّقته نشوان من خمر ريقه
ويذكو على قلبي ووجنته الجمر	ترقق ماء مقلتي ووجهه
فلم أدر أيّ قبلها منهما السحر	أرقّ نسبي فيه رقة حسنه
له منطقي ثغري ولي ثغره شعر	وطبنا معاً شعراً وثغراً كأنما



الفصل الثاني

تشبيه التمثيل

تشبيه التمثيل: هو ما كان وجهه منتزعا من متعدد: أمرين أو أكثر؛ بأن يكون لكل من الطرفين كيفية حاصلة من مجموع شيئين أو أشياء قد تضامّت وتلاءمت حتى صارت شيئا واحدا، فيعمد الشاعر إلى أجزاء الطرف المشبه فيشبهها مع الهيئة الحاصلة من تركيبها بالطرف الآخر كذلك. والتسمية اصطلاحية.

والمهم فيه تركيب الوجه سواء أكان طرفاه مفردين أم مركبين أم مختلفين.

والفرق بينه وبين التشبيه الصريح: أنك بالتمثيل في حكم من يرى صورة واحدة، إلا أنه يراها تارة في المرأة وتارة على ظاهر الأمر.

وأما في التشبيه الصريح فإنك ترى صورتين على الحقيقة؛ يبين ذلك أننا لو فرضنا أن نزول من أوهامنا ونفوسنا صور الأجسام في القرب والبعد وغيرهما من الأوصاف الخاصة بالأشياء المحسوسة، لم يمكننا تخيل شيء من تلك الأوصاف في الأشياء المعقولة، فلا يتصور معنى كون الرجل بعيدا من حيث العزة والسلطان، قريبا من حيث الجود والإحسان، حتى يخطر ببالك وتطمح بفكرك إلى صورة البدر وبعد جرمه عنك وقرب نوره منك، وليس ذلك في الشيتين يشبه أحدهما الآخر من جهة اللون والصورة والقدرة، فإنك لا تفقر إلى معرفة كون النرجس وخرطه واستدارته وتوسط أحمره لابيضه، إلى تشبيهه بمداهن در حشوهن عقيق،.

كيف وهو شيء تعرضه عليك العين وتضعه في قليل المشاهدة ، وإنما يزيدك التشبيه صورة ثانية مثل هذه التي معك ، ويحتلبها ولكن من مكان بعيد حتى تراهما معا وتجدهما جميعا (١) .

مزايا العلماء فيه .

وللعلماء فيه مذاهب أربعة :

- ١ — مذهب الجمهور — ومن بينهم الخطيب — ولا يشترطون فيه غير تركيب الوجه سواء أكان التركيب حسيا أم معنويا ، وهو المذهب المشهور .
- ٢ — مذهب الزمخشري ، وهو أنه مرادف للتمثيل فكل تشبيه عنده تمثيل حتى لو كان وجه الشبه مفردا .

وقد قدمنا في تعريف التشبيه أن هذا هو رأى ابن الأثير أخذنا من التعريف اللغوي .

- ٣ — مذهب عبد القاهر ، ويشترط فيه بعد التركيب ألا يكون حسيا ، بأن يكون عقليا أو اعتباريا محضاً لا وجود له إلا في الأذهان والأوهام .
- وسمة وجه الشبه التمثيل عنده : أنه ما لا يحصل فيه الشبه إلا بضرب من التأول ، كتمشيه الحجة بالشمس في الظهور ، فهذا الشبه لا يتم إلا بتأول ، وهو أن الشمس يحول دون رؤية العين لها حجاب ، ومثل الحجاب : الشبهة فيما يدرك بالعقول ، لأنها تمنع القلب رؤية ما هي شبهة فيه كما يمنع الحجاب العين أن ترى ما هو من ورائه ، فإذا ارتفعت الشبهة وحصل العلم بمعنى الكلام الذي هو الحجة على صحة ما أدى من الحكم ، قيل : هذا ظاهر كالشمس : أى ليس هنا مانع من العلم به ، وأن المنكر له إما مدخول في عقله ، أو جاحد مباحث ومسرف في العناد ، كما أن الشمس الطالعة لا يشك فيها ذو بصر .

فقد احتجت في تحصيل الشبه الذى أثبتته بين الحجة والشمس إلى مثل هذا التأول (١).

وعلى هذا فكل ما لا يحتاج إلى تأول لا يعد تمثيلا عند عبد القاهر بل تشبيها ولو كان منتزعا من عدة أمور كالمركبات الحسية ، مثل قول ابن المعتز :
 كأن عيون النرجس الغض حولنا مداهن در حشوهن عقيق
 وقوله :

وأرى الثريا في السماء كأنها قدم تبدت من ثياب حداد
 إلى غير ذلك من المركبات الحسية .

٤ - مذهب السكاكي ، وقد اشترط فيه ألا يكون حسيا ولا عقليا بل وصفا غير حقيقى : أى غير متحقق حسا ولا عقلا ، بأن يكون اعتباريا وهيميا (٢) .

ونص عبارته : واعلم أن التشبيه متى كان وجهه وصفا غير حقيقى وكان منتزعا من عدة أمور خص باسم التمثيل (٣) .
 وقد مثل السكاكى للوصف غير الحقيقى المنتزع من متعدد بعدة أمثال .
 منها قول ابن المعتز :

أصبر على مضض الحسو د فإن صبرك قاتله
 كالنار تأكل بعضها إن لم تجدد ما تاكله

فإن تشبيه الحسود المتروك مقاولته - مع رغبته الجاحمة في ذلك ليشفى غليله - بالنار التى تمد بالخطب فيسرع فيها الفناء ليس إلا في أمر متوهم .
 وقول صالح بن عبد القدوس :

وإن من أدبته فى الصبا كالعود يسقى الماء فى غرسه
 حتى تراه مورقا ناضرا بعد الذى أبصرت من يسه

(٢) حاشية الدسوقي - ٣ - ٤٣٣ .

(١) أسرار البلاغة - ٦٧ - ٦٨ .

(٣) مفتاح العلوم - ١٨٦ .

فإن تشبيهه المؤدب في صباه بالعود المسقى أو ان الغرس المونق بأوراقه ونضرتة ، ليس إلا فيما يلزم كونه مهذب الأخلاق مرضى السيرة حميد الفعال ، بسبب التأديب المصادف وقته من تمام الميل إليه وكال استحسان حاله ، وأنه — كما ترى — أمر تصورى لا صفة حقيقية ، وهو مع ذلك منتزع من عدة أمور .

وبما مثل به من القرآن الكريم قوله — تعالى — : « مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » .

فإن وجه تشبيه المنافقين بالذين شبهوا بهم فى الآية ، هو رفع الطمع إلى تسنى مطلوب بسبب مباشرة أسبابه القريبة مع تعقب الحرمان والخيبة لانقلاب الأسباب ، وأنه أمر توهمى — كما ترى — منتزع من أمور جمّة .
وقوله — عز وجل — : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » ،

فإن وجه التشبيه بين أحبار اليهود الذين كلفوا العمل بما فى التوراة ثم لم يعملوا بذلك وبين الحمار الحامل للأسفار ، هو حرمان الانتفاع بما هو أبلغ شئ بالانتفاع به مع الكد والتعب فى استصحابه ، وليس بمشبهة كونه عائدآ إلى التوهم ومركبآ من عدة معان .

ويقول السكاكى : « والذى نحن بصدده من الوصف غير الحقيقى أحوج منظور فيه إلى التأمل الصادق من ذى بصيرة نافذة وروية ثاقبة لالتباسه فى كثير من المواضع بالعقل الحقيقى لا سيما المعانى التى ينتزع منها ^(١) .
ويرى الخطيب ^(٢) : أن التشبيه فى هذه الأمثال وقع فى أمر حقيقى

لاوهى ، وأن السكاكى لم يتقيد بما اشترطه فى تركيب الوجه، ومثل بـصور
مثل بها غيره من خالفوه فى مذهبه .

وقد انبرى المغربى للتوفيق بين مارآه السكاكى وبين ما مثل به ، فقسم
الوصف إلى ثلاثة أقسام :

١ - حسى خارجى .

٢ - عقلى وجودى

وكلاهما حقيقيان .

٣ - اعتبارى محض لا وجود له إلا فى الأذهان والأوهام .

ولما كانت الهیة المركبة من حيث أنها هیة : اعتبارية محضة ، وجب أن
تراد بكونها حسیة هنا تعلقها بالمحسوس كما هی فى بیت بشار :

كان مشار النقع فوق رموسنا وأسیافنا لیل تهاوى كواکبه
ويراد بالوهى هنا : ما تعلق بمقول مطلقا لا ما تعلق بالاعتبارات المحضة
لعدم انطباق ما مثل به السكاكى إلى الوهى .

وعلى هذا يفسر الحقيقى بالحسى هنا ، وقد تقدم التمثيل للعقلى بهذا الوجه
وهو حرمان الارتفاع بأبلغ نافع^(١) .

والخلاصة . أنهم تأولوا الوصف غير الحقيقى عند السكاكى : بأنه ما
لا يكون حسیاً فدخل فيه على هذا ، المركب العقلى ، وبذلك يرتفع التناقض
بين ما اشترطه وبين ما أورده من الأمثلة التى تعد عقلية .

الوجه المركب :

وينقسم الوجه المركب إلى ثلاثة أقسام :

١ - ما لا يظهر فيه لكل جزء من الأجزاء المتضامة نظير يصح تشبيهه
به فى المقابل إلا بتكلف وتعسف ، لأنه لم يقصد فيه تشبيه المفرد أصلاً

ولا تبعاً ، إما لعدم حسنه أو لعدم تعلق القصد به بحسب المقام ، بل المراد المجموع وهيته من غير ظهور المقابلة من الأجزاء ، وذلك كقوله - تعالى -
« مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ... الآية .

فإن المراد : تشبيه قصة المنافقين بقصة من استوقد ناراً فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم ، في وجود ما يكون نافعاً في الحين ، ويطمع في حصول المراد بمباشرته ، ثم يعقبه الانقطاع الموجب للهلاك والإياس من كل نفع ، ولم يقصد فيه مفرد يقابله مفرد من تلك الجهة الأخرى .

فإن أريد أن يتكلف في ذلك جعل المنافق كالمستوقد ناراً وإظهاره للإيمان الذي انتفع به في الدنيا كوجود ضوء النار المنتفع به حينئذ ، وجعل انقطاع انتفاع المنافق بالإيمان الذي أظهره بسبب الموت مع عقوبة الهلاك في النار والحجاب ، كأنطفاء النار للمستوقد ووقوعه في ظلمة لا يبصر فيها ، فلا بأس ولكن كل ذلك من التعسف .

والنهج القويم : تشبيه الهيئة بالهيئة والقصة بالقصة كما دل عليه ذلك هنا وأوجه صريح المثل .

٢ - ما تظهر فيه المقابلة من كل طرف لكن عند التجريد لا يصح التشبيه لعدم صحة المعنى ، كقول القاضى التنوخى :

كأنما المريخ والمشتري قدامه في شاخخ الرفعـة

منصرف بالليل عن دعوة قد أسرجت قدامه شمعه

فإن تشبيه المريخ وهو الكوكب المعلوم بالرجل المنصرف عن الدعوة

إلى الطعام في مأدبة مثلاً ، لا معنى له منفرداً وهو خلف من القول .

فالشبه ليس للمريخ من حيث هو ، ولكن من حيث الحالة الحاصلة له من كون المشتري أمامه فلا يمكن إفراد أحد جزئيه بالذكر ، وأنت وإن كنت تقول : المشتري شمعة على التشبيه العامى الساذج في قولهم : كأن النجوم

مصاييح وشموع ، فإنه لم يوضع التشبيه على هذا ، وإنما قصد الهيئة التي يكتسبها المريخ من كون المشتري أمامه .

٣ - ما يصح تشبيه كل مقابل بأخيه حتى يكون من تشبيه المتعدد ، ولكن يمنع منه وجود الحسن في التركيب الذي لا يوجد في المتعدد كقول أبي طالب الرقي :

وكان أجرام السماء لوامعاً درر نثرن على بساط أزرق
فإن مقابل النجوم من الطرف الآخر هو الدرر ، ومقابل السماء المفهومة من ذكر النجوم ، البساط الأزرق وذلك ظاهر ، ويصح التشبيه في كل منهما على أنفراد بأن يقال : النجوم كالدرر ، والسماء كبساط أزرق ، ولكن يفوت الحسن الذي اقتضاه التركيب ، فإن إلحاق هيئة ظهور النجوم على السماء الزرقاء بهيئة الدرر على البساط الأزرق أحسن وأرق ذوقاً من إلحاق النجوم المجردة بالدرر والسماء بالبساط على انفراد ، فإن الغرض ذكر الأمر العجيب من طلوع النجوم مؤتلفة متفرقة في أديم السماء وهي زرقاء صافية والنجوم تتلألأ في أثناء تلك الزرقة ، ومن لك بهذه الصورة إذا فرقت التشبيه ، وأزلت عنه الجمع والتركيب .

ومتي أمكن حمل التشبيه على المركب فلا يعدل عنه إلى المفرد ، حتى لا تفوت معه دقة التركيب المرعية في وجه الشبه .

ويجب أن يكون مفهوماً أن التشبيه المقصود عند البديعين هنا ، هو التشبيه المركب لأنه عزيز الوقوع ، وأما تعدد التشبيه من غير تركيب فهو أمر سهل ، وقد بلغ فيه الشعراء إلى تشبيه عشرة بعشرة .^(١)
وقد يقع حيناً أن وجه الشبه لا يكون إلا عقلياً ، كقول الرسول

(١) إقامة الحججة على النقي بن حجة - ٩٦

— صلى الله عليه وسلم — : « مثل أصحابي كمثل الملح في الطعام ، لا يصلح الطعام إلا بالملح ،
فالشبه لا يكون هنا إلا عقلياً ، وهو أن الناس يصلحون بهم كما يصلح
الطعام بالملح .

ومن وصف الجاحظ لبنى هاشم : وهاشم ملح الأرض وزينة الدنيا ^(١) .
والشبه بين صلاح العامة بالخاصة وبين صلاح الطعام بالملح لا يتصور
أن يكون محسوساً .

وكما كان التشبيه أوغل في كونه عقلياً محضاً كانت الحاجة إلى الجملة أكثر .
ألا ترى إلى قوله — عز وجل — « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء
فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض
زُخْرُفَها وازَّيَّنَتْ وظن أهلها أنهم قادرون عليها أناها أمرنا ليلاً أو نهاراً
فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ،

كيف كثرت الجمل فيه حتى إنك ترى في هذه الآية عشر جمل إذا فصلت .
وهي وإن كان قد دخل بعضها في بعض — حتى كأنها جملة واحدة — فإن
ذلك لا يمنع من أن تكون صورة الجمل معنا حاصلة تشير إليها
واحدة واحدة .

ثم إن الشبه منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض
وإفراد شطر من شطر ، حتى إنك لو حذفت منها جملة واحدة من أى موضع
كان ، أخل ذلك بالمعزى من التشبيه .

ولا ينبغي أن تعد الجمل في هذا النحو بعد التشبيهات التي يضم بعضها إلى
بعض ، والأغراض العكسيرة التي كل واحد منها منفرد بنفسه ، بل بعد جمل

تفسق ثانية منها على أوله وثالثة على ثانية وهكذا ، فإن ما كان من هذا الجنس لم ترتب فيه الجمل ترتيبا مخصوصا حتى يجب أن تكون هذه سابقة وتلك تالية لها والثالثة بعدهما (١) .

فقد شبه في الآية حال الدنيا العجيبة الشأن ، وهي تقضيها بسرعة وانقراض نعيمها جميعا بغتة بعد ظهور قوتها واعتزاز الناس بها واعتمادهم عليها ، بزوال خضرة النبات فجأة وذها به خطاما لم يبق له أثر أصلا ، بعد ما كان غضا طريا قد التف بعضه على بعض ، وزين الأرض بأنواره وطرأوته ، وتقويه بعد ضعفه بحيث طمع الناس فيه وظنوا سلامته من الجوائح ووجه الشبه هيئة منترعة من تلك الأمور ، وهي حصول شيء ترتب عليه المنافع فيحصل السرور به وتنسى عاقبة أمره ، ثم يذهب ذلك الأمر مسرعا (٢) .

ويجب الاحتراس في انتزاع وجه الشبه المركب وبخاصة إذا كان عقليا ، لافتقاره إلى فضل نظر ودقة تأمل ، فقد يظن أن المقصود انتزاعه من بعض أمور متعددة ، على حين أنه لا يتحقق إلا بانتزاعه من جميعها ؛ لأن لكل جزء قيمته في تأليف المعنى السكلي والصورة الجمالية .
وذلك كقول الشاعر (٣) :

كما أبرقت قوما عطاشا غمامة فلما رأوها أقشعت وتجلت

فقد يهيجس في الخاطر أن الشطر الأول منه تشبيه مستقل بنفسه عن الشطر الثاني ، وأن المقصود به ظهور أمر مطمع لمن هو في شدة الحاجة إليه ، وعلى هذا يكون وجه الشبه غير مركب .

ولا شك أن ذلك خطأ محض ؛ لأن الشاعر لم يرد هذا وإنما أراد

(١) أسرار البلاغة - ٨٢ (٢) حاشية الدسوقي - ٣ - ٤٥٦

(٣) قال العباسي : إن قائله غير معروف . معاهد التنصيص - ١ - ١٥١

تشبيه الحالة المذكورة في الآيات المتقدمة على هذا اليت بظهور غمامة لقوم عطاش ثم تفرقها وانكشافها .

والمغزى : إثبات ابتداء مطعم متصل بانتهاء مؤيس .

فاليت مثل في تصوير الشيء يعن المضطر إليه المتلهف عليه فيقوى أمله في تحصيله ، ولكن لا يلبث أن يطير عنه مخلفا له لذعة الحسرة ومرارة الحمية . فانزعاع الشبه من المصراع الأول وحده خطأ لعدم وفائه بالمعنى المراد لأنه مطعم غسب .

ومثله قول كثير عزة :

وإني وتهاى بعزة بعدما تخلّيتُ مما بيننا وتخلّت
لكا لمرتجى ظلّ الغمامة كلما تبوأ منها للمقبل استقلت

فإنه ليس الغرض تشبيه حاله بحال من يرجو ظل الغمامة فقط ، بل بمن تظله الغمامة ويطمئن إلى استدامة ظلها فتتقشع عنه ويزايله الظل .

وقد عبر عنه الحسن بن وهب فيما كتبه إلى بعض أصدقائه — وقد اصطبغ في يوم دجن لم يمطر — : أما ترى تكافؤ هذا الطمع واليأس في في يومنا هذا بقرب المطر وبعده كأنه قول كثير :
ثم ساق البيتين المتقدمين .

وقد أكثر الشعراء في هذا المعنى فقال بشار :

لمروان مواعد كاذبات كما برق الغمام وما استهلا

وقوله :

أطلت علينا منك يوما سخابة أضامت لنا برقاً وأبطأ رشاشها
فلا غيمها يُجلى فيأس طامع ولا غيمها يأتي فيروى عطاشها

ومن اللطائف قول ابن الطراوة النحوى - وقد خرجوا ليستسقوا
على أثر قحط في يوم غابت سماؤه فزال ذلك عند خروجهم - :

خرجوا ليستسقوا وقد نشأت	بحرية قمر بها السح ^(١)
حتى إذا اصطفوا لدعوتهم	وبدا لأعينهم بها نضح
كُشف الغمام إجابة لهم	فكأنهم خرجوا ليستصحوا
والأصل في ذلك قول الأحوص :	
وكننت وما أملت منك كبارق	لوى قطره من بعدما كان غيماً

الفصل الثالث.

فضل التمثيل وتأثيره

ليس هذا التأثير الذي ينفج به التمثيل والذي يعمل عمل السحر في كياننا فيهزه من الأعماق ، قد جاء اعتباطاً أو هو مما يقع فلتات ، بل له علل وأسباب متينة الصلة بالنفوس الإنسانية فإذا استأذن عليها فتحت له أبوابها على مصاريحها ، وتلقته بالقبول والبشاشة والارتياح ، كما تتلقى شيئاً ساراً مبهجاً يلذها موقعه ويخف عليها محمله .

ذلك أن النفوس تنفر بطبعها من الغموض وتفر من اللبس ، وتتملعل من مواقف الحيرة والشك والبلبة ، وتبادر إلى المروق من الظلمة إلى النور ومن الشبهة إلى اليقين أنى وجدت السبيل إلى ذلك .

وهذا التمثيل من شأنه أن ييسر لها هذه البغية المحببة ، فيخرجها من الخفاء إلى الجلاء ، ومن الغبش إلى الوضوح ، ومن متاهات العقول التي يكتنفها الضباب ويلفها القتام إلى ما تدركه بالضرورة ، وتلمسه في مغارس الطباع ، وتجثله في معارض الحواس الظاهرة ، فيكون عليها به أتم وأوسع وأعمق ومعرفتها أكمل وأشمل وأدق وأشد وأحكم ، وكيف وقد نقلها من شيء لُقنته تلقيناً بلا درس ولا خص ، إلى شيء أحاطت به خبراً ، وقتلته علماً ومارسته تجربة ، وزاولته عملاً .

ومرد ذلك إلى أن النفس في الأصل كانت صفحة بيضاء خالية من المعارف .

ثم إن المعارف الأولى استفادتها مما تسرب إليها من الحواس ، أو استوحتها من الطباع قبل استخدام الفكر وإعمال العقل .

فإذا عرضنا عليها هذه المعاني العقلية في صورة ما يدرك بالحواس ويفهم بالطبع ، لم نفاجئها بشيء غريب تزهده فيه وتنبو عنه ، وتقابله بالإشفاق والحذر والخوف والتوجس ، بل نكون قد عرضنا عليها شيئاً يمت لها بألفة قديمة ومودة سابقة لا تنكر قرابته ، فتش له وتبش به ، وتفتح له أحضانها كما يلتقي قريبان حبيبان بعد طول الفراق .

هذا إلى أن التشبيه عامة ينزل موقعه وتسمو قيمته ، ويجل تأثيره ، ويشير الطرب والإعجاب في النفوس ، ويحرك منها كوامن الاستحسان والاستطراف بقدر تصويره الشئيين البعيدين قريبين ، والمختلفين المتباينين مؤتلفين ، لأن ما يخرج من غير معدنه ، وينبت في غير أرضه ، ويتفرع من غير جنسه يبعث البهجة ويستفز العاطفة ، ويوقظ الانفعال .

والتمثيل في ذلك أمضى أداة وأسرع نفاذا لحسن تأتيه ولطف سحره ودقة مسلكه في التقريب بين النائيين ، والتأليف بين المتقابلين ، وبث الوحدة في الصور المتفرقة ، وصب المعاني المتعلقة والمتخيلة والمتوهمة في قوالب الشخوص الحية والأشباح النابضة المتحركة .

والذي يجب أن يعرف أن هذه الصور البيانية على اختلاف أنواعها ليست لغوا من الكلام ولا نافلة في القول ، ولكنها كما يقول « مارزى » : وحتى العلماء الذين أوجدوا النحو المنطقي لم يلبشوا أن يتساموا : هل يمكن أن تعدّ الصور الخيالية : أى ما يسمى بالاستعارات والمجازات زخرفات وتزيينات أو عناصر مضافة إلى الصور المنطقية العارية ، ثم لم يلبشوا

أن أدركوا أنها ليست بالزخرفات ، وإنما هي صور تلقائية من صور التعبير ^(١) .

فمن الأول — وهو التأليف بين المتنافرين — قول ابن حمديس في النيلوفر:

اشرب على بركة نيلوفر محمّرة النوار خضراء

كأنما أزهارها أخرجت السنة النار من الماء

وقول ابن الرومي — حين أحس بالسّم الذي دس له يدب في أعضائه —

أشربُ الماء إذا ما التهبّت نار أحشائي لإطفاء اللهبّ

فأراه زائدا في حرقتي فكأن الماء للنار حطب

وقول أبي المطرف بن فتوح:

وقف العذار بخده فحسبته ليلا توقف وسط ضوء نهار

وتوردت وجناته فحسبته نارا تلظى فوق ماء جار

وقول الآخر:

كالغيث منسكبا على إخوانه والنار ملتهبا على أعدائه

وقول الآخر:

أنا ناز في مرتقى نظر الحيا سد ماء جار على الإخوان

ومن الطريف ^(٢) : أنه دخل الحمام يوما الأديبان أبو جعفر التطيلي

وأبو بكر بن بقي فقال أبو جعفر:

يا حسنَ حمّامنا وبهجتَه مرأى من السحر كله حسن

ماء ونار حواهما كنّف كالقلب فيه السرور والحزن

(١) المجلد في فلسفة الفن لسكروتنش — ١٤٨ — ١٤٩ .

(٢) النخبة — ١ — ٢٥٨ .

وقال أبو بكر :

حامنا فيه فصل القيظ مخدّم وفيه للبرد سر غير ذى ضرر
ضدان ينعم جسم المرء بينهما كالغصن ينعم بين الشمس والمطر
ومن الثانى — وهو تجسيم المعانى وتشخيصها — قول ابن المعتز :

وانظر إلى دنيا ربيع أقبلت مثل البغى تبرجت لزُناة
جاءتك زائرة كعام أول وتلبّست وتعطرت بنبات
وإذا تعرّى الصبح من كافوره نطق صنوف طيورها بلغات
والورد يضحك من نواظر رجس قذيت وأذن حيها بمعات

والضحك فى الورد وكل ربحان ونور يتفتح ، مشهور معروف ، وقد
قاله فى هذا البيت وجعل الورد كأنه يعقل ويميز ، فهو يشمت بالرجس
لانقضاء مدته وإدبار دولته ، وبدواً أمارات الفناء فيه .
فهذا شأن الورد الذى عابه ابن الرومى فى قوله :

فصل القضية أن هذا قائد زهر الرياض وأن هذا طارد

وقد جعله ابن المعتز لهذا الطرد ضاحكاً ضحك من استولى وظفر ،
وابتر غيره ولاية الزمان ^(١) .

وقول الأمير مروان بن عبد الرحمن الأموى — وكان فى بنى أمية كابن
المعتز فى بنى العباس — ^(٢) :

ودّعت من أهوى أصيلاً ليتنى ذقت الحمام ولا أذوق نواه
فوجدت حتى الشمس تشكو وجده والورق تندب شجوها بهواه

(١) أسرار البلاغة — ٢٣٩

(٢) نقح الطيب — ٢ — ٣٣٣

وعلى الأصائل رقة من بعده فكأنها تلقى الذى ألقاه
وغدا اللسيم مُبلّغا ما بيننا فلذلك رق هوى وطاب شذاه
ما الروض قد مزجت به أندأؤه سحرا بأطيب من شذا ذكراه
والزهر مبسمه ونكهته الصبا والورد أخضله الندى وحواه
فكذلك أولع بالرياض لأنها أبدا تذكرنى بمن أهواه
وقول كشاجم :

وكان ورد الباقلاء دراهم قد ضمخت أوساطها بالعنبر
وكانه من فوق متن غصونه يرنو بمقلة أقبل أو أحور^(١)

المعاني والتمثيل .

تجى المعاني تارة فى نسق التمثيل مفرغة فى قلبه ، وهو قليل فى كلام البلغاء
كثير فى القرآن الكريم .

فمن ذلك قوله تعالى — : « مثلهم كمثل الذى استوقد نارا . . . »
« أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق . . . »
« مثل الذين كفروا كمثل الذى ينفق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء . . . »
وقول الرسول — صلى الله عليه وسلم — « الناس كأسنان المشط وإنما
يتفاضلون بالعافية » ،

الناس كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام
إذا فقهوا ،

(١) القبل بفتح تين : إقبال إحدى حدقتى العين على الأخرى ، وقيل : هو كالحول .

« المؤمن هين لين كالجمل الأنف^(١) إن انقيد انقاد ، وإن أنيخ على صخرة
استنخ ،

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ،
« أمتي كالمطر لا يدري أوله خير أم آخره ،
« عمالك كأعمالكم وكأتكونون يؤلى عليكم ،
« المرأة كالضلع العوجاء إن قومتها كسرتها وإن داريتها استمتعت بها ،
« المتشبع بما ليس فيه كلابس ثوبي زور ،

لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خفافا
وتروح بظانا ،

« مثل المؤمن كالسنبلة تميل أحيانا وتعندل أحيانا ،
مثل الجليس الصالح كالعطار إن لم تُصب من عطره أصبت من ريحه ،
ومثل الجليس السوء كالكير إن لم يحرق ثوبك آذاك بدخانه ،
ومن الشعر قول شوقي :

مثل القوم نسوا تاريخهم كلقيط عى في الناس انسابا
أو كغلوب على ذاكرة يشتكي من صلة الماضي انقضا
وقوله :

مثل الحياة تُحب في عهد الصبا مثل الرياض تحب في آزار
وتارة يحى التشيل رادفا للمعانى متأثرا لها لتجلية مغزاها وكشف سرها ،
وتقررها في النفوس ، وتفخيمها في الصدور .

(١) الأنف ككتف : الذي يشتكي أهله .

فمن ذلك قوله — تعالى — : وضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء
متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا .

ولا خلاف أن التمثيل بشطريه يبحث في الكلام روحا جديدة ، ويبحث
فيه الحياة والخصب والقوة ، ويكسوه رونق الشباب ووشى الإعجاب ، فيكون
له في المسامع حلاوة وعلى القلوب نداوة .

مواقع التمثيل .

والتمثيل ينظم شتى المعاني ، ويلبس مختلف الصور الأدبية .
فمن ذلك الوصف كقول الميكالى :

أما ترى الزهرة قد لاحت لنا تحت هلال لونه يحكى اللهب
ككرة من فضة مجلوة وافى عليها صولجان من ذهب

وقول شاعر :

وسحاب يجر فى الأفق دلي مطرف زره على الأرض زرا
برقه لمحة ولكن له رعد م بطيء يكسو المسامع وقرا
كنخلى منافق للذى يهوا هيبكى جهرا ويضحك سرا

وقول آخر فى الحمام :

ألا رب حمام بدا لى حميمه فظاهره ماء وباطنه نار
كياخوان هذا العصر من تلق منهم فلولود إعلان وللحقد إسرار

وقول أبى فراس :

وقور وربعان الصبا يستغزها فتأرن أحيانا كما يأرن المهر

والغزل وما يتصل به ، كقول ابن الرومي :

يارب حُسَّانةٍ منهن قد فعلت سوءاً وقد تفعل الأسواء حُسَّاناً
تُصمى المحب وتُلقَى الدهرَ شاكِيَةً كالقوس تُصمى الرمايا وهي مرنان

وقول العباس بن الأحنف :

فيا ويح من كلفت نفسه بمن لا يطيق إليه السبيلا
هي الشمس مسكنها في السماء فعز الفؤاد عزاء جميلاً
فلن تستطيع إليها الصعود ولن تستطيع إليك النزولا

وقول المتنبي :

مَن تزرع قوم من تهوى زيارتها لا يتحفوك بغير البيض والأسل
والهجر أقتل لي مما أراقبه أنا الغريق فماخوفي من البلل

وقوله :

بيضاء تطمع فيما تحت حلتها وعز ذلك مطلوباً إذا طُلِبَا
كأنها الشمس يعي كف قابضه شعاعها ويراه الطرف مقرباً
وقول راشد بن راشد :

وإني وإن أعرضت عنك لمنطو على حرق بين الجوانح والصدر
إذا هاج شوقي مثلك لي المنى فألقاك ما بيني وبينك في السر
تصبرت مغلوباً وإني لموجع كما صبر الظمآن في البلد القفر

وقول ابن عبد ربه :

فكيف ولي قلب إذا هبت الصبا أهاب بشوق في الضلوع دفين
ويحتاج منه كلما كان كامناً دعاء حمام لم تبت بكون
وإن ارتياحي من بكاء حمامة كذى شجن داويته بشجون

والممدح كقول ابن الرومي :

له سورة مكتنة في سكتة كما كتبت في الغمد الجراز المهند^(١)

وقول البحترى :

متلهل طلق إذا وعد الغنى بالبشر أتبع بشره بالنائل
كالمزن إن سطعت لوامع برقه أجلت لنا عن ديمة أو وابل

وقول علي بن جبلة :

إذا ما تردى لامة الحرب أرعدت حشا الأرض واستمدى الرماح الشوارع
وأسفر تحت النقع حتى كأنه صباح مشى في ظلمة الليل طالع

وقول آخر : —

سررت بجعفر والقرب منه كما سرَّ المسافر بالإياب
كمطور ببلدته فأضحى غنيا عن مطالعة السحاب
وهو مأخوذ من قول بعضهم :

فكنت فيهم كمطور ببلدته فسرَّ أن جمع الأوطان والمطرا

وقول المتنبى في كافور :

إن في ثوبك الذي المجد فيه لضياء يزرى بكل ضياء
إنما الجلد ملبس وايضا النفس م خير من ابيضاض القباء

(١) الجراز بالضم : السيف القاطع .

والهجماء كقول أبي تمام :

كم نعمة الله كانت عنده فكأنها في غربة وإسار
كُسيت سبائب لؤمه فتضاملت كتضاؤل الحسناء في الأطمار
وقول ابن الرومي :

رأيتكم تستعدّون السلاح ولا تحمون في الرّوع من أعدائكم سلباً
كالنخل يُشرع شوكا لا يذود به أيدى الجناة ولا يحميمهم الرُّطبا
وقول الناجم :

ينقص الأحرار من شأنهم وهو أخو القلة والنقص
كأنه البرغوث لم يخطه في صغر الجثمان والقرص
والرثاء كقول أبي تمام :

فإن ترم عن عمر تداني به المدى نخانك حتى لم يجد فيه منزعا
فما كنت إلا السيف لاقى ضريبة فقطعها ثم انتنى فقطعها
وقول ابن الرومي في رثاء ابنه الأوسط :

وإن وإن متعت بانيء بعده لذاكره ما حنت النيب في نجد
وأولادنا مثل الجوارح أيها فقدناه كان الفاجع البين الفقد
وقول الحسين بن مطير يرثي معن بن زائدة :

ففي عيش في معرفه بعد موته كما كان بعد السيل بجراه مرتعا
وقوله في رثاء خالته :

أراني وأمي بعد فقدان أختها وإن كنت في رفقه بها وصلاح
كفرخ قطاة الدوّ بان جناحها فباتت إلى خفق بغير جناح^(١)

(١) الدو بالشديد : الفلاة الواسعة .

وقول مسلم :

وإني وإسماعيل يوم وفاته لكأحمد يوم الروع فارقه النصل
فإن أغش قوما بعده أو أزورهم لكألو حش يدنيها من الأنس المحل^(١)
والفخر كقول عبد المطلب بن هاشم :

لنا نفوس لنيل المجد عاشقة ولو تسلّت أسلناها على الآسل
لا ينزل المجد إلا في منازلنا كالنوم ليس له مأوى سوى المقل
والحث على الجد والكمال كقول المتنبي :

ولم أر في عيوب الناس نقصا كنقص القادرين على التمام
والاستعفاف كقول عمر بن أبي ربيعة :

ان تبدل لي نائلا أشقى به سقم الفؤاد فقد أطلت عذابي
وعصيت فيك أقاربي فتقطعت بيني وبينهم مَعرا الأسباب
فتركتني لا بالوصال ممسكا منهم ولا أسعفتني بثواب
فقعدت كالمُهرِّيق فضلة مائه في حر هاجرة للمع سراب
وقول المتنبي لكافور :

وما كنت لولا أنت الامهاجرا له كل يوم بلدة وصحاب
ولكنك الدنيا إلى حبيبة فما عنك لي إلا إليك ذهاب
والتحسر والتوجع كقول عميرة بن جعيل التغلبي :

ندمت على شتم العشيرة بعدما مضت واستقبت للرواة مذاهبه
فأصبحت لا أستطيع دفعا لما مضى كما لا يرد الدرّ في الضرع حاله
وقول العباس بن الأحنف .

لا جزى الله دمع عيني خيرا وجزى الله كل خير لسانى

(١) الأنس بفتح الحاء : الحي المقيمون .

نَمْ دَمْعِي فَلَيْسَ يَكْتُمُ شَيْئًا وَوَجَدْتُ اللِّسَانَ ذَا كَتْمَانٍ
كَتَمْتُ مِثْلَ الْكِتَابِ أَخْفَاهُ طَيِّ فَاسْتَدَلُّوا عَلَيْهِ بِالْعُنْوَانِ
وَقَالَ الْمُتَنَبِّي :

تَمَنَّيْتُ يَلَدَ الْمُسْتَهَامِ بِذِكْرِهِ وَإِنْ كَانَ لَا يَغْنَى فَيَتَلَاوَلَا يَجْدِي
وَيَغِظُ عَلَى الْآيَامِ كَالنَّارِ فِي الْحَشَا وَلَكِنَّهُ غِيظَ الْأَسِيرِ عَلَى الْقَدِ
وَقَوْلُ الدَّكْتُورِ زَكِيِّ مَبَارَكٍ :

وَأَصْبَحْتُ وَالرَّأْسَ مَرَعَى الْمَشِيبِ قَلِيلُ السَّرُورِ كَثِيرُ الْحَزَنِ
لَعَمْرِي لَنْ تُشَبَّ قَبْلَ الْأَوَانِ لَقَدْ شَابَ حَظِّي وَشَابَ الزَّمَنُ
كَأَنَّ الشُّعُورَ عَرَاهَا الْبَيَاضُ سَهَامُ الرَّدَى وَخِيوطُ الْكِفَنِ
وَأَنَّ الشَّبَابَ إِذَا مَا انْقَضَى لَكَا لَحْمٌ أَقْلَعَ عَنْهُ الْوَسَنُ
وَالْعَتَابُ كَقَوْلِ ابْنِ الرَّومِيِّ :

طَلَبْتُ إِلَيْكُمْ بِالْعَتَابِ زِيَارَةَ وَعَطَفْنَا فَأَعْتَبْتُمْ بِإِحْدَى الْبَوَائِقِ
فَكُنْتُ كَمُسْتَسْقٍ سَمَاءَ مُخِيلَةٍ حَيًّا فَأَصَابَتْهُ بِإِحْدَى الصَّوَاعِقِ
وَالشُّكْوَى كَقَوْلِ ابْنِ الْحِجَّاجِ :

لِي صَاحِبٌ عَمِيَّتٍ عَلَى شَتْوَنِهِ حَرَكَاتُهُ بِمُجْهَوْلَةٍ وَسُكُونِهِ
مَا زِلْتُ أَحْفَظُهُ عَلَى شَرَفِي بِهِ كَالشَّيْبِ تَكَرَّرَهُ وَأَنْتَ تَصُونُهُ
وَقَوْلُ ابْنِ زَيْدُونَ :

بَنِي جَهْورٍ أَحْرَقْتُمُو بِجَفَائِكُمْ جَنَانِي فَمَا بَالُ الْمَدَائِحِ تَعْبَقُ
تَعْدُونَنِي كَالْعَنْبَرِ الْوَرْدِ إِنَّمَا تَطْيِبُ لَكُمْ أَنْفَاسَهُ حِينَ يُحْرِقُ
وَقَوْلُ ابْنِ رَشِيقٍ :

أَرَاكَ أَتَهْمَتُ أَخَاكَ الثَّقَفَةَ وَعِنْدَكَ مَقَتٌ وَعِنْدِي مَقَةٌ
وَأَتْنِي عَلَيْكَ وَقَدْ سَوَّيْتَنِي كَمَا طَيَّبَ الْعُودَ مَنْ أَحْرَقَهُ

وهما من قول أبي تمام :

لولا اشتعال النار فيما جاورت
وقول آخر :

أصبحت تخرجني بغير جريمة
كدم الفِصاد يراق أرذل موضع
والعزاء والتسلية كقول أبي تمام :

فلا يحسب الأعداء عزلك مغنا
وما كنت إلا السيف جرد في الوغى
وقول المتنبي :

عزائك سيف الدولة المقتدى به
وقول أبي هفان :

يعيرني عربي رجال سفاهة
بأنى مثل السيف أحسن ما يرى
وقول الناجم :

ما خمدت نارى ولكننى
قد حدثت في دهرنا أنفـس
كما تعاف الطيب المشتبه
والاحتجاج كقول أبي مروان بن شماخ :

نواب غالتني فأبدت فضائي
وقول الخليل بن أحمد :

والمال يغشى أناسا لا تخلاق لهم

كالسيل يغشى أصول الدّندن البالي^(١)

(١) الدندن بالكسر : ما أسود من نبات أو شجر .

وقول التهامي :

لو لم يكن اقحوانا ثغر مبسِـمها
وقول ابن الرومي :

دهر علا قدر الوضيع به
كالبحر يرُسب فيه لؤلؤه
وقول المتنبي :

لأن حلك حلم لا تسكفه
وقول بعضهم :

تري الثياب من الكتان يلحها
فكيف تذكر أن تبلى معا جرها
وقول آخر :

لئن بسط الزمان يدي لئيم
فقد تعلو على الرأس الذنان
وقول آخر :

إن مسّت النار جسمي
كالدهر إن عضّ يوما
وقول آخر :

إنما يعشق المنايا من الأقوام م
وكذاك الرماح أول ما يكسر م
وقول آخر :

وعامل بالفجور يأمر بالبر م
أو كطبيب قد شفه سقم
يا واعظ الناس غير متعظ
وقول ابن المعتز :

دعني إلى عهد الصبا ربه الخدر
وألقت قناع الخزّن واضح الثغر

وقالت وماء العين يخلط كلها
لمن تطلب الدنيا إذا كنت قابضا
أراك جعلت الشيب للهجر علة
والاعتذار كقول الفرزدق:

فإن يك سيف خان أو قدر نبا
فسيف بني عبس وقد ضربوا به
كذاك سيوف الهند تنبوظاتها
والحكم والعظات والنصائح — وهو أوسع الأبواب وأليقها بالتمثيل —
كقول ابن الرومي:

لا تلح من يكي شيبته
لسنا نراها حق رؤيتها
كالشمس لا تبدو فضيلتها
وقوله:

لا تكثرن ملامة العشاق
إن البلاء يطاق غير مضاعف
لا تطفئن جوى بلوم إنه
وقول المتنبي:

إن السيوف مع الذين قلوبهم
تلقى الحسام على جراءة حده
وقوله:

لا تشكون إلى خلق فتشمتهم
شكوى الجريح إلى العقبان والرخم

وقوله :

فلا تغررك ألسنة مَوال تقلبنَّ أفتدة أعادى
وكن كالموت لا يرثى لباك بكى منه ويروى وهو صادى

وقوله :

يموت راعى الضأن فى جهله ميتة جالينوس فى طبه
وغاية المفرط فى سلبه كغاية المفرط فى خربه

وأشهد أبو أحمد العسكري عن ابن دريد :

وبعض الأمر أصلحه ببعض فإن الغث يحمله السمين
ترى بين الرجال العينُ فضلا وفيما أضمرُوا الفضل المبين
كلون الماء مشتبهها وليست تخبر عن مذاقته العيون

وقول ابن التيبه :

خذ من زمانك ما أعطاك مغتما وأنت ناه لهذا الدهر أمره
فالعمر كالسكاس تستحلى أوائله لكنه ربما حُجَّتْ أواخره

وقول شوقي :

المستبد يُطاق فى ناووسه لاحت تاجيه وفوق وِثابه^(١)
والفرد يؤمن شره فى قبره كالسيف نام الشر تحت قرابه

وقوله :

فيا للغروب يهيج الأسى وكان الشروق لنا أى عيد
كذا المرء ساعة ميلاده وساعة يدعو الحمام العنيد

وقوله فى انتحار الشباب :

فيم تجنون على آبائكم ألمَ الشكل شديداً فى الكبر
وتعقون بلاداً لم تزل بين إشفاق عليكم وحذر
فصاب الملك فى شبانه كمصاب الأرض فى الزرع النَّضير

(١) الناووس : القبر ، والوثاب بالسكسر : سرير الملك .

الفصل الرابع

التشبيه الحسى

التشبيه الحسى : ما يدرك هو أو مادته بإحدى الحواس الخمسة الظاهرة كما مر في كثير من الأمثال . ويدخل فى الحسى عندهم الخيالى ، وهو المركب المعلوم الذى تخيل تركيبه من أمور كل واحد منها موجود فى الخارج فيدرك بالحس كقول ابن وكيع يصف الخشخاش :

وخشخاش كأننا منه نفرى قيص زبرجد عن جسم در
كأقداح من البلور صينت بأغشية من الديباج خضر
وقول آخر فى وصف بطيخة :

ومال إلى بطيخة. ثم شقها وفرقها ما بين كل صديق
صفائح بلور بدت فى زبرجد مرصعة فيها فصوص عقيق
فقميص الزبرجد الذى يغطى جسما من الدر ، وقداح البلور المغطاة بالديباج الأخضر فى قول الأول .

وصفائح البلور المرصعة فيها فصوص العقيق فى وعاء من الزبرجد فى قول الثانى ، من الصور التركيبية المكدومة فى الخارج ، ولكن العناصر التى ركبت منها موجودة ندركها بالحس الظاهر .

وبقابل الحسى : العقلى ، والمراد به : المعانى السكلية التى تدرك بالعقل من غير استناد إلى حاسة أصلا ، كتشبيه العلم بالحياة ، والجهل بالموت . ويدخل فى العقلى الوهمى ، وهو ما لا يمكن إدراك أجزائه بالحواس الظاهرة لعدم وجودها ، لكنها بحيث لو وجدت لم تدرك إلا بها .

والفرق بين الوهمي والخيالي : أن الوهمي لا وجود لهيته ولا لجميع مادته ، والخيالي جميع مادته موجودة دون هيئته ^(١) .

طرفا التشبيه الحسي .

طرفا التشبيه الحسي : هما الحسيان ، أما التشبيه نفسه فلا يمكن أن يكون حسيا ؛ لأنه تصديق على الصحيح خلافا لمن قال : إنه إنشاء ، والتصديقيات ليس شيء منها يحس ، فالحس إنما يدرك المفردات ^(٢) .

ومذهب الحكماء : أن المدرك بالحواس الخمسة إنما هي الأعراض وخواص الأجرام لاذوات الأجرام ، فالبصر يدرك اللون ، والسمع يدرك الصوت ، والشم يدرك الرائحة ، والذوق يدرك الطعم ، واللمس يدرك الحرارة واللين مثلا .

ومذهب المتكلمين : أن الحواس تدرك الأجرام وخواصها ، فالجزم المدرك طعمه بالذوق مثلا ، أدركت جرميته وخاصتها بالذوق ، وكذا يقال في الباقي ^(٣) .

وعلى هذا إذا أطلقت المحسوس على ذات لا تريد لونها مثلا بل معناها العقلي ، كان ذلك المدرك حينئذ عقليا لا حسيا .

وإن أطلقت على ذات تريد عرضها المدرك بالحاسة كالخد والورد عد حسيا توسعا ، لأن المدرك في الحقيقة هو اللون على مذهب الحكماء المتقدم ، فكونهما حسيين فاعتبار ما جرى عليه اللسان .

وفي ذلك يقول ابن رشيق : وقوع التشبيه إنما هو أبدا على الأعراض لا على الجواهر ، لأن الجواهر في الأصل كلها واحد ، اختلفت أنواعها أو اتفقت ^(٤) .

(١) حاشية الدسوقي - ٣ - ٣١٨

(٢) عروس الأفراح - ٣ - ٣٠٦ (٣) حاشية الدسوقي - ٣ - ٣٠٨

(٤) العمدة - ١ - ١٩٤

ويقول ابن الأثير في كنز البلاغة : قولنا : زيد أسد : تشبيه معنى بمعنى لأن المقصود الشجاعة .

وعلى مذهب المتكلمين هما حسيان قطعاً ، لأن الأجرام عندهم تدرك بالحاسة كما يدينا .

وإذا قلت : لون زيد كلون عمرو وكانا حسين عند الحكماء والمتكلمين . ويقول عبد القاهر في قول الشاعر :

عسل الأخلاق ما يأسرته فإذا عاسرته ذقت السلع^(١)
التشبيه عقلي إذ ليس الغرض الحلاوة والمرارة اللتين تصفهما لك المذاقة ويحسهما الفم واللسان ، وإنما المعنى : أنك تجد منه في حال الرضا والموافقة ما يملؤك سروراً وبهجة حسياً يجد ذائق العسل من لذة الحلاوة ، ويهجم عليك في حال السخط والإباء ما يشدد كراهتك ويكسبك كرباً ، ويجعلك في حال من يذوق المر الشديد المرارة ، وهذا أظهر من أن يخفى^(٢) .
والصحيح : أنك لا تجد تشبيهاً فيه الطرفان حسيان إلا قليلاً^(٣) .

والتشبيه المحسوس طرفين ووجهها ، أسهل أنواع التشبيه من حيث التكوين والإدراك ، لأن الإحساس أيسر العمليات العقلية .
وأشد أنواع التشبيه حاجة إلى التفكير وإعمال الذهن ، ما كان كل من طرفيه ووجه الشبه فيه صورة مركبة من عناصر متعددة ، ولا يفهمه إلا من سما إدراكهم وقوى تفكيرهم^(٤) .

أثر الخواص في التشبيه .

وقد فطن العلماء من قديم إلى أن الخواص منافذ للعقل ؛ تمدد بالمعارف

(١) السلع بالتحريك : شجر مر ، ويقال : إنه ضرب من الصبر .

(٢) أسرار البلاغة - ٤٩ . (٣) عروس الأفراح - ٣ - ٣٠٧ .

(٤) علم النفس الأدبي - ٤١ - ٤٢ .

المختلفة ، ويشرف منها على دنيا الناس يلتقط منها ماشاء ، وفي ذلك جاء قولهم : من فقد حسا فقد فقد علما .

ووجدنا الجاحظ يقول في رسالة التبصير بالتجارة ... ومعرفة الأشياء بالحواس الخمس : جودة الشيء بالنظر أن يكون حسنا رائقا ، وبالخشوم أن يكون طيبا أرجا ، وبالمذاق أن يكون حلوا عذبا ، وبالسمع أن يكون صافى الوقع والصوت ، وباللمس أن يكون ليونا ناعما .
ويذكر أن العجم كانت تقول : القلب والبصر شريكان ، والطعم والحس متفقان ، والفطنة والحفظ رفيقان ، والسمع والمنطق مجتعلان ^(١) .

ونحن في صغرنا إنما نشعر بما نحسه لا غير ، دون أن نقدر على تأويل الحسوسات وتفسيرها ، فإذا ما وصلنا إلى درجة الإدراك الحسى انتقلنا إلى مرحلة قريبة منها ؛ وهى مرحلة الذكر التى تتمكن فيها أن نعيد إلى دائرة شعورنا ما أدركناه بحواسنا من قبل ، ثم ننتقل إلى مرحلة تليها مباشرة وهى مرحلة الخيال .

وتدخل هذه المراحل فى منطقة المحسّات إما مباشرة وإما بالوساطة ، وفى نهاية هذه المراحل ننتقل إلى دائرة المعقولات حيث تظهر أمارات الحكم والتعليل والاستنباط إلى غير ذلك من الأعمال العقلية الكثيرة ^(٢) .
وهكذا يصوغ العقل بمعونة المللكات الذهنية ما شاء من القضايا العامة المستنبطة من الحسوسات ، ويحتفظ بها ويذكرها عند الحاجة ، فما أوسع الجمجمة على صغرها ، لأن العقل جمع فيها شوارد المسائل حتى يصح أن يقال : إن الإنسان عائش بعقله فى جو روحانى فسيح الأرجاء . وإذا كان هذا ماثار دهشة فأبدع منه أن جرثومة الحياة على نهاية صغرها تسع ألوفا من الصفات الموروثة من الآباء والأسلاف ^(٣) .

(١) أمراء البيان - ٢ - ٣٨٧

(٢) علم النفس وآثاره للأستاذين الجارم بك ومصطفى أمين بك - ٥٥ - ٥٦

(٣) الفرائز للقمرأوى بك - ٨٧ .

وقد جمع يعقوب الكندي كل خصائص الحواس في قوله :

وفي خمسة منى حلت منك خمسة فريقك منها في طيب الرشف
 ووجهك في عيني ولمسك في يدي ونطقك في سمعي وعرفك في أنفي
 وفي ثلاثة منها — وهي العين والأذن والذوق — يقول ابن الرومي :
 ولقد يؤلفنا اللقاء بليلة جعلت لنا حتى الصباح نظاما
 تجزى العيون جزاءهن عن البكا وعن السهاد ولا نصيب أثاما
 فنيجن مرادهن يردنه فيما ادعين ملاحه ووساما
 ونكافى الأذان وهي حقيقة إذ لا تزال تكابد اللواما
 فتثيبهن من الحديث مثوبة تشقى الغليل وتكشف الأسقاما
 ونكافى الأفواه عن كتمانها إذ لا يزال لها الصمات لجاما
 فنيجن ملائما ومراشفا ما ضرها ألا تكون مداما
 تجزى الثلاثة أنصباء ثلاثة مقسومة آناؤها أقساما
 قيمة البصر .

ولاشك أن للبصر من بين الحواس أثرا متميزا في صوغ التشبيه ونقشه
 بمختلف الألوان والأصباغ .

ومن هنا تعجب الناس من قدرة بشار أن يقول — وهو أعمى — :
 كأن مثار النقع فوق رموسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه
 لأن الأصل في مثل هذا التشبيه الغريب أن يعتمد فيه على الباصرة .
 ولا شك أن هذه المعارف المنظورة هي التي مهدت لابن المعتز أن يبرع
 في التشبيهات المحسوسة ، حتى ليعترف شاعر عظيم كابن الرومي بعجزه عن

مجاراته في مثل هذه الصور الخلابية التي تأخذ مادتها من قصور الخلافة ومواطن النعيم ، ولهذا أيضاً يقول ابن المعتدل في عتبة :

لعتبة صفحتا قر يفوق سناهما القمر
يزيدك وجهها حسنا إذا ما زدتها نظرا

فهو يصرح : بأن إعمال النظر في هذا الوجه الحسن يوُلِّد حسنا متجدداً لا حد له .

ونحن نجد فرقا شامعا بين الوصف المبني على المشاهدة والوصف المبني على السماع ، فالشعراء الذين عاشوا في جو الربيع الحقيقي وشاهدوا آثاره في المروج والرياح ، يبدعون في وصفه كشعراء الشام وفارس وغيرهم ، بخلاف شعراء مصر الذين لا يحسون فيه غير تقلب الجوال والغبار الثائر ، فإن وصفهم له جاء فاترا شاحبا خلوا من الروح الأصل ، وما رامكن سمع ، وليس الخبر كالبيان .

وما يؤيد ذلك : أن ذا الرمة قدم الكوفة فلقية الكميته ، فقال له : إنني عارضتك في قصيدتك .

قال : أي القصائد ؟

قال : قولك :

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كلى مفرية سرب^(١)
قال : فأى شيء قلت :

قال : قلت .

هل أنت عن طلب الإيقاع مُنْقَلِب أم هل يُحَسِّن من ذى الشبهة اللعب حتى أتى عليها .

(١) السكى هنا : هي الرقعة المستديرة من القربة تحرز عليها تحت العروة .

فقال ذو الرمة : ما أحسن ما قلت ! إلا أنك إذا شبهت الشيء ليس
تجىء به جيدا كما ينبغي ، ولسكنك تقع قريبا فلا يقدر إنسان أن يقول :
أخطأت ولا أصبت .

فقال الكميت : أو تدري لم ذلك ؟
قال : لا .

قال لأنك تشبه شيئا قدر أيت بهينك وأنا أشبه ما وصف لي ولم أره بعيني .
قال ذو الرمة : صدقت ! هو ذاك ^(١) .

فالإحساسات البصرية ليست سطحية ، وهذا هو السبب في أنها مازالت
تنطوى على هذه القيمة الجمالية العظيمة ؛ فالعين حاسة النور أولا وقبل كل
شيء ، وحاجة الكائنات الحية إلى النور لا تقل عن حاجتها إلى الحرارة
إن لم تزد .

إن فرحتنا بالانتقال من الظلمة إلى النور ، أو بسنا السماء الأزرق ،
أو بلمعان اللون نفسه ، وهى فى آن واحد عيد للعين وراحة عامة للجسم ،
ولعل النبات — على حرمانه من حاسة البصر — أن يشعر بشيء من هذا
حين ينتقل من الظل إلى الشمس بغية ألا يذبل فى الظلمة ، ويتجه دائما إلى
ضوء الشمس كأنه يراه .

إن اللذة التى نستشعرها حين شروق الشمس ليست لذّة بصرية خسب
إننا بكياننا كله نحى الشعاع الأول من أشعة النهار ^(٢) .

والإحساسات التى يصح نعتها بالجمال على أتم وجه هى الإحساسات
البصرية ، حتى لقد عرف ديكرت الجمال بقوله : هو ما يروق العين ^(٣) .
أضف إلى ذلك أن إحساسات البصر إحساسات تمثيلية ؛ فهى تستمد عمقا

جديدا من المعاني الكثيرة التي ارتبطت بها حتى أصبحت مركزا تجمع حوله أجزاء كاملة من وجودنا، إنها الحياة كلها مكثفة مختصرة .

فإذا نظرت إلى وردة في أبريق مثلا حضرتني على الفور ذكرى كل الإحساسات التي ترتبط عادة بمنظر الوردة ، فإذا أنا أتصور حديقة وغيضا وقد أتصور نزهة مع شخص آخر ، وقد أتصوريدا تقطف الزهر لتقدمها إلى ، وقد أتصورالذي تصلح الزهرة زينة له ، وهكذا ترى أن اللون البسيط وحده شيء تعبيرى .

إن بين الإدراكات البصرية والأفكار انسجاما خفيا يدركه الشعراء في كل ما ينظمون ^(١) .

ونحن ندرك هذا في مثل قول الحسين بن مطير :

وصفر تراقبها وحرر أكفها وسودنواصيها ويض خدودها
وقول صفي الدين الحلي :

بيض صنائعنا خضر مرابعنا سود وقائعنا حمر مواضعنا

والعيون هي التي تحفظ صورة الأشياء على النفوس ، وتجدد عهدا لها وتحرسها من أن تندثر وتمنعها أن تزول .

ولذلك قالوا : من غاب عن العين فقد غاب عن القلب ^(٢) .

ومع ذلك فليست الصور البصرية معدومة على الإطلاق من الناحية الوجدانية لدى المكشوف رغم أنها لا تقع تحت حواسه ، ويرجع الفضل في ذلك إلى الحياة الاجتماعية ، وقد ينتقل جانب من تأثيرها الوجداني بوساطة الألفاظ التي تعبر عنها إلى ذلك الشخص الذي لن يعرفها أبدا ^(٣) .

(١) المصدر نفسه — ٦٥ (٢) أسرار البلاغة — ١٣٢

(٣) مقدمة في علم النفس الاجتماعي — ٢٤٠ — ٢٤١

قيمة السمع .

أوجد السمع أرفع الفنون ، الشعر والموسيقى والبلاغة ، وهو يدين بأرفع مزاياه الجمالية إلى الصوت ؛ لأنه خير وسيلة للتفاهم بين الكائنات الحية وبذلك اكتسب قيمته الاجتماعية .

فغرائز التعاطف والاجتماع هي الأساس في كل المتع الجمالية التي تحسها الأذن ، فأجل ما في الصوت بالنسبة للكائن الحي هو أنه تعبير في جوهره فيه نقاسم الآخرين أفراحهم وآلامهم بوجه خاص ، كما أن اللهجة أجمل شيء بالنسبة للأذن ، وأنت تعلم أن اللهجة هي التعبير المباشر النابض عن العاطفة ، وقدرة الخطيب إنما تقوم على اللهجة ، واللهجة هي العنصر الأساسي كذلك في فن الدراما ، فالآلم الذي يعبر عنه بالصوت يؤثر فينا على وجه العموم تأثيراً روحياً أبلغ من تأثير الآلم الذي يعبر عنه بقسمات الوجه وحتى بالحركات .

والشعر نفسه ليس في حقيقة أمره إلا جملة من الكلمات المختارة يقصد بها الشاعر إلى أن يهز الأذن هزاً أقوى فكأنها تحمل في ذاتها لهجتها الخاصة . وأما الغناء كما بين م - سبنسر في تطور اللهجة ، فإنه الصوت الإنساني وقد تَلَحَّنَ وَتَنَغَّمَ حين اتصل بالعاطفة ، وليست موسيقى العزف هي الأخرى إلا تطوراً للصوت الإنساني ، ففي أعماق كل صوت جميل يشوى عنصر إنساني ، فالأصوات القاسية البجاء تذكرنا بصوت الإنسان في حالة الغضب ، والأصوات الرخيمة توقظ فينا معاني العطف والحب ^(١) .

ورحم الله ابن الرومي حيث يقول في المغنية « وحيد ، :

ظمية تسكن القلوب وترعاها وفُرية لها تغريد

طاب فوها وما ترجع فيه كل شيء لها بذاك شهيد
 فلها الدهر لا ثم مستزيد ولها الدهر سامع مستعيد
 في هوى مثلها يخف حليم راجح حلمه ويغوى رشيد
 عيبها أنها إذا غنت الأحرار م ظلوا وهم لديها عبيد
 واستزادت قلوبهم من هواها برقاها وما لديهم مزيد
 ويدل على قيمة السمع قوله — تعالى — : « ومنهم من يستمعون إليك
 أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ، ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي
 العمى ولو كانوا لا يبصرون ، .

فإنها تفيد أن الصمم مرتبط بالعقل ، والعمى مرتبط بالبصر .
 وفوق ذلك في الآية ما يسمى بالمضاعفة ، وهي أن يتضمن الكلام
 معنيين : معنى مصرح به ، ومعنى كالمشار إليه .

فالمعنى المصرح به هنا : أنه لا يقدر أن يهدي من عمى عن الآيات ،
 وصم عن الكلم البينات ؛ بمعنى أنه صرف قلبه عنها فلم ينتفع بسماعها ورؤيتها .
 والمعنى المشار إليه : أنه فضل السمع على البصر ؛ لأنه جعل مع الصمم
 فقدان العقل ، ومع العمى فقدان النظر فقط ^(١) .

وهذا من معجزات القرآن الكريم ، ومن البراهين الساطعة على صدق
 من جاء به ؛ فربطه السمع بالعقل وإشارته إلى أفضليته على البصر ، يؤيده
 العلم الحديث وتقره المشاهدة .

فالسمع من أكبر منافذ العقل ، والأصم ليس إلا حبرا أصم .
 وأما العمى فلم يقعد بصاحبه يوما عن بلوغ مراتب النبوغ والعبقريّة ،
 بل لعله من المرشحات لها ، وصدق الله العظيم حيث يقول : « فإنها لا تعمى
 الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » ^(٢) .

وما أحسن قول بعض العصريين (١) :

إذا حلَّ نورُ الله في قلب عبده فما فاته من نور عينيه مُحْتَقَرٌ
لقد طبق الدنيا المعرَى شجرة وسارت مسير الشمس ذكراه والقمر
وعمرٌ فيها مبصرون كأنهم هوأنا على التاريخ ليسوا من البشر
فلا تحسب العين البصيرة مغنا لمن ليس ذا قلب وإن زانها الحور
وفي ذلك يقول جويو : ولعل في إمكان الشاعر الذي ولد أعمى أن
يرسم بشعره صورا ملونة إلى أبعد حد ، رغم أنه لا يعتمد إلا على
إحساسات اللمس والسمع والشم : على الإحساس بالحياة : على العواطف
والأفكار .

إن جمال الشمس لا يقوم على النور وحده ، ولقد قال أحد العميان :
إنى لأسمع الشمس لنا جميلا (٢) .

منزلة السمع والبصر من الحواس .

يرى فلاسفة الجمال من الإنجليز أن الإحساس لا يمكن أن يكون جماليا
متى كان يفيد الحياة فائدة مباشرة ، وبحكم هذه النظرية قصروا الإحساسات
الجمالية على السمع والبصر لأنهما الحاستان اللتان لاهتمان الحياة بوجه عام .
وهذا القول وثيق الصلة بمذهب الأقدمين ؛ فقد قال بعض الحكماء :
إن الله — عز وجل — جعل القلب أمير الجسد وملك الأعضاء ، فجميع
الجوارح تنقاد له وكل الحواس تطيعه ، وهو مديرها ومصرفها وقائدها
وسائقها ، ويأمره تنبث ، وفي طاعته تنقلب ، ووزيره العقل ، وعاضده
الفهم ، ورائده العنان ، وطليعته الأذان ، وهما في النقل سواء لا يكتفان
عنه أمرا ، ولا يطويان دونه سرا .

(١) ألحان الأصيل — ٣٤١

(٢) مسائل فلسفة الفن المعاصرة — ٥٩ .

وقال أفلاطون - في السمع والبصر - : هما للقلب كالجناحين للطائر لا يستقل إلا بقوتهما ، وربما قص أحدهما فنهض بالآخر على تعب ومشقة .
قيل : فما بال الأعمى يعشق ولا يرى ، والأصم يعشق ولا يسمع ؟
قال لذلك قلت : إن الطائر قد ينهض بأحد جناحيه ولا يستقل به طيرانا ، فإذا اجتمعا كان ذهابه أمضى وأوحى ^(١) .

غير أنه لا يصح أن نغلو في قيمة السمع والبصر إلى الحد الذى يحجب عنا فضل غيرهما من الحواس الأخرى ويجعلها ذيلالها ؛ فالحق أن كل الإحساسات تشارك في الشعور بالجمال .

والأديب والشاعر يحاولان أن يعوضا هذا النقص في هاتين الحاستين اللتين لا تستطيعان وحدهما أن تهينا لنا انفعالات جمالية ، بل إننى لأذهب إلى القول بأن هاتين الحاستين ، البصر والسمع ، لم تكونا في الأصل ولاهما اليوم تماما الحكم الحقيقي في أمور الجمال ، فما تعجب به العينان هو ما تعجب به في الغالب حواسنا الأخرى المتصلة بالوظائف الحيوية اتصالا مباشرا ، فكما أن اللمس علم العين كيف تقدر المسافات في المكان ، فقد علمها كذلك - مستعينا بالذوق والشم وسائر الحواس الحيوية - ما ينبغي أن تعجب به وتحميه وتسعى إليه .

ولا بد أن تكون الأشكال والألوان التى أعجبت الحيوانات أول ما أعجبها ، هى أشكال وألوان الأشياء التى تتغذى بها هذه الحيوانات ، وإن العين والأذن عند أبناء الشعب البدائيين لا تقدر الجمال مباشرة وإنما تعكسان حكم الحواس الأخرى ، فابن الشعب يرى البلدة من البلدان جميلة إذا كانت غنية وأوفر طعاما .

(١) زهر الآداب - ٣ - ٢٢٧

والبهار يرى البحر جميلاً حين يكون هادئاً مأموناً ، ويعده قبيحاً إذا
ثار واصطخب .

وشقائق النجمان الحمر ، وأزهار الحقل الملونة تبدو للفلاح في حقل القمح
بقعاً قبيحة .

والشعراء إذا أرادوا أن يولدوا في النفوس انفعالاً جمالياً كاملاً لم
يقتصروا على استعمال الألفاظ التي تشير إلى إحساسات بصرية ، بل يفضلون
الاعتماد على الخواص الأخرى ، لأن الحياة هنا أشد وأعرق عمقاً ، فالألفاظ
الجمال والحسن والرشاقة وسائر الكلمات التي تعبر عن معاني الشكل والسطح
لا تكفي لتوليد انفعال جمالي كامل ، لأن العين لا تتأثر بما ترى تأثراً مباشراً
فهي حاسة باردة لا تهتز ، فإن وُصف الشيء بأنه جميل فهذا وصف سطحي ،
أما إذا أردت أن تعبر عما ينفذ إلى أعماقنا ويهز كيانتنا بأسره كان عليك أن
تبحث عن ألفاظ أبعد عن هذا البرود وهذه الموضوعية ، فقولك عن
صوت : إنه جميل أقل تأثيراً في النفس من قولك : إنه عذب أو حلو أو
ملتهب إلخ .

وقل بين الكلمات ما يستعمله الشعراء أكثر من استعمالهم للنعوت
الآتية : غض ، طرى ، رطيب ، نضير ، عطر ، عبق ، متلظ ، خفيف ،
ناعم إلخ .

وهي نعوت مستمدة من إحساسات اللمس والذوق والشم (١) .

قيمة اللمس .

حس اللمس يتيح لنا دائماً أن نشعر بإحساسات فنية من كل نوع ، حتى
يستطيع أن ينوب مناب البصر إلى حد بعيد ، ولئن كانت حاسة اللمس
لا تستطيع إدراك الألوان فإنها تطلعنا على ناحية جمالية لا يستطيع العين

وحدها أن تطلعنا عليها : أعنى النعومة والرخاسة .

إن جمال المخمل لا يقوم على المعاني فحسب ، بل على نعومة ملمسه كذلك .
والألوان نفسها تستمد بعض جمالها من اقترانها بملبس ناعم ، فالعشب
الأخضر يقرن بلبونة نحسها تحت الأقدام ، فإذا هذه اللذة التي تشعر بها
أعضاؤنا حين تتمدد عليه تزيد اللذة التي تحسها العين حين تراه ، ولا شك أن
بريق الشعور الشقر والسود مرتبط بالملبس الحريري الذي تحسه الأصابع
وهي تداعب هذه الشعور .

ولننظر إلى إحساسات الحرارة والبرودة وهي التي تبدو أبعد ما تكون
عن شئون الجمال ، إن قليلا من الانتباه يكفي لإدراك الطابع الجمالي في هذه
الإحساسات ، فهل نجعل ما لطرأوة الهواء أو دفئه من قيمة في وصف
المناظر التي يصفها الشعراء (١) .

وقد وضع م - سولي برودوم جدولا بالنعوت التي تشترك فيها
الإدراكات الحسية والحالات النفسية ، وقد تبين من هذا الجدول أن
حاسة اللمس أكثر الحواس إمداداً لنا بالنعوت التعبيرية التي تنطبق على
الحالات النفسية ، فهي تمدنا بخمسين نعماً تعبيرياً من هذا القبيل ، أما الطعوم
وإحساسات الحرارة فهي تقدم ثلاثين نعماً من أكثر النعوت قدرة
على التعبير (٢) .

وفي وصف الملبوس وتصوير أثره يقول ذو الرمة :

لها بشر مثل الحرير ومنطق رخيماً الحواشي لأهراء ولا نزر

ويقول يزيد بن الطُّثري :

بنفسى من لو مرّ برد بنانه على كبدى كانت شفاء أنامله

ومن هابنى فى كل شيء وهبته فلا هو يعطينى ولا أنا سائله

(١) مسائل فلسفة الفن المعاصرة - ٥٩ .

(٢) بحوث نشرها الأستاذ الدروبي بمجلة العالمين . أغسطس سنة ١٨٨١ .

قيمة الشم

إن تربيتنا الجمالية فيما يتعلق بالروائح والطعوم ضعيفة على وجه العموم فما نستطيع أن نحصل إلا على إدراكات لا شكل لها ولا نظام فيها ، ولذلك كان الانفعال الجمالي الذي يخرج من هذه الإدراكات غامضا ولا يتصف بطابع عقلي كاف ، غير أن هذا الانفعال موجود على كل حال ، وهنا يسأل فيكتور كوزان : هل سمعت في حياتك أحدا يصف رائحة بأنها جميلة ؟

ونجيب على هذا السؤال : إذا كان هذا لا يقال في اللغة الفرنسية على الأقل ، فإنه لينبغي في الواقع أن يقال : فما أشبه رائحة الورد أو السوسن بقصيدة جميلة ، حتى بغض النظر عن المعاني التي تربطها بها . وما زلت أذكر ذلك الشعور العميق الذي أحسسته وأنا طفل صغير حين شممت زنبقة لأول مرة .

إن قسما كبيرا من جمال أيام الربيع وليالي الصيف يرجع إلى الروائح العابقة التي تملأ الجو ؛ ولعل سكرة العطر هذه لا تخلو من شبه بمتع الحب المعقدة .

وعلى أن حاسة الشم ناقصة إذا قيسَت بغيرها ، فإن لها شأنا كبيرا في إدراك المناظر وفي وصفها ؛ فنحن لا نتصور إيطاليا دون أن نتصور فوح برتقالها يحمله النسيم الدافئ ولا نتخيل شواطئ بروتيا أو جاستونيا إلا ونتخيل زفر البحر الذي طالما تغنى به فيكتور هوغو ، ولا نتذكر الأراضي البور من غير أن نتذكر فوغة أشجار الصنوبر ^(١) .

وقد قدر العرب هذه الحاسة حق قدرها ، وكان لشم الأشياء المحببة عندهم نشوة لا تعاد لها نشوة ، فمن ذلك أن لقيط بن زُرارة كان قد تزوج

بنت قيس بن خالد ذى الجدين ، فخطبت عنده وحظى عندها ، ثم قتل فأمت بعده وتزوجت رجلاً آخر ، فكانت كثيراً ما تذكر لقيطاً فلامها زوجها الثانى على ذلك ، فقالت : إنه خرج فى يوم دجن وقد تطيب وشرب فطرد البقر فصرع منها ، ثم أتانى وبه نضح من دم فضمنى ضمة ، وشمى شمة ، فليتنى مت ثمة فلم أر منظرأ كان أحسن من لقيط (١) !

ومما نسب إلى على — كرم الله وجهه — : وإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانه .

ومن قول رملة بنت الزبير لزوجها خالد بن يزيد بن معاوية : إنما نحن رياحين للشم والضم .

وكان ابن العميد والصاحب بن عباد والصابى يكتنون عن البنت الصغيرة بالريحانة ، والريحانة أيضاً كناية عن الزوجة . ويقول ابن المعتز فى ذلك :

وأهون السقم على العائد	ما أقصر الليل على الراقد
لست لما أوليت بالجاحد	يفديك ما أبقيت من مهجتي
تنفست فى ليلى البارد	كأننى عانقت ريحانة

وتقول بعض النساء :

إن النساء رياحين خلقن لكم وكلكم يشتمى شم الرياحين
وفى ریح الأولاد تقول أعرابية — وهى ترقص ولدا لها — :

ياحبذا ریح الولد	ریح الخزامى فى البلد
أهكذا كل ولد	أم لم يلد قبلى أحد

ويقول ابن الرومى .

برياض تخایل الأرض منها خيلاء الفتاة فى الأبراد

منظرٌ مُعجِبٌ تحيةً أنفٍ ريحها ريح طيب الأولاد
وقيل لأعرابي (١) : أى رائحة أطيب ؟
قال : رائحة بدن تحبه ، أو ولد تربته (٢) .
وفى ريح الحبيب يقول امرؤ القيس :
إذا قامتا تصّوع المسكُ منهما
ونسيم الصبا جاءت برياً القرنفل
ويقول جميل :

وكان طارقها على علل الكرى
بستاف ريح مدامة معلولة
ويقول آخر فى طيب أنفاس الحبيب :
بحور مثل أنفاس الحبيب
يظلّ الذيل يستره ولسكن
إذا ماشمّ أنف حنّ قلب
وطيب قد أحل بكل طيب
تم عليه أنفاس الجيوب
كان الأنف جاسوس القلوب
وفى البيت الأخير ما يدل على أن طيب النساء يثير فى الرجال الانفعال
الجنسى ، وقد جاء فى الحديث النهى عن خروج النساء متعطرات والتغليظ
فى ذلك حتى جعلت المرأة التى تخرج متعطرة يشم الناس ريحها زانية !
وفى تذكر الحبيب بما فيه مشابهة منه قول عنتره :

ولقد ذكرتكَ والراح نواهل منى وييض الهند تقطر من دمي
فوددت تقميل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسّم
وقول آخر :

ذكرتك بالريحان لما شممته وبالراح لما قابلت أوجه الشرب

(٢) تربه : تربيته .

(١) ديوان المعاني - ١ - ٢٦٠

تذكرت بالريحان منك شمائلًا وبالراح طعما من مُقبلك العذب
وقول أحد بنى القبطرة الوزراء :
ذكرت سليمى ونارُ الوغى كقلبي ساعة تذكّارها
وأبصرت قدّ القنا شهبًا وقد ملن نحوى فعانقتها

قيمة الذوق .

لا أدل على أن لإحساسات الذوق صفة جمالية من أنها أوجدت نوعا من الفن وإن كان خسيساً : أعنى فن الطهى .

وما أظن أفلاطون كان يمزح فقط حين شبه البلاغة بالطهى ، ولعل فى إمكان كل إنسان أن يتذكر بقليل من الانتباه ما قد أحسّه فى حياته من متع ذوقية كانت فى الحق متعا جمالية .

ولعل لذة إرواء الظمأ أطف من لذة إشباع الجوع وأدنى منها إلى المشاعر الجمالية .

وتبلغ اللذة ذروتها حين يروى الظمأ ويشبع الجوع فى آن واحد .
لقد رأى لافونتين شيثا من الجمال حتى فى قطعة من السمك وضعت أمام شرهين ، ورأى الفردى موسيه شيثاً من الجمال حتى فى فطيرة ساخنة ذات منظر شهى ، بل إن أحد شخوص موسيه يشبه صوت حبيبته بلاك جميل يحمل إريقا من العسل ، وإن نشيد الأنشاد ؛ هذا الأثر الشعرى الذى طالما ألهب عواطف الصوفية فى كل العصور يفيض بصور من هذا النوع : عبير فك يا حبيبتى كخمرة معتقة . صدرك ككأس من الخمر الشذى . شفتاك يا حبيبتى تقطران شهدا . تحت لسانك عسل ولبن . كلوا يا أصدقائى واشربوا واسكروا من خمرة الحب .

وشعر الشعوب البدائية يزخر بمثل هذه الاستعارات الحية ، وهذا دليل على أن متعة الأكل والشرب - وهي أغلظ المتع - لا تحتوى فى ذاتها على شىء ينافى الشعر ، حتى إن الإشارة إليها أسرع فى إيقاظ العاطفة الجمالية عند إنسان العصور الأولى .

والمأخذ الذى يوجه إلى الذوق والشم هو أن الإحساسات التى تنقلها إلينا هاتان الحاستان لا يستطيع العقل أن يميز فيها الإدراكات الأولية ؛ فلا يمكن لرائحة من الروائح أن تنحل فى نظر الفسك إلى عدد من الإدراكات البسيطة ، كما ينحل اللحن الموسيقى إلى سلسلة من النغمات المستقلة ، ومن الصعب أن نمزج الروائح أو ندرجها دون أن نخلطها ؛ إنها إحساسات قل أن يعمل فيها الفكر ولا يمكن أن يخرج منها إدراك شكلى .

وهذا صحيح ، ولكن هل إدراك الشكل والحواس ضرورى فى الانفعال الجمالى ؛ إن هذا الإدراك يكتمسب فى الغالب بالمران الطويل (١) .
وفى أثر الذوق يقول الكمييت بن زيد :

فيهن آنسة الحديث حية ليست بفاحشة ولا متفال (٢)
وتكون ريقتها إذا نبتها كالمسك فوق سلافة الجريال
ويقول بشار :

أيها الساقيان صباً شراني واسقياني من ريق بيضاء رود
إن دائى الصدى وإن دوائى شربة من رضاب ثغر برود
ويقول الشريف الرضى :

(١) مسائل فلسفة الفن المعاصرة - ٦٠ - ٦١
(٢) المتفال : المتغيرة الرائحة .

يا عذبة الميسم بلى الجوى بهلة من ريقك البارد
أرى غديرا سايحا ماؤه فهل لذاك الماء من وارد
من لى بذاك العسل الذائب الجارى م خلال السبرد الجامد
ويقول ابن وكيع :

ريق إذا ما ازددت من شربه ريا ثنائى الرى ظمآنا
كالخمر أورى ما يكون الفتى من شربها أعطش ما كانا



افصل الخامس

المركب الحسى

مفتر

لا خلاف أن التشبيهات المركبة المنتزعة من مساقط الحواس بخاصة البصرية، مظهر لبداعة الصنعة، وروعة الفن، ومعرض للباقة الفكر، وأناقة العقل، وترف الخيال، وقد استطاع كثير من الشعراء ولا سيما شعراء القصور وأبناء النعمة والرفاهية، أن يتخفونا بصور زاهية بهجة تفوق ما تنتجه الطبيعة نفسها، نقف أمامها مسحورين بهذه البراعة في الجمع بين أشياء يستحيل اجتماعها في ظل الواقع، مبهورين بهذه الدقة في النقش والتلوين والزخرفة، حتى لنكاد نخدع عن أنفسنا، فنحسب النماذج المقروءة صوراً مجسدة ترى بالعين المجردة.

والحق أن شعراء الوصف وضعوا بين أيدينا ثروة ضخمة من هذه الصور المؤلفة من غرائب الأشكال، وروائع الأصباغ تأخذ معها ذهن القارئ في رحلة بعيدة ممتعة يعود منها رضى البال مثلوج الفؤاد.

فالنارنج كما تجلوه علينا الرياض لا يرتفع حسنه إلى قول ابن المعتز:

وأشجار نارنج كأن ثمارها حقائق عقيق قد ملئن من الدر

والورد على اختلاف ألوانه لا يتهياً له من الجمال في خمائله ماتياً له في نثر أردشير: الورد ياقوت أحمر وأصفر، ودر أبيض، على كراسى زبرجد، يتوسطه شذر من الذهب.

أوفى شعر على بن الجهم — وقد أخذه من القول السابق — :
 كأنهن يواقيت يطيف بها زمرذ وسطها شذر من الذهب
 والجلنار لا يمنحنا من المتعة ما يمنحنا قول ابن وكيع فيه :

وجلنار بهي ضرامه يتوقّد
 بدالنا في غصون خضر من الرّى ميد
 يحكى فصوص عقيق في قبة من زبرجد

والشمش في لونه الأصفر الفاقع على أشجاره النضرة السندسية لا يصور
 لنا هذه الآبهة والروعة التي نلحها في قول ابن رشيق :

كأنما الشمس لما بدت أشجاره وهو بها يلتهب
 خضر قباب الملك حفت بها جلاجل مصقولة من ذهب

وأيّن يقع الخيار في لونه ورأثته من قول بعضهم :

انظر إلى عرف الخيار ولونه كروائح الريحان للمخمور
 فكأن ظاهره الزبرجد أخضرا وكأن باطنه من البلور

أليست هذه الفاكة الشعبية المتواضعة لو كانت على هذه الصفة لتنافس
 في شرائها المتنافسون من الأثرياء كما يتنافسون في جمع التحف الثمينة !
 وهل للفحم المشتعل هذه الصورة الغريبة التي تألق خيال عبد الله فكري
 في تنسيقها وتنميقها حتى أصبحت بديعة من البدائع :

كأنما الفحم ما بين الرماد وقد أذكت به الريح وهنا ساطع الذهب
 أرض من المسك ، كافور جوانبها يوج من فوقها بحر من الذهب
 بيد أن إعجابنا بهذه الصور الخيالية أو الوهمية في جمال تحاسينها ، ووشى
 تلاوينها ، واعترافنا بالجهد المبذول في ترقيشها وتحبيرها وصقلها ، لا يصح أن
 يذهب بنا مذهب الإمام عبد القاهر الذي يقيس هذه الأشياء في رفعتها

ونزولها بمقياس الوجود والعدم ، و سعة الوجود والندرة ، حتى ليعد
« أعلام الياقوت المنشورة على رماح من زبرجد ، من النوع الفاخر البالغ
الغاية ، لأنه معدوم أبدا ، ولا يتعدى وجوده الوهم .

ويرى أن قول أبي طالب الرقي :

وكان أجرام النجوم لواصعا درر نثرن على بساط أزرق
أبلغ من قول ذي الرمة :

كحلاء في برج صفراء في نعبج كأنها فضة قد مسها ذهب (١)
لأن الأول غريب قليل نادر الوجود بخلاف الثاني ، فإن الناس يرون
في الصناعات فضة قد أجرى فيها ذهب وطلبت به ، ولا يكاد يتفق أن يوجد
در قد نثر على بساط أزرق (٢) .

نعم لا نستطيع أن نسلم بهذا المقياس الجامد الذي يعجب بالظواهر
والقشور ، ويخدع بالسراب اللامع ، وإنما المقياس الصائب عندنا : اتصال
الفن بالحياة ، واندماج الفنان في الطبيعة ، وفناؤه في شخصيتها ، وتلاشيه في
روحها الشامل ، فإذا هو جزء مشاع فيها ، يرى يبصرها ويسمع بآذانها ،
وينطق بلسانها ، ويصدر عنها في حركاته وخلجاته وأحاسيسه المختلفة ، فتغدو
كل كلمة منه وكأنما هي قلب يضطرم بالحياة النامية ، ويخفق بالعواطف
الموارة ، ويضطرب بالمشاعر الجياشة .

فالانفعال الذي يشيره فينا الفنان يكون قوياً حين لا يكتفى بصور بصرية
وسمعية باردة ، بل يحاول أن يوقظ فينا أعمق الإحساسات الجسمية من
جهة ، وأرفع العواطف الخلقية ، وأسنى المعاني الفكرية من جهة ثانية ،
وبتعبير آخر يجب أن يشرك الانفعال الفني كل أجزاء كيانتنا الرفيع منها

(١) البرج : البياض المحقق بسواد العين كله ، والنعبج : البياض الخالص .

(٢) أسرار البلاغة - ١٣٨

والدنى ، فيجب أن يكون إذاً واقعياً جداً ، مادياً جداً ، ولكن يجب في الوقت نفسه أن يفسح أكبر المجال للعواطف والأفكار .

إن الشيء السطحي المألوم في الفن إنما هو لعب الخيال من أجل الخيال نفسه : أى تتابع صور باردة لا يمكن أن تنقلب إلى إحساسات مؤلمة أو لذیذة ، ولا إلى أفكار أو عواطف .

ولا يغتفر الخيال الوهمي المحض في الفن إلا إذا كان رمزاً عقلياً أو خلقياً ، فيكون عندئذ أشبه بالواقع لأنه يبعث على التفكير العقلي والشعور العاطفي ، أما الأشياء التافهة فهي أبعد ما تكون عن الخيال .

وليس التزيين العربي هو المبدأ الذى تحدر منه الرسم والشعر والموسيقى ، بل هو إجهاض الفن قبل اكتمال تكوينه ، وأما ما يسمونه التلوين في الشعر والأدب فلا يكون بجمع لويئات يبعث البصر بالنظر إليها ، فالتلوين في الأدب لا يتم على وجه العموم إلا بتصوير إحساسات حية لاميته ، حارة لا باردة ، وقد لا يكون لها أى صلة بإحساسات البصر (١) .

فقول القاضى عياض يصف خامات زرع بينها شقائق النعمان وقت هبوب الريح :

انظر إلى الزرع وخاماته تحكى وقد مالت أمام الرياح
كتائب تجفل مهزومة شقائق النعمان فيها جراح

أجل من قول ابن وكيع يصف السكتان :

ذوائب كتان تمایل فی الضحا على خضر أغصان من الرى مبد
كأن اصفرار الزهر فوق اخضرارها مداهن تبر رگبت فى زبرجد
لأنه أرانا صورة يمكن أن نراها فى الحياة كثيراً ، وهى صورة كتائب

حققت عليها الهزيمة ، فأمعنت في الهرب ، وقد سالت عليها دماء الجروح ،
ولكن مداهن التبر المركبة في الزرجد صورة جامدة بل ميتة لأنها لا تتمثل
إلا في الخيال الجموح .

وقول بعضهم في النارج :

وأغصان مقومة حسان ومنها ما يرى كالصولجان
كان بها ثدياً ناهدات غلاتها صبغ بزعفران
أصق بالفن وأكبر صلة بالحياة من قول ابن وكيع أيضا :
انظر إلى النارج في أغصانه يلوح في أفنان هاتيك الشجر
مثل دبائيس نضار أحر أو كعقيق خرطت منه أكر

فقد اشتق الأول تشبيهه من الحياة الزاكية المخصبة ، وأتانا بشيء نهتز له
ارتياحا ، ونشاهده في مجالى السكواعب الحسان صباحا ومساء ، ويكفى أن
نعرف أن العامة يتغنون في هذا المعنى بقولهم :

لابسه قميص مشمشى بين النهود ملفوف

أليست هذه النهود الملفوفة في القميص المشمشى ، هي هذه الثدي
الناهدات في الغلات المصبوغة بالزعفران في قول الشاعر المتقدم ، بيد أن
ذلك من صياغة العامة وهذا من صياغة الخاصة ؟
إن الحياة الواقعية تنادى على نفسها في هذا التشبيه .

ولكن ما الذى تثيره فينا هذه الدبائيس من النضار الأحمر ، أو هذه
الأكر المخروطة من العقيق ، وإن كان الشبه بينهما وبين النارج قويا متينا .
وقول بعضهم في وصف الثوم :

الثوم مثل اللوز إن قشرته لولا روائحه وطعم مذاقه
كالنذل غرّك منظرًا فإذا ادعى لفضيلة يُسمى إلى أعراقه

أبلغ من قول الآخر :

يا حبذا ثومة في كف طاهية بدیعة الحسن تسبی كل من نظرا
أبصرتها وهي من عجب تُقلِّبها كصرة من دبیق حوت دررا^(١)

فالثوم ذو فصوص جميلة المنظر كالآظافر غير مقشورة ولها لون العاج إذا قشرتها ، ولسكنه حاد الطعم كرية الراححة ، وقد وجد له الشاعر مشابهة في النذل الحسن الظاهر ، القبيح الباطن ، فجاء التشبيه صائبا دقيقا لأنه اشتقه من صميم الحياة ، وأبرز لنا صورة نابضة غير مزيفة مشحونة بعاطفة البغض والزراية .

أما هذه الصرة من هذه الثياب الخاصة المنسوجة في دبیق والحاوية للدرر ، فلا يتجه إليها خاطر الفنان الأصيل الذي يحلق في السماء ولا يدب على الأرض . والفن — كما قال كروثشة — : تركيب في قبلي حقيق ، تركيب للعاطفة والصورة في الحدس ، تركيب تستطيع أن تقول بصدده : إن العاطفة بدون صورة : عياء ، والصورة بدون عاطفة : فارغة .

وقد قالوا عن رفائيل : لو لم يكن له يدان لظل مصورا عظيما ، غير أنهم لم يقولوا : لو لم يكن له إحساس بالرسم لظل مصورا عظيما^(٢) .

إن فضل التشبيه أن يزيدنا إحساسا بالصورة لا أن يرسمها لنا كما ترسمها المصورة الشمسية ، لأنه وسيلة إلى تمام التعبير عن الوعي والشعور . أما التشبيه الذي لا يزيدنا حسا ولا تخيلا ، فهو فضول وتعثر يعوق عن الغاية ولا يؤدي إليها .

ولهذا نذكر قول ابن المعتز في وصف الهلال — وهو المثل الأعلى عند طلاب التشبيه لمحض التشبيه — .

(١) الدبیق : نوع من الثياب الدقيقة ينسب إلى دبیق ، وهي بليدة مصرية كانت بين

الفرما وتنيس ثم خربت . (٢) المجلد في فلسفة الفن — ٥٥ — ٦٣ .

وانظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر
فلو أننا تمثلنا زورقا من فضة وتمثلنا حمولة من عنبر تثقله ، لما زادنا ذلك
إحساسا بالهلال ، ولا إعجابا بحسنه وشكله ، وإنما هو التشبيه الآلى الذى
هو بالمصورة الشمسية أولى منه بخيال الشاعر ووعيه .
وقابل الآن بين تشبيه ابن المعتز وتشبيه امرئ القيس مثلا حين يقول
فى وصف الشحم :

وشحم كهذاب الدَّمَقْسُ المَقْتَلُ

فأنت حين تقرأ هذا البيت تحس أنهم الآكل ، ونظرتة إلى الشحم الذى
يأكله ، والتذاذه بأكله ، وذلك هو المقصود بالشعر ، والمقصود من أجل
ذلك بالأوصاف ، ولكن المولعين بالتشبيه لمحض التشبيه ربما حسبوا أن
نفاسة الدَّمَقْسِ هى التى عنت امرأ القيس كما كانت نفاسة العنبر هى التى
تعنى ابن المعتز ، وربما ظنوا لذلك قيمة التشبيهين سواء وهما جد متفاوتين ،
لأننا حين نتخيل ابن المعتز ينظر إلى الهلال ويشبهه بالزورق والحمولة ،
إنما نتخيل رجلا يعمل الفسكرة فى التوفيق بين الأشكال والألوان .

أما امرؤ القيس فنحن نتخيله مع العذارى حين نقرأ ذلك البيت كما
أراد أن نتخيله وأن نتخيلهن ، وتنصرف أذهانتنا تَوًّا إلى حالة الأكل
المقصودة ، لا إلى تسويم قيمة الشحم والحرير الأبيض فى السوق .

وهذا مع أن التشبيه المحسوس بين الشحم والحرير الأبيض أقرب وأحكم
من التشبيه المحسوس بين الهلال وزورق الفضة على فرض وجوده (١) .

ويكفى فى الرد على عبد القاهر أن التشبيهات الواردة فى القرآن الكريم
والحديث الشريف مما يتحقق وجوده فى الخارج كقوله تعالى : هـ أو كظلمات

في بحر لجي... كمثل الحمار يحمل أسفارا، كمثل السكب... إلى غير ذلك من الأمور الممكنة الوقوع، وسر ذلك أنها أدخل في التحقيق وأقرب إلى التيقن مما لا يكاد يقع (١).

وإذا كنا قد مثلنا فيما تقدم لبعض الصور الجامدة التي تمثل جمال الصنعة فقط، فإننا نرى من العدل أن نورد بعض الصور الصادرة عن الوعي الشعوري النابض بروح الفن.

ومن حق هذه القطع علينا أن نثبت أبحاثنا جميعا لا ما يتعلق منها بالتشبيه وحده، حتى لا تنقسم عروتها ويذهب جمالها وتمزق وحدتها، فاليست إذا قطع من القطعة - كما يقول عبد القاهر - كالسكاب تنفرد عن الأتراب، فيظهر فيها ذل الاغتراب، والجوهرة الثمينة مع أخواتها في العقد أبهى في العين، وأملأ بالزين منها إذا أفردت عن النظائر، وبدت فذة للنظار (٢). فمن ذلك قول محمد بن سفيان الأندلسي:

وواعدتها والشمس تمنح للنوى	بزورتها وهنأ وبدر الدجى يسرى
فجاءت كما يمشى سنا الصبح في الدجى	وطورا كما مر النسيم على النهر
فعطرت الآفاق حولي فأشعرت	بزورتها والعرف يشعر بالزهر
فتابعت بالتقبيل آثار سعيها	كما يتقصى قارىء أحرف السطر
وبت بها والليل قد نام والهوى	تنبه بين الغصن والحقف والبدر (٣)
أعانقها طورا وألثم تارة	إلى أن دعتنا للنوى راية الفجر
ففضت عقود للتعانق بيننا	فياليلة القدر اتركي ساعة التفكر

وله في وصف نهر إشبيلية:

شق النسيم عليه جيب قيصة فانساب من شطيه يطلب ثاره

(١) الطراز - ٣ - ٢٨١ (٢) أسرار البلاغة - ١٦٧

(٣) الحقف بالكسر: الموج من الرمل.

فتضا حكت ورق الحمام بدوحها هزوا فضم من الحياء إزاره
ولابن سعد الخير الأندلسي في وصف دولاب :

لله دولاب يفيض بسلسل قد طارحته بها الحمام شجوها
في روضة قد أينعت أفنانا فيجيبها ويرجع الألحانا
فكأنه دنف يدور بمعهد يسكى ويسأل فيه عمن بانا
ضاقت بجارى طرفه عن دمه ضاقت بجارى طرفه عن دمه

ولابن أبي الصلت الأندلسي في لابس قرمزية حمراء :

أقبل في قرمزية عجب قد صبغت لون خده الشرق
كأنما جيدته وغرته من دونها إذ بدون في نسق
عمود فجر من فوقه قمر دارت به قطعة من الشفق

وللعنابي في البرق :

أدقت للبرق يخفون ثم يأتلق يخفيه طورا ويبيديه لنا الأفق
كأنه غرة شهباء لائحة في وجه دهماء مافي جلدها بلق
أو نعر زنجية تفر ضاحكة تبدو مشاقرها طورا وتنطبق
أو نلة البيض في جاواء مظلمة وقد تلقت ظباها البيض والدرق
والغيم كالثوب في الأفق منتشر من فوقه طبق من تحته طبق
تظنه مضمما لافق فيه فإن سالت عز اليه قلت الثوب منفلق
إن معمع الرعد فيه قلت ينخرق أو لآلا البرق فيه قلت يحترق
تستك من رعده أذن السميع كما تعشى إذا نظرت من برقه الحدق
فالرعد صهلوق والريح منخرق والبرق مؤتلق والماء منبعق (١)

قد حال فوق الربى نوراله أرج كأنه الوشى والديباج والسَّرق^(١)
 من خضرة بينها حمراء قانية
 وللوزير بن السقاط :

ويوم لنا بالخيف راق أصيله كما راق تبر للعيون مذاب
 وللموج تحت الريح منه تكسر تولد فوق المتن منه حجاب
 وقد نجمت قضب لدان بشطه حكمتها قدود للحسان رطاب
 وأينع خضر النبات خلالها كما أقبلت نعمى وراق شباب

وقول يزيد بن عبد الله بن خالد في السفن :

ويا للجوارى المنشئات وحسنا طوائر بين الجو والماء عوما
 إذا نشرت في الجو أجنحة لها رأيت به روضا ونورا مكمما
 وإن لم تهجه الريح جاء مصاخا فدت له كفا خضيا ومعصا
 مجاذف كالحيات مدت رموسها على وحل في الماء كي تُروى الظا
 كما أسرع عدا أنامل حاسب بقبض وبسط يسبق العين والفما
 هي الهدب في أجفان أكل أوطف فهل صنعت من عندم أو بكت دما

ولابن الرومي :

حيثك عنا شمال طاف ريقها بجنة فجرت روجا وريحانا
 هبت سُخيرا ففاجى الغصن صاحبه سرا بها وتداعى الطير إعلانا
 ورق تغنى على خضر مهدلة تسموها وتمس الأرض أحيانا
 تحال طائرها نشوان من طرب والغصن من هزه عطفيه نشوانا

(١) السرق بفتح الراء : شقق الحرير الأبيض واحدته سرقه .

وللبحتري :

من ذا رأى مزنا تأزر برقه في عارض عريان لم يتأزر
غيث أذاب البرق شحمة مزنه والريح تنظم منه حب الجوهر
وكأنما طارت به ريح الصبا من بعد ما انغمست به في العنبر
ويُضىء تحسب أن ماء غمامه عقد تنأثر في إناء أخضر
وللصنوبري في تصوير عواطف الأزهار :

خجل الورد حين لاحظته النر جس من حسنه وغار البهار
فعلت ذاك حمرة وعلت ذا صفرة واعتري البهار اصفرار
وغدا الأقحوان يضحك عجباً من ثنايا لثامهن نُضار
ثم نمّ النّام واستمع السو سن لمسا أذيعت الأسرار
عندها أبرز الشقيق خدودا صار فيها من لطمه آثار
سُكبت فوقها دموع من الطلّ م كما تُسكب الدموع الغزار
فتردّي البنفسج الغض أثوا ب حداد قد خانها الاضطبار
وأضر السقام بالياسمين النضر م حتى أودى به الإضرار
ثم نادى الخبىرى في سائر الزهر م فوافاه جحفل جرار
فاستجاشوا على محاربة الترّجس م بالجحفل الذي لا يُبار^(١)
فأثوا في جواشن سابعات تحت سيجف من العجاج يثار^(٢)
ثم لما رأيت ذا الترّجس الغض م ضعيفا ما إن لديه انتصار
لم أزل أعمل التلطف للور د حذارا أن يغلب النّوار
فجمعناهم لدى مجلس فيه م تُغنى الأطيّار والأوتار

(١) استجاشوا : دعا بعضهم بعضا . (٢) الجواشن : الدروع .

لو ترى ذا وذاك قلت خدود تُدمن اللحظَ حولها الأبصار
ولشهاب الدين الدمياطى فى الموز - وهى من القطع الزاخرة بالخصب
والحيوية - :

كأنما الموز فى عراجنه	وقد بدا يانعا على شجره
فروع شعر برأس غانية	عُصَّص من بعد ضم مُنقَشَره
كان من ضمه وعقَّصه	أرسل شَرَابَةً على أثره
كان أمشاطه مكاحل من	زُمرْد نُظِّمت على قَدَره
كأنما زهره الأنيق وقد	شُقِّق عنه كِلام مستتره
نظام ثغر يزينه شنب	تمتَزج شَهْدُه بمعتَصَره
كان قلمات سوقه عمد	حَنَت أوأوينها على جُدَره
كان أشجاره وقد نشرت	ظلال أوراقها على ثمره
حاملة طفلها على يدها	تقيه حر الهجير فى خُمُرِه
كأنما ساقه الصقيل وقد	بدت عليه رُقوم معتبره (١)
ساق عروس أميط مئزرها	فبان وشى الخضاب فى حَبَرِه
تصاغ من جوهر خلاخلها	فتنجلى والنشَّار من زَهَرِه
حدائق خفقت سناجقها	كأنها الجيش أم فى زُمَرِه (٢)
وكل آياته فباهرة	تبين فى ورده وفى وصدَرِه
كأنما عمره القصير حكى	زمان وصل الحبيب فى قصره

(١) يريد : برقوم معتبره : العقد التى تكون فى شجر الموز يعتبر بها المعتبر ومحسب
بها أيامه . انظر تذكرة داود - ٢ - ٢٠٣ طبع بولاق .
(٢) السناجق : الألوية .

كَأَنَّهُ الْبَدْرُ فِي الْكَوْكَالِ وَقَدْ أَصِيبَ بِالْخُسْفِ فِي سَنَا قَرِهِ
كَأَنَّهُ بَعْدَ قَطْعِهِ وَقَدْ أَصْفَرَّ مَ لَمَّا نَالَ مِنْ أَذَى حَجَرِهِ (١)
مَتِيمٌ قَدْ أَذَابَهُ كَمَدٌ يَبِيتُ مِنْ وَجْدِهِ عَلَى خَطَرِهِ
مَعْلَقٌ بِالرَّجَاءِ ظَاهِرُهُ يُخْبِرُ عَمَّا أَجَنَّ مِنْ خَبَرِهِ
يَطِيبُ رِيحًا وَيُسْتَلَذُّ جَنَى عَلَى أَذَى زَادَ فَوْقَ مُصْطَبَرِهِ
كَأَنَّهُ الْحَرُّ حَالٌ مَحْتَمِهِ يَزِيدُ صَبْرًا عَلَى أَذَى ضَرَرِهِ

وهذا غيظ من فيض بما حفلت به دواوين الشعراء قديما وحديثا ،
هذا كله يعرب عن هذه الروح المفتونة بالطبيعة والتغلغل في أطوائها
والنفوذ إلى سرها ولبابها ، واستجلاء مفاتيحها ، وتصوير مباحثها ، فجاء
الشعر دافقا بالقوة ، متفجرا بالحياة ، متزيا بالأشعة ، متوشحا بالظلال
متنوعا بالعبير المسكر ! .

(١) المراد بالحجر هنا : الحجر الذي يوضع على الموز ليكبس به بعد قطعه من شجره إلى
أن يتم نصجه .

الفصل السادس

الهيمات والحركات في المركب الحسى

من بديع المركب الحسى ما يحى منه فى الهيمات التى تقع عليها الحركات من الاستدارة والاستقامة وما إلى ذلك .

ويرجع هذا إلى أن المعانى المحسوسة بطبعها غير قابلة للإغراق والتهويل كالمباني مثلاً ، فإن لكل بناء مساحة محدودة وارتفاع معين وسمك معروف ، لا يصعب علينا أن نقيسها بالأذرع والأمتار قياساً مضبوطاً دقيقاً ، ومن شأن ذلك أن يحد من خيالنا ، ويقيد نشاطنا اللفظى والعقلى ، ويعوقنا عن السبح والانطلاق كما نشاء .

ونجد عكس ذلك فى المعانى العاطفية على اختلاف ألوانها ، فإنها تتباين تبايناً كبيراً واضحاً فى قوتها وضعفها فى الأشخاص بل فى الشخص الواحد ، فمن العسير ضبط معاييرها ، وقياس احتدامها ، وتحديد درجتها ، ومن هنا كانت الألفاظ الفخمة الضخمة ، والكلمات الطنانة الرنانة ، والتعبيرات الصارخة الصاخبة الكثيرة المقاطع أكثر من غيرها ملائمة للمعانى الشعورية لتعرب فى صدق عن قوتها وشدتها وحدتها واضطرامها .

ومن المسلم به أن الحركات توائم الألفاظ فى تعاقبها وانطلاقها وعدم استقرارها ، بخلاف الأجسام الجامدة الصامتة المقيدة بقيود المكان .

فالألفاظ كما يستخدمها الشعاع ، أو كما تستخدمها أنت ويستخدمها كل إنسان للتعبير عن خواطره ومشاعره ليس لها شيء من خصائص المكان .

هى حركة عقلية ونشاط ذهنى ، فهى لا تملأ حيزاً من مكان وإنما تشغل جزءاً من الزمان ، فاللفظتان أو الألفاظ لا تتجاور فى مكان ، لا يقف

بعضها إلى جانب بعض كالأشجار والأحجار ، لكنها تتعاقب بعضها في إثر بعض في فترة من زمان .

انطق بالعبارة فلن تجد لعبارتك مساحة ، ولكنك ستجد لها زمنا قيلت فيه ، وإذا ما نطقت بالكلمة الثانية فقد ذهبت الأولى إلى العدم ؛ أو قل : أصبحت ماضيا ويستحيل عليهما أن تقفا جنباً إلى جنب كما تقف الأجسام . ولكن أى جوانب الطبيعة يخضع لنفس الظروف التي تخضع لها الألفاظ حتى تتخذ منه موضوعاتها ؟

أى الأشياء في الطبيعة لا يملأ حيزاً من مكان ولكنه يستغرق فترة من الزمان ؟

أى الأشياء في الطبيعة تتعاقب ولا تتجاوز ؟
إنها الأفعال ، ولا فرق بين أن يكون الفعل حركة في جماد أو في كائن حي ، لا فرق بين أن يكون الفعل لإنسان أو زهرة أو ماء متدفق أو ريح عاصفة .

فالفعل هو خير مجال تتجلى فيه قدرة الشعر على التعبير ، فإن حاول وصف الأجسام لذاتها قصر دون التصوير ، كما يقصر التصوير دون الشعر إن حاول تمثيل الفعل (١) .

ولهذا نجد أن وصف البحر وهو هائج العباب مصطنع الآذى ، أسهل من وصفه وهو ساكن الصفحة كالخضير ، وتصوير السحب المتدفقة كأفواه القرب ، الخالعة للقلوب بزئير وعددها ، الخاطفة للأبصار بسنا برقها ، أيسر من تصوير سحب الصيف الراكدة الرقيقة التي تتشع بعد قليل .

وقد وصف ابن خفاجة الجبل وصفاً رائعاً خلافاً بقوله :
وأرعن طاح الذؤابة باذخ يطاول أعنان السماء بغارب

يسد مهبَّ الريح من كل وجهة
وقور على ظهر القلاة كأنه
يلوث عليه الغيمُ سودَ عمام
أصخت إليه وهو آخر صامت
وقال إلى كم كنت ملجأ قاتل
ولاطم من نكب الرياح معاطف
فما كان إلا أن طوتهم يد الردى
فما خفق أيكى غير رجفة أضلع
وما غيَّض السلوان دمعى وإنما
لحتى متى أبقى وبظعن صاحب
وحى متى أرى الكواكب ساهرا
فرحماك يا مولاي دعوة ضارع
فأسمعنى من وعظه كل عبرة
فسلِّ بما أبكى ، وسرِّ بما شجا
وقلت وقد نكبت عنه لطيَّة

ويزحم ليلا شبهه بالمناكب
طوال الليالي مفكر في العواقب
لها من وميض البرق حمُر ذوائب
فحدثني ليل السرى بالعجائب
وموطن أوَّاه تبَّتل تائب
وزاحم من خضر البحار غوارب
وطارت بهم ربح النوى والنوائب
ولانوح ورقى غير صرخة نادب
نزفت دموعى في فراق الصواحب
أودَّع منه رحلا غير آتب
فن طالع أخرى الليالي وغارب
يمدُّ إلى نِعْماك راحة راغب
يترجها عنه لسان التجارب
وكان على عهد السرى خير صاحب
سلام فإننا من مقبم وذاهب^(١)

والكننا زراه لم يتحدث كثيراً عن طوله وضخامته ، لأن مجال القول ضيق في هذه النواحي الجامدة ، فهو يقف عليها وقفة قصيرة ثم يقفز إلى جوانب أخرى متحركة نشيطة يتشقق فيها الكلام ، وتنفسح آفاقه ، وتنشعب فنونه ، فيبعث في الجبل روح الحياة ويخلع عليه ثوب التشخيص ، ثم يصيح إليه السمع وهو يقص عليه أطرافاً من حياته الموهلة في القدم ، الحافلة

(١) الطبعة : الحاجة والقصد ووجهة المسافر ، ومن في « من مقبم » زائدة أو بيانية .

بالحوادث والعاديات ، المليئة بالمفارقات والمتناقضات ، العامرة بالعبر
والعضات ، ويثنه وجده الدفين ولوعته الساعرة على من فارقه من أصحابه
وهو مقيم لا يرحل ، حتى سئم البقاء وحن إلى الفناء !

ولا شك أن الشاعر قد جاءنا بشيء طريف بارع ، ولو أنه قصر وصفه
على ذات الجبل ما استطاع أن يقول غير كلام غث مبتذل متداول .

وهذا شاعر عصرى يصف « جبل طارق » بقصيدة منها (١) :

عَلَّمْ تَسَامَى	غَارِبَا وَسَنَامَا	تَزْهَوُ الْكُوكَبُ	فَوْقَهُ أَعْلَامَا
يَأْبَى عَلَى غُرِّ	السَّحَابِ جَيْئُهُ	تَقْبِيلَهَا	فَتَقْبِلُ الْأَقْدَامَا
وَيَسِيرُ زَخَّارَ	الْعَبَابِ بِسَفْحِهِ	مَتَطَامِنَا	يَحْنِي إِلَيْهِ الْهَامَا
وَتَمُرُّ هُوَ جَاءَ	الرِّيَّاحِ حَيَالُهُ	حَسْرَى عَلَى	أَعْتَابِهِ تَتَرَامَى
وَتَرَى الْجَوَارَى	لَا تَنَالُ سَلَامَهَا	إِلَّا إِذَا أَلْقَتْ	عَلَيْهِ سَلَامَا

مَا بِالْهَ حُضْنُ	وَالْمُضِيقُ ، كَأَنَّهُ	صَبَّ تَدَلَّهُ	فِي الْمَضِيقِ غَرَامَا
يَرْعَى شَوَاطِئَهُ	بِمَقْلَةٍ سَاهِرٍ	عَافَ الْمَنَامُ	فَلَا يَذُوقُ مَنَامَا
رَصَدَ عَلَى « الْبَرِّينِ »	مَدَّ أَصَابِعَا	مُسْفَعَاً تَصَبَّ	عَلَى الْمَغِيرِ حَمَامَا
وَتَوَى عَلَى « الْبَحْرَيْنِ »	أَرَعْنَ لَا بَسَا	وَشَى الْحَدِيدَ	عَلَى الْجَلَامِدِ لَا مَأْمَا (٢)
لَوْ سَاوَرَ الْجَيْشُ	اللَّهُامَ شِعَابَهُ	لَقَى الْخُتُوفَ	قَذَائِفَاً وَسَهَامَا
أَوْ خَالَفَتْ شِمُّ	الدَّوَارِعِ أَمْرَهُ	طَاحَتْ عَلَى	ثَبَجِ الْمِيَاهِ حُطَامَا (٣)
إِنْ لَمْ يَكُنْ « كَالْأَلْبِ »	طَالَ ذَوَابَةُ	فَلَقَدْ أَنْفَ	عَلَى السَّهَا وَتَسَامَى

(١) أغاريد السحر — ٨٢

(٢) اللام مسهلة الهمزة : الدروع المحسكة الملتئمة جمع لأمة .

(٣) الثبج : الوسط .

وأرى الجبال تتفاوتت أقذارها مثل الرجال مكانة ومقاما
فأنت ترى هذا الشاعر أيضاً راغ عن وصف الجبل نفسه ، ووصف
ملابسائه المختلفة ، بعد أن جعله كائناً حياً بما نفخ فيه من روح الحياة .
ولو أنه وقف عند الأوصاف المعروفة المجردة : من الارتفاع والضخامة
والخشونة وغيرها ما قال : إلا أنه صخرة جرداء منيعة .
ولقد أمكن لطرفة أن يصف الناقة وصفاً مفصلاً مستوعباً بأكثر من
ثلاثين بيتاً : أى بما يساوى قصيدة كاملة ، لأنه وصف حيواناً له حركات
وأفعال متنوعة ، ولسكن هذه الشاعرية المبدعة كانت تحس حتماً بالعجز
والقصور لو تصدت لوصف شيء مستقر كالجبل والتل والكثيب مثلاً ،
وما استطاعت أن تتفقق إلا عن أبيات معدودة لا تروى ظمأً الفنان .

هيئة الحركة في المركب الحسى :

تأتى هيئة الحركة في المركب الحسى على ضربين :

١ — أن تقترن الحركة بغيرها من أوصاف الجسم كالشكل واللون
كما فى قول أبى النجيم العيجلى :

والشمس كالمرآة فى كف الأشل لما رأيتها بدت فوق الجبل
أراد أن يريك مع الشكل الذى هو الاستدارة ، ومع الإشراق
والتلألؤ على الجملة ، الحركة التى تراها للشمس إذا أنعمت التأمل ، ثم ما يحصل
فى نورها من أجل تلك الحركة ، وذاك أن للشمس حركة متصلة دائمة فى
غاية السرعة ، ولنورها بسبب تلك الحركة تموج واضطراب عجب ،
ولا يتحصل هذا الشبه إلا بأن تكون المرآة فى يد الأشل ، لأن حركته
تدور وتتصل ويكون فيها سرعة وقلق شديد ، حتى ترى المرآة لا تقر فى
العين ، وبدوام الحركة وشدة القلق فيها يتموج نور المرآة ويقع الاضطراب

الذى كأنه يسحر الطرف ، وتلك حال الشمس بعينها حين تحد النظر وتنفذ
البصر حتى تبين الحركة العجيبة في جرمها وضوئها ، فإنك ترى شعاعها
كأنه يهيم بأن ينبسط حتى يفيض من جوانبها ، ثم يبدو له فيرجع في الانبساط
الذى بدأه إلى انقباض كأنه يجمعه من جوانب الدائرة إلى الوسط .

وحقيقة حالها في ذلك مما لا يكمل البصر لتقريره وتصويره في النفس ،
فضلا عن أن تكمل العبارة لتأديته ، ويبلغ البيان كنه صورته ^(١) .

ومثله في غير المرأة قول الوزير المهلبى :

الشمس من مشرقها قد بدت مشرقة ليس لها حاجب

كأنها بوثقة أحميت يحول فيها ذهب ذائب

فإن البوثقة إذا أحميت وذاب فيها الذهب تشكل بشكلها في الاستدارة
وأخذ يتحرك فيها بجملته تلك الحركة العجيبة ، كأنه يهيم بأن ينبسط حتى
يفيض من جوانبها لما في طبعه من النعومة ، ثم يبدو له فيرجع إلى الانقباض
لما بين أجزائه من شدة الاتصال والتلاحم ، ولذلك لا يقع فيه غليان على
الصفة التي تكون في الماء ونحوه مما يتخلله الهواء ^(٢) .

ومثله قول ظافر الحداد :

انظر لقرن الشمس بازغة في الأفق تبدو ثم ترتفع

كسيكة الزجاج ذائبة حمراء يتفخها فتتسع

ومن عجيب ما تجمع فيه بين الشكل وهيئة الحركة قول الصنوبرى :

كان في غدرانها حواجبا ظلت تمط

أراد ما يبدو في صفحة الماء من أشكال كأصاف دوائر صفار ، ثم
إنك تراها تمتد امتدادا ينقص من انحنائها وتحدبها كما تباعد بين طرفي القوس

وتثنيها إلى ناحية الظهر ، كأنك تقر بها من الاستواء وتسليها بعض شكل
التقوس الذي هو إقبال أحد طرفيها على الآخر .

ومتى حدثت هذه الصفة في تلك الأشكال الظاهرة على متون الغدران
كانت أشبه شيء بالخواجب إذا مدت ، لأن الخاجب لا يخفى تقويسه ،
ومده ينقص من تقويسه .

وقريب منه قول شاعر يصف البرق :

أرقت لبرق سرى موهنا خفيّاً كغمزك بالخاجب

كأن تألقه في السماء يدا كاتب أو يدا حاسب

وقول أبي منصور البغوي :

ترأت لنا من خدرها بسوالف كما لاح بدر من خلال سحاب

وهز الصبا صدغاً لها فوق خدها كما رُوحت نار بریش عراب

٢ - أن تجرد هيئة الحركة من كل وصف يكون في الجسم كالشكل

واللون ، فلا ينظر إلا للحركة فقط مجردة عن الجسم وسائر أوصافه : أي
أن يميز ما به المشابهة عما به الامتياز .

كقول عمرو بن كلثوم :

كأن سيوفنا منا ومنهم مخاريق بأيدي لاعبيننا

وقول ابن المعتز يصف فرساً له :

وله أربع تراها إذا هملج م تحكى أنامل الحساب

وأنامل الحساب يشبه بها ما يوصف بالسرعة .

وقول شاعر :

كأن فوادي في مخالب طائر إذا ذكرتك النفس شدّ به قبضا

وقول آخر :

تمشى فتقلها روادفها فكأنها تمشى إلى خلف
ولاريب أن حركات الجسم تختلف ، فمنها الحركات غير المركبة
كحركة الرمح والدولاب والسهم لأن الجهة والحدة .

ومنها الحركات المركبة ، وقد تسكثر هذه الحركات فيكون للجسم حركات
مختلفة ، كأن يكون بعضها إلى اليمين وبعضها إلى الشمال ، وبعضها إلى العلو
وبعضها إلى السفل ، ليتحقق التركيب وإلا لكان وجه الشبه مفرداً وهو
الحركة لا مركباً .

فمن الحركات المركبة قول ابن المعتز :

وكأن البرق مصحف قار فانطابا مرة وانفتاحا

اكتفى من جميع أوصاف البرق ومعانيه بالهيئة التي يراها من انبساط
يعقبه انقباض ، وانتشار يتلوه انضمام ، ثم التمس له شديها فأصابه في حركة
المصحف الخاصة ، دون اعتبار شيء معها من صفات الجسم كالشكل واللون
كما في « المرآة في كف الأشل » .

فالمصحف يفتحه القاريء مرة فيتحرك إلى أسفل ، ويطبقه أخرى
فيتحرك إلى أعلى ، ولا شك أن هذه الحركة في الانطباع والانفتاح فيها
تركيب ، لأنه يتحرك في كل حال إلى جهتين ، ففي حالة الانفتاح يتحرك اليمين
إلى اليمين واليسار إلى اليسار ، وفي حالة الانطباع يتحرك اليمين إلى اليسار
واليسار إلى اليمين .

ولم يكن حسن حال التشبيه لكونه جامعاً بين المختلفين من جنس ، بل
لحصول الاتفاق بينهما من ذلك الوجه ، فلاجل اجتماع الأمرين : أعني
الاتفاق التام والاختلاف التام كان حسناً بديعاً .

ومثله قول القلعي المغربي :

والسحب تلعب بالبروق كأنها قار على عجل يقلب مصحفا

وقول أبي طالب المأموني يصف دارا :

وكان الأبواب صحب تلاقين م انقفا لا ثم افترقنا انفتاحا

وكان الستور قد نشر الطاووس منها في كل باب جناحا

وكلها كان التفاوت في الجهات التي تتحرك أبعاض الجسم إليها أشد، كان التركيب في هيئة التحرك أكثر .

فما جاء من ذلك ولطف وعرف ، لما فيه من التفصيل والتركيب قول الأعشى يصف السفينة في البحر وتلاعب الأمواج بها .

يقص السفين بجانيه كما ينزوالرّباح خلاله كراع^(١)

شبه السفينة في انحدارها وارتفاعها بحركات الفصيل في نزوه ، وذلك أن الفصيل إذا نزا - ولا سيما في الماء وحين يعتريه ما يعتري المهر ونحوه من الحيوانات التي هي في أول الشيء - كانت له حركات متفاوتة تصير لها أعضاؤه في جهات مختلفة ، ويكون هناك تسفل وتصعد على غير ترتيب وبحيث تكاد تدخل إحدى الحركتين في الأخرى ، فلا يثبت الطرف مرتفعا حتى يراه منحطاً متسفلاً ، وهو مرة نحو الرأس ومرة نحو الذنب ، وذلك أشبه بحال السفينة وهيئة حركاتها حين يتدافعها الموج .

ومنه قول بعضهم :

حفت بسرو كالقيان تلفحت خضر الحرير على قوام معتدل

فكأنها والريح جاء يملها تبغى التعانق ثم يمنعها الخجل

ففي البيت الثاني تفصيل ظريف فائن ، فقد راعى الحركتين : حركة التهيؤ

(١) نقص : ثب ، الرباح كرمات : الفصيل وقيل : الفرد ، والكرع : ماء السماء .

للدنو والعناق ، وحركة الرجوع إلى أصل الافتراق ، وأدى ما يكون في الحركة الثانية من سرعة زائدة تأدية لطيفة تحسب معها السمع بصرا ؛ تبينا للتشبيه كما هو وتصويرا ، لأن حركة الشجرة المعتدلة في حال رجوعها إلى اعتدالها أسرع لا محالة من حركتها في حال خروجها من مكانها من الاعتدال . وكذلك حركة من يدركه الخجل فيرتدع أسرع أبدا من حركته إذا هم بالدنو فإزعاج الخوف والوجل أبدا أقوى من إزعاج الرجاء والآمل ، فمع الأول تمهل الاختيار وسعة الحوار ، ومع الثاني حفز الاضطراب وساطان الوجوب (١) .

وقريب منه قول البحترى :

ولم أنس ليلتنا في العناق لفَّ الصبا بقضيب قضيبا
كما أقبلت الريح في مرها فطورا خفوتا وطورا هبوا

وكما تعتبر هيئة الحركة في التشبيه ، فكذلك تعتبر هيئة السكون نحو هيئة المضطجع وهيئة الجالس ونحو ذلك ، فإذا وقع شيء من هيئات الجسم ، في سكونه تركيب وتفصيل لطف التشبيه وحسن مثل قول المتنبي — في صفة كلب صا دظييا من غير صقر — :

يُقعى جلوس البدوى المصطفى بأربع مجدولة لم تُجدل

فقد نال التشبيه حظا من الحسن ، لأن فيه تفصيلا من حيث كان لكل من السكب في إقعائه موقع خاص ، وكان مجموع تلك المواقع في حكم أشكال مختلفة تؤلف ، فتجىء منها صورة خاصة مؤلفة من جميعها .

وكذلك صورة جلوس البدوى عند الاصطلاء بالنار .

فوجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من تقارن سمكات الأعضاء حالة وقوع كل عضو منه موقعه المخصوص به في إقعائه .

وخص البدوى بالذكر لأنه في الغالب هو الذي يقع منه الاصطلاء على هذا الوجه .

ومنه قول الأهوازي ^(١) في صفة مصلوب :

كأنه عاشق قد مد صفحته يوم الوداع إلى توديع مرتحل

أو قائم من نعاس فيه لوثته مواصل لتمطيه من الكسل ^(٢)

لطف التشبيه لكثرة حظه من التفصيل ، فلم يقف عند وصفه بالتمطى لأنه قريب التناول .

فهذا القدر يقع في نفس الرائي للمصلوب ابتداء لكونه من باب الجملة ، ولكن قيده بما يفيد استدامة تلك الحال ، ثم ذكر علة ذلك وهو اللوثة والكسل فيه ، وهذا يحتاج إلى قوة تأمل وفضل تدقيق لحاجته أن ينظر إلى ثلاث جهات ؛ فيقول : هو كالمتمطى ، ولكن المتمطى يمد ظهره ويده مدة ثم يعود إلى حالته ، فيزيد فيه أنه مواصل لذلك التمطى ، ثم يطلب علته وهي قيام اللوثة والكسل في القائم من النعاس .

وفي البيت الأول اعتبر هيئة سكون عنقه وصفحته في حال امتدادهما ، واعتبر مع ذلك السكون صفة اصفرار الوجه بالموت ، لأن تلك الهيئة موجودة في العاشق الماد عنقه وصفحته لوداع المحشوق ، فهي هيئة أضيف إلى السكون فيها غيره من أوصاف الجسم .

(١) قال أبو الحسن : هو رجل محدث من أهل البصرة ويعرف بالأخيطل ويلقب برقوفا السكامل « شرح الرصافي » ٦ - ١٧٢ .
(٢) اللوثة بالضم : الاسترخاء .

الفصل السابع

تشبيه الصورة بالمعنى

أو

المحسوس بالمعقول

كانت العرب تعنى بصب المعانى فى القوالب المحسوسة ، وتبالغ فى ذلك كل المبالغة ، سواء فى ذلك ما تقع عليه الحاسة من الأوصاف ، أو كان تعبيراً عن الخواطر النفسية ، ونبضات العواطف .

وكانت تستعين على إبراز ذلك بالتشبيهات والاستعارات المادية وما إليها من صور البيان ، ولم تكن تلقى بالها إلى ما يسمى بالتشبيهات الخيالية والوهمية لأن البيان عندها كما يدل عليه معناه اللغوى بل كما ينطق به اسمه : ظهور ووضوح .

فنتاجها على العموم صور مادية لا تخرج عن نطاق الحواس الظاهرة ؛ تلمس الحقائق وتعنى بالتفصيلات ، وتهتم بالأجزاء ، وتنفر من الغموض والإبهام ، وتدور حول الخصوص لا العموم ، وتكره التدسس إلى ما وراء الماديات المنظورة ، لسبر أغوار النفس واستنباط سوانح العقلية الباطنية . ولعل ذلك هو السبب الأكبر فى أنهم لم يبرعوا فى فنون القصص براعتهم فى الشعر فقد وجهوا كل عنايتهم إلى الفن الأخير ، وأنفقوا فيه ما يملكون من كنوز الألفاظ والصيغ اللماعة ، التى توائم هذه النظرات المتظاممة السطحية ، وازوروا عن القصص لاقتضائه التغلغل إلى ما وراء الظاهر ، والانسياب إلى أعماق النفوس النائية ، وتحليل العواطف والخوارج المتشابكة المتعقدة .

ولقد بالغوا في التوضيح حتى وصلوا إلى ما يعرف الآن بالتجسيم والتشخيص .
فهذا المهمل بن ربعة يصف النجوم فيشبهها بالكائنات الحية من أناسي^١
وبهائم في قوله (١) :

كأن كواكب الجوزاء عوذ معطفة على رُبْع كسير
كأن الجدى في مَنَاة رِبْق أسير أو بمنزلة الأسير
كأن النجم إذ ولى سُجِرَا فصل مجلن في يوم مطير
كواكبها زواحف لا غبات كأن سماءها يدي مدير
وفي رواية أخرى لهذه القصيدة جاء هذان البيتان في آخرها :
كأن الجدى جدى بنات نعش يكب على اليدين بمستدير
وتحبو الشَّعْرِيَانِ إلى سُهَيْل يلوح كقمة الجبل الكبير

يقول : كأن كواكب الجوزاء نوق حديثات النتاج ، عطف على فصل
مكسور ، فهي لا تتركه وهو لا يقدر على النهوض ، وكأن الجدى قد شد
بحبل مثنى فهو أحكم لشده ، وكان النجم — وهو الثريا — فصل تسير
بطيئة معيات في يوم مطير خوف الزلق فلا تسرع ، وكأن سماءها أثقل
من أن يديرها مدير ؛ فهو إذا تكلف إدارتها لم يقدر عليها .

ومن يتأمل هذه الأبيات يخيل إليه ، أنه بإزاء قطعة صاخبة من الحياة
يملؤها الدأب والنشاط بما بث فيها الشاعر من معاني الحركة وعواطف
الترايط والانجذاب ، وبما خلع عليها من سمات الأناسي العقلاء .

(١) أمالي القالي — ٢ — ١٣٢ .

(٢) العوذ بالضم : الحديثات النتاج من الفلباء وكل أنثى جمع عائد .

(٣) الربق بالكسر : حبل فيه عدة عرا .

(٤) الربيع بضم ففتح : الفصل يولد في الربيع .

وامرؤ القيس أضفى على الليل صفة الحيوان في قوله :
 فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكل كل
 فاستعار له صلبا ، واستعار لطوله لفظ التمطى ليلائم الصلب ، واستعار
 لأوائله لفظ الكل كل — وهو الصدر — واستعار لما أخيره لفظ الأعجاز .
 ويقول الأمدى : وقد عاب امرأ القيس بهذا المعنى من لم يعرف
 موضوعات المعاني ولا المجازات وهو في غاية الحسن والجودة والصحة .
 وهو إنما قصد وصف أجزاء الليل الطويل ، فذكر امتداد وسطه
 وثقل صدره للذهاب والانبعاث ، وترادف أعجازه وأواخره شيئا فشيئا .
 وهذا عندى منتظم لجميع نعوت الليل الطويل على هيئته ، وذلك أشد
 ما يكون على من يراعيه ويتربص تصرفه ، فلما جعل له وسطا يمتد ، وأعجازا
 رادفة للوسط ، وصدرأ متشاقلا في نهوضه ، حسن أن يستعير للوسط اسم
 الصلب وجعله متمطيا من أجل امتداده ، لأنه تمطى وتمدد بمنزلة واحدة ،
 وصح له أن يستعير للصدر اسم الكل كل من أجل نهوضه .
 وهذه أقرب الاستعارات من الحقيقة وأشدها ملائمة لمعنى ما
 استعيرت له (١) .

وشبه الوادى بجوف الحمار الوحشى إذا خلا من العلف في قوله .
 وواد كجوف العير قفر قطعته به الذئب يجرى كالخليع المعيل (٢)
 وشبه الجبل من انهيار المطر عليه وتكاثره حوله بسيد أناس تلفف
 بكساء مخطط في قوله :

كان أبانا في عرائن وبله كبير أناس في بجاد مزمل

(١) الموازنة بين الطائين — ٢٣٥ — ٢٣٦ .

(٢) الخليع المعيل : المقامر الكثير العيال .

قال قوم : أراد أن المطر قد خنق الجبل فصار كاللباس على الشيخ المتزمل .
وقال آخرون : إنما أراد أن المطر كساه من خضرة النبات ، وكلاهما حسن .

وفي رواية كأن ثيرآ

والنابغة جعل الليل راعياً في قوله :

وصدر أراح الليل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب
وهذا مستعار من إراحة الراعى الإبل الى مباحثها : أى ردها إلى موضعها
الذى تأوى إليه .

فجعل الهم يأوى إلى قلبه بالليل كالنعيم العازبة تريحها الرعاة مع الليل
إلى أما كتبها ، وهو أول من ذكر أن الهموم تتزايد بالليل ^(١) .

والأعشى يجعل الحرب خلاهاً صائلاً من الإبل :

فإن الحرب أمسى خلفها م في الناس مُغتلمها
وليد يجعل للبرد زماماً ولريح الشمال يداً :

وغداة ربح قد كشفت وقرة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها
القرة : شدة البرد ، والشمال أبرد الرياح .

والمعنى : كم غداة شديدة البرد كفت فيها حدته عن الناس بإطعامهم الطعام .
وعمر بن كثوم يجعل اللؤم قارحاً في قوله للنعمان بن المنذر :

ألا أبلغ النعمان عنى رسالة فمجدك حولي ولؤمك قارج
والقارج : المسن من ذوى الحافر بمنزلة البازل من البعير .

والمعنى أن مجده حديث ، ولؤمه عتيق عريق .

وطفيل الغنوى يجعل الرحل من أكلة اللحوم في قوله يصف هزال الناقة
بطول السفر :

فوضعت كورى فوق ناجية يقات شحم سنامها الرجل
ومعن بن أوس يجعل للضغن أظفارا :
وذى رحم قلت أظفار ضغنه بحلى عنه وهو ليس له حلم
وأبو ذؤيب الهذلى يجعل للمنية أظفاراً تنشيبها فى فرائسها فلا تنجى منها
العوذ والتألم :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تيممة لا تنفع
وأوس بن مغراء يجعل للؤم ثدياً فى هجائه بنى عامر :
يشيب على لؤم الفعّال كبيرها ويغذى بثدى اللؤم فيها وليدها
وأوس بن حجر يكنى عن شدة الحرب ونكارتها ؛ فيجعل لها ناباً معوجاً كالخا.
ولمى امرؤ أعددت للحرب بعدما رأيت لها ناباً من الشر أعصلا
ويتمثل هذا الأسلوب المحسوس أكثر ما يتمثل فى مدرسة زهير بن أبى
سلمى ، وراويته . الخطيئة ، وراوية الخطيئة : هذبة بن الخشرم ، وراوية
هذبة : جميل بثينة ، وراوية جميل : كثير عزة (١) .

وهى مدرسة يقول فيها الدكتور طه حسين باشا : كثر عندها التشبيه
والمجاز والاستعارة ، واتكأت فى وصفها على التصوير المادى (٢) .
والحق أن هذه المدرسة شديدة اللصوق بالمحسوس ، عميقة التأثر به
تكب على صحائفه حين تقول ؛ فتتزع منها كل ألوان البيان من تشبيه واستعارة
وكناية ، كما ترى فيها الشغف بالتجسيم والتشخيص واضحا كل الوضوح .
فزهير يصف آثار الحرب وقبح نكائتها فى المتحاربين على السواء فى
آيات جامعة حكيمة ، فيصورها بالوحش فى ضراوته ، وأنها تلقح فى السنة
مرتين ، وتلد فى كل مرة توأمين ، وأن هذا النسل جميعاً مشوم كعاقر ناقة

(١) الأغاني - ٨ - ٩١ - « طبع دار الكتب » .

(٢) فى الأدب الجاهلى - ٢٨٦ .

صالح؛ ولد من الشر وخلق للشر، فالشر يجري على أثره أينما حل !
وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعوها تبعوها ذميمة وتضر إذا ضرّ يتموها فتضرم
فتعركم عرك الرحي بثقالها وتلقح كشافاً ثم تنتج فتتم^(١)
فتنتج لكم غلماناً أشام كلهم كأحر عاد ثم ترضع فتفطم
والخطيئة جعل لقلبه نظرات حادة شديدة :

ألا من لقلب عارم النظرات يقطع طول الليل بالزفرات
هذه كانت صورة البيان العربي الأصيل إلى انقضاء العهد الإسلامي :
متانة سرد ، وصدق عاطفة ، وبساطة فكرة ، وبعد عن الرمزية والتجريد ،
ونفور من التلبيس والإبهام ، والإغراق في الخيالات والأوهام ، ومبالغة
في إلباس الأشياء صور المحسوسات ، لإخراجها من الخفاء إلى الجلاء
ومن الغموض إلى الظهور .

وهذا يلائم طبيعة العربي الخالص ويوافق مزاجه ؛ فهو إنسان طليق حر
صریح لا يوارب ولا يحتشم ، وبأنف الخضوع والتعبد للقوانين ، ويكره
عبارات الملق والتنفاق والدهان ، ولا يدين بأساليب الدهاء والنكراء
والدبلوماسية الناعمة ، ولا يستطيع أن يكتم ما يحوك في صدره ، وينطق بما
يرضيه وإن أغضب غيره ، بل وإن جر عليه الشر ، باطنه كظاهرة وسره
كعلانيته ، وما فيه ينضح على فيه .

ولكن في العصر العباسي تبدلت الحال غير الحال باختلاط الدماء وتمازج
الثقافات وتلاقح العقول والأفكار ، وتلاقح الحضارات ، فنشأ عن تلك الروافد

(١) الكشف بالكسر : أن تلقح النعجة مرتين في السنة ، والإتمام : أن تلد الأنثى

من الثقافات التي أمدت الأدب العربي والإسلامي بخصائصها وخصبها ودمتها
أن ظهر لوانان من الشعر وهما :

١ - الشعر الصوفي الذي يمثل الزاوية على الدنيا ، ويدعو إلى كبت
الشهوات والتفكير من قيود الجسد وأغلال المادية كسر - سورة النفس ،
والانطلاق في زحاب الملاء الأعلى ، والهيام بالذات القدسية التي هي مصدر
كل جمال في الكائنات ، وظهرت فيه النزعة الرمزية التي تومي بقصائد النسيب
والغزل والخمرات وغيرها إلى أصول مواجد الصوفية وفنائهم في حب الله .

٢ - الشعر المتأثر بعقلية اليونان بعد ترجمة مصادر الثقافة اليونانية
وبخاصة في عهد المأمون .

وهكذا لم تعد صور البيان كما كانت في العهد القديم جملاً مادية ملموسة
تمثل خصائص أمة واحدة ، بل أصبحت تتاج عصبة أمم انصهرت في بوتقة
واحدة ، بل أخذت عند بعض الشعراء كأبي نواس وأبي تمام وابن الرومي
تبدو وكأنها تتمرد على قولها المألوفة ، وتخلع عنها مادتها الكشيفة ، وتشف
وتصفو حتى تلحق بالوهميات التي تذاق بالحس الباطني وحده .

استمع إلى قول البحترى يصف ليلة مرت به - مع أن هذا الشاعر
عرف بلزومه عمود الشعر - :

وليلة كأنها	يوم أمل	ظلامها كالدهر	ما فيه خلل
كأنما	الإصباح فيها باطل	أزهقه الله	بحق فبطل
ساعاتها أطول من	يوم النوى	وليلة الهجر	وساعات العذل
مؤصدة على الوري	أبوابها	كالنار لا يخرج فيها من دخل	

ففي هذا الوصف يبدو التأمل والتجريد ، كما يبدو الخفاء الناجم من
تشبيه الحسى بالمعنوى ، وفيه تجميل للصورة وإن عده القدماء غير جميل (١) .

وهذا أثر من آثار الفلسفة اليونانية والمنطق اليوناني بما أدخلاه على الذهن العربي من صفات عقلية جديدة ، وكأني بالشاعر يتأثر بعناصر أفلاطونية في تفكيره ، فهي صياغة ذهنية باطنية أبعد غوراً ومثلاً من الصياغة الحسية الظاهرة ففي ذلك تجريد ووهم وفرض وبعد وإغراق في الخيال .

وليس من شك في أن هذا التجريد والوهم لم يكن يعتمد إليهما الشاعر القديم ، إذ كان يتسكى في وصفه على المادة والحس ، وحقاً أن صانع الشعر العربي تغيرت صفاته العقلية القديمة ^(١) .

ومثل هذا الأدب المتأثر بالعقلية اليونانية نلاحظ في بعض نواحيه انصرافاً عن المادة وزهداً في الواقعية ، ورغبة عن المحسوسات ، وحنوحاً إلى اقتناص الفكرة المجردة من أغوارها العميقة ، فلا بدع إذ رأينا فيه تراكم الفكر ، وتعاقد المعاني ، وتزاحم الصور حتى تكاد تختنق ، فيشوبها الغموض واللبس ، وتمعن في البعد عن الأسلوب الشعري التقليدي ، فتدق على ذهن القارئ فلا يفهمها ، أو يفهمها توهمًا وتحس نفسه العجز عن شرح معناها ، بل لعل ناظمها نفسه يشعر بهذا العجز أيضاً .

ويظهر أن مسلم بن الوليد هو السابق إلى تلك الطريقة بإيغاله في اختيار اللفظ والتأنق في المعنى ، وقد صرح ابن قتيبة : بأنه أول من ألطف في المعاني ورقق في القول وعليه يعول الطائي « أبو تمام » في ذلك وعلى النواصي ^(٢) .

ونحن نشم عبقة من الإلطاف في المعاني حينما نقرأ قوله :
إذا شئتما أن تسقياني مدامة فلا تقتلوهما كل ميت محرم
خلطنا دما من كرمه بدمائنا فأظهر في الألوان منا الدم الدم

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي - ٧٠ - ٧٢

(٢) الشعر والشعراء - ٥٢٨

فقد جعل مزج الخمر بالماء قتلا لها ، ولكنه علق على هذا بأن القتل إماتة ، وأكل الميتة حرام في غير حال الاضطراب .

ثم جعلها دما لحرمتها وخلطها بدمه حين شربها فنضح هذا المزاج دما على وجهه : يعنى حمرة اللون التي تبدو على الشارب .

وهذه المعاني في جملتها مسبوق بها ، ولكن الذى لم يسبق به هذا التدقيق والتعمق فى المعنى ، والتماس العلل ، وربط الأسباب بالمسببات ، واستخدام القضايا العلمية ، واختيار القوالب الموحية المناسبة لذلك .
وقوله :

يا واثيا حسنت فينا إساءته نجى حذارك إنسانى من الغرق
ففيه حسن تعليل بإثبات صفة ممكنة لموصوف ، فإن استحسان إساءة الواشى شئ ممكن ، لكنه لما خالف رأى الناس فى ذلك عقب عليه بذكر التعليل الكاشف المقنع : بأن حذاره أنقذ إنسان عينه من الغرق فى سيل الدموع ، لأنه اضطر إلى حبسها وترك البكاء خوفا منه .
وهو كقول الآخر :

عداى لهم فضل على ومنة فلا أبعد الرحمن عنى الأعاديا
هم بحثوا عن ذاتى فاجتنبها وهم نافسونى فارتقيت المعاليا
وجاء بعده أبو تمام فأوغل فى هذه الصناعة حتى عد سابقا لعصره ، وذلك أنه اطلع على العلوم والآداب المترجمة فى عهده ، فدق عقله ورق خياله وصفا ذهنه ، واستخرج من كل هذا طريقته التى آثر فيها تجويد المعنى على سهولة الديباجة ، فكان أول من أكثر من الحكم والأمثال والاستدلال بالأدلة العقلية والكنائيات الخفية لكثرة لوازمها ولو أفضى ذلك إلى التعقيد أحيانا .
وقد انتشر أمر أبى تمام لذلك على معاصريه ومن جاءوا بعدهم فتفرقوا فى شعره شيعا بين قادح ومادح .

فالمشكرون طريقته يروونه جاني نهج العرب وخرج عن جادتهم ، وأتى
بشعر غامض عسير يرتقى عن منال الأفهام .

يقول ابن الأعرابي — وقد أنشد شعراً له — : إن كان هذا شعراً
فكلام العرب باطل ^(١) .

وأنكر عليه أبو سعيد الضرير ^(٢) هذا الغموض — حينما رفعت إليه
قصيدته في مدح عبد الله بن طاهر التي أولها — :

أهْنَّ عَوَادِي يَوْسُفَ وَصَوَاحِبَهُ

فقال له : يا أبا تمام ، لم لا تقول من الشعر ما يفهم ؟

فقال له : وأنت يا أبا سعيد ، لم لا تفهم من الشعر ما يقال ^(٣) ؟

وهو جواب يفهم الخصم ولكنه لا يقنع .

وسمعه إسحاق الموصلي ينشد شعراً في منزل الحسين الضحاك ، فقال له :

يا فتى ، ما أشد ما تتكىء على نفسك ^(٤) !

يعنى : أنه لا يسلك مسلك الشعراء قبله وإنما يستقي من نفسه .

ويقول حذيفة بن محمد الطائي الكوفي — وكان من العلماء — : أبو تمام

يريد البديع فيخرج إلى المحال .

ويقول المرزبان : وهو يغوص على المعاني ولا يريد أن يعطل شيئاً

من كلام مستغلق ^(٥) .

وكان من أشدهم عليه القاضي الجرجاني والآمدي .

يقول فيه الأول : حاول من بين المحدثين الاقتداء بالأوائل في كثير من

الفاظه ، فحصل منه على نوع غير اللفظ ، وتبيجح به في غير موضع من

شعره فقال :

فكأنما هي في السماع جنادل وكأنما هي في القلوب كواكب

(١) الموازنة — ١٥ (٢) في هبة الأيام للبديعي — ١٣٤ : أنه أبو العيثيل .

(٣) الموشح — ٣٢٥ — ٣٢٦ (٤) المصدر السابق — ٣٢٧

(٥) المصدر السابق — ٣٠٤ — ٣١٢ — ٣٢٤

فتعسف ما أمكن ، وتقلقل في التصعب كيف قدر ، ثم لم يرض بذلك حتى أضاف إليه طلب البديع فتحمله من كل وجه ، وتوصل إليه بكل سبيل . ولم يرض بهاتين الخلتين حتى اجتنب المعاني الغامضة ، وقصد الأغراض الخفية ، فاحتمل فيها كل غث ثقیل ، وأرصد لها الأفكار بكل سبيل ، فصار هذا الجنس من شعره إذا قرع السمع لم يصل إلى القلب إلا بعد إتعاب الفكر وكد الخاطر والحمل على القرينة ، فإن ظفر به فن بعد العناء والمشقة وحين حسره الإعياء ، وأوهن قوته البكال ، وتلك حال لا تهش فيها النفوس للاستماع بحسن ، أو الالتذاذ بمستطرف ، وهذه جريرة التكلف ^(١) . ويقول فيه الثاني - وكان معروفاً بالتعصب عليه - : إنه اغتر بما سقط في أشعار المتقدمين من العيوب وعليها في العذر اعتمد ، طلباً منه للإغراق والإبداع وميلاً إلى وحش المعاني والألفاظ ، وأسرف في ذلك كل الإسراف .

ويقول : وإنما رأى أبو تمام أشياء يسيرة من بعيد الاستعارة متفرقة في أشعار القدماء لا تنتهي في البعد إلى هذه المنزلة فاحتذاها ، وأحب الإبداع وأغرق في إيراد أمثالها واحتطب وأكثر منها ^(٢) .

ولم يقس هؤلاء التقاد على أنى تمام هذه القسوة إلا لأنه في رأيهم فارق عمود الشعر المألوف ، وخرج على مذهب الأعراب في تناول المعاني من غير كلفة ولا معاناة ، وهام في أودية العقل ومتاهات الفكر في ظلال التصفية والتدقيق وتعطيل الحواس الظاهرة في كثير من الأحيان ، مكتفياً بزفها في غلالة كالسراب فيه حلم وإلهام وإيحاء .

فقد ملأ شعره بالتجسيم إذ نراه يحسم المعاني في صورة مادية حسية حتى تثبت في نفوسنا كأن يقول :

راحت غواني الحى عنك غوانيا يلبس نأيا تارة وصدودا

فقد جسم النأى والصدود فى هذه الثياب الغريبة غرابة ثوب الزمن فى قوله لبعض مدوحية :

ومن زمن ألبستيه كأنه إذا ذكرت أيامه زمن الورد
وهى كلها أثواب غريبة غرابة ذلك المتعنف من مآثر مدوحيه إذ يقول :
حتى لو أن الليالى صورت لغدت أفعاله الغر فى آذانها شفا
وقد صاغ أبو تمام من هذا التجسيم شيئا كثيرا فى أشعاره ، وراح
يضيف إليه وشيا آخر من التشخيص كأن يقول فى الربيع :

رقت حواشى الدهر فهى تمرر وغدا الثرى فى حليه يتكسر
فقد مثل الدهر فى تلك الحواشى الزاهية المشرقة التى يتخايل فيها الثرى
وكأنه عروس تتشى فى حليها وتتكسر فى زينتها (١) .

والمساحون لأبى تمام يعرفون له فضله فى اقتناص المعانى وقوة الذكاء
وإن كان بعضهم لا يخليه من اللوم .

ففيلسوف العرب الكندى يظن إلى حدة قريحته وعمق تفكيره ،
فيقول حين نظر فى شعره : هذا رجل يموت قبل حينه ، لأنه حمل على
كيانه بالفكر .

وفى رواية : لأن ذكاه ينحت عمره كما يأكل السيف الصقيل غمده (٢) .
ويقول محمد بن الجهم : يغوص على المعانى الدقاق فرما وقع من شدة
غوصه على المحال .

ويقول الخفاجى — بعد أن عرض لظرف من استعاراته — وهذا وأمثاله
يعرفه الذوق ، ومثله يستحسنه شعراء العجم ، وتبعهم شعراء الروم ، فلعل
مثله يتفاوت بحسب اللغات . (٣)

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى — ١١٦

(٢) الموشح — ٢٣٧ — هبة الأيام — ٢٦

(٣) طراز المجالس — ٥

وفى هذه الحكمة تصوير لمذهب أبى تمام ، فالحق أن أكثر النقاد لم يفهموه حق الفهم ، لأنه لم يلتزم عمود الشعر الذى جرى عليه أسلافه فى صور البيان كما التزمه البحترى وغيره ، فالتوى عليهم شعره وعدوه بدعا من الشعراء .

ومن جميل التشخيص قول المتنبي :

ملامي النوى فى ظلها غاية الظلم لعل بها مثل الذى بي من السقم
فلو لم تغرَّ لم تزوِ عني لقاءكم ولو لم تُردِّكم لم تسكن فيكم خُصْمي

جعل النوى تعشق فتصاب بالسقم مثله ، وتغار منه فتحجب عنه الحبايب اللواتى تشاركه فى حبهن ، وجعلها تعقل وتفكر فتناصبه العداوة لأنها تريد من الحبايب ما يريد منهن .

وقول بعضهم :

إن المكارم أرواح يكون لها آل المهلب دون الناس أجساداً
فلم يكفه أن يشخص المكارم فينفخ فيها الحياة ، بل جعلها قوام الحياة وملاكها وهى الأرواح ، وجعل الأناسى الحية لها أجساداً .

وهى مرتبة فوق مرتبة التشخيص .

وقد أشار عبد القاهر إلى تشبيه الصورة بالمعنى فى بعض كلامه فقال :
إن تنزيل الوجود منزلة العدم — إذا أريد المبالغة فى حط الشيء والوضع منه وخروجه عن أن يعتد به كقولهم : هو والعدم سواء — : معروف متمكن فى العادات ، وربما دعاهم الإيغال وحب السرف إلى أن يطلبوا

بعد العدم منزلة هي أدون منه حتى يقعوا في ضرب من التهوس كقول
أبي تمام :

أفنى تنظم قول الزور والفند وأنت أذر من لاشيء في العدد
وقوله :

هب من له شيء يريد حجابَه ما بال لا شيء عليه حجاب
وقول ابن نباته :

مازلت أعطف أيامي فتمنجنى نيلا أدق من المعدوم في العدم



الفصل الثامن

مذاهب البلغاء في تشبيه المحسوس بالمعقول

اختلف النقاد من البلغاء في جواز هذا النوع من التشبيه اختلافا يقتضينا أن نفصله فيما يلي :

(١) يقول العسكري : وليس هذا التشبيه بالمختار ، ولو أن بعض الناس يستملحه لأنه أخرج ما يرى بالعيان إلى ما يعرف بالفكر (١) .

وهذا الرأي : هو رأى جمهرة المتأخرين — وعلى رأسهم السكاكي والخطيب والزنجاني والرازي والحموي — فإن تشبيه المحسوس بالمعقول عندهم غير جائز أصلا .

وسر ذلك : أن الحسّ أقرب إلى الإدراك من العقلي ، ومعرفة المحسوس والإلمام بأحواله أيسر من تمثّل المعقولات ، بل إن المعارف الحسية أساس المعارف العقلية غالباً ؛ فالمعقول فرع المحسوس لأنه مستفاد منه ومنته إليه ولهذا يقال : من فاته حس فقد فاته علم .

وما دام الأمر كذلك فإن هذا التشبيه يكون جاريا على غير الأصل المعروف ، وهو أن المشبه به أقوى في وجه الشبه من المشبه ، وتشبيه القوى بالضعيف لا يجوز .

ويجب لذلك أن ينزل المشبه به ، المعقول في هذه التشبيهات الواردة

جميعاً على هذا المنوال منزلة أوضح محسوس مشاهد ادعاء ، حتى يصح تشبيه المحسوس — الذى هو أصل فى الوضوح — به على طريق المبالغة . وإذن فهذا التشبيه يعد فى الحقيقة من باب قلب التشبيه (١) .

(٢) أجازة الرماني (٢) مع استقبحه ؛ لأن التشبيه عنده يأتي على ضربين تشبيه حسن وتشبيه قبيح .

فالحسن : هو الذى يخرج الأغصان إلى الأوضح فيفيد بياناً .

والقبيح : ما كان على خلاف ذلك .

وشرحه : أن ما تقع عليه الحاسة أوضح فى الجملة مما لا تقع عليه الحاسة والمشاهد أوضح من الغائب ؛ فالأول أوضح من الثانى ، والثالث أوضح من الرابع ، وما يدركه الإنسان من نفسه أوضح مما يعرفه من غيره ، والقريب أوضح من البعيد فى الجملة ، وما قد ألف أوضح مما لم يؤلف .

ثم عقب الرماني على ذلك بأن عاب على بعض شعراء عصره قوله :

صدغه ضد خده مثلاً الوعد م إذا ما اعتبرت ضد الوعيد

من قبل أنه شبه الأوضح بالأغصان ، وما تقع عليه الحاسة بما لا تقع عليه .

وكذلك عاب قول بعضهم :

وله غرة كلون وصال فوقها طرة كلون صدود

(٣) أجازة ابن رشيق فقال — يرد على الرماني — :

أما ما شرط فى التشبيه فهو الحق الذى لا يدفع ، إلا أنه قد حمل على الشاعر فيما أخذ عليه ، إذ كان قد قصد الشاعر أن يشبه ما يقوم فى النفس دليله بأكثر مما هو عليه فى الحقيقة ، كأنه أراد المبالغة ، ولعله يقول أو

(١) مواهب الفتاح — ٣ — ٣١٢ — ٣١٣ — خزانة الأدب للحموى — ٢٢٨ — نهاية

(٢) العمدة — ١ — ١٩٥

الإيجاز للرازي — ٥٩ .

(٣) م — فن التشبيه ج — ٢

يقول المحتج له : معرفة النفس بالمعقول أعظم من إدراك الحاسة ، ولا سيما وقد جاء مثل هذا في القرآن الكريم وفي الشعر الفصيح ^(١) .

وكذلك أجازة ابن السبكي أصالة دون أن يعدده من القلب ، ورد على السكاكي والخطيب فيما ذهبا إليه : من أن وجه الشبه التخيلي كله من قلب التشبيه ، فأورد عليهما : يانه إن قيل : إن الخيالي أضعف من الحسي فلا يجعل أصلا ، لزم منع تشبيه الحسي بالخيالي والعقلي ^(٢) .

(٤) ذهب ابن الأثير ^(٣) إلى أنه ألطف الأقسام الأربعة ^(٤) ، لأنه نقل صورة إلى غير صورة .

ويقول العلوي : هو من لطيف التشبيهات وأرقها ، وأدخلها في البلاغة وأدقها ، ووجه البلاغة فيه : هو إلحاق المعاني بالأمور المحسوسة المدركة في الظهور والجلال ، فيصير في الحقيقة كأنه تشبيه محسوس بمحسوس ، وهذا في نهاية المبالغة . ^(٥)

(٥) يرى بعضهم جواز بعض ألوانه ، فالمغربي ^(٦) يقول : إن الإدراك العقلي وإن كان مستندا إلى الإدراك الحسي ، إلا أنه لا يلزم من ذلك أن المحسوس أقوى أبداً في الشبه من المعقول وأشهر به : لأنه إنما يكون كذلك حين يكون الوجه أصله الحسي ، ونحن نجوز أن يكون أصله العقلي ، فيكون العقلي به أشهر وفيه أظهر .

فتشبيه العطر بخلق الكريم مثلاً في استطابة النفس له ، يكون من عكس التشبيه — كما قيل — ، لأن استطابة النفس للمشموم المحسوس أقرب من

(١) العمدة - ١ - ١٩٥ .

(٢) عروس الأفراح - ٣ - ٣٢٧ .

(٣) المثل السائر - ١٥٧ .

(٤) يريد بالأقسام الأربعة : تشبيه صورة بصورة ، ومعنى بمعنى ، وصورة بمعنى ، ومعنى بصورة

(٥) الطراز - ١ - ٣٠٦ (٦) مواهب الفتاح - ٣ - ٣١٣

استطابة العقل للمعقول ، اذ تثبت له الاستطابة من طريق التوهم والقياس على الحسى ، فوجه الشبه هنا أقوى وأظهر فى المشبه الذى هو العطر .

ولكن تشبيه العطر بالخلق فى الشرف والارتفاع والتلذذ الروحانى ، يكون به وجه الشبه أتم وأوضح فى المشبه به وهو الخلق ، فلا يكون هناك حاجة إلى اعتباره من قلب التشبيه .

وزبدة هذا القول عند هؤلاء : أن تشبيه الحسى بالعقل لا يكون دائماً من قلب التشبيه ، وأنه جائز الوقوع بلا استنكار .
وأورد التتوخى رأياً غريباً فى تشبيه المعقول بالمحسوس والمحسوس بالمعقول .

وخلاصته : أنه لا بد من التجوز فيهما جميعاً ، وأنه لا معنى لترجيح أحدهما على الآخر ، فإما أن نجيزهما معاً أو نمنعهما معاً .
وقد نبه ابن السبكي : إلى أن هذا رأى ثالث يقول : بنفى تشبيه المعقول بالمحسوس على سبيل الحقيقة .^(١)

روسى الشياطين .^(٢)

وقد سرى الخلاف بينهم إلى وقوعه فى القرآن الكريم ، فأنكر بعضهم وقوعه فيه محتجاً : بأن الكتاب الكريم جرى على الأصل الأبلغ فى أن الحسى أصل للعقلى .

وقال بعضهم بوقوعه ، وعد منه قوله - تعالى - : « إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلحها كأنه رموس الشياطين » .
وقد سأل إبراهيم الكاتب العريانى أبا عميدة فى مجلس الفضل بن الربيع

(١) عروس الأفراح - ٣ - ٣١٣

(٢) عرضنا لذلك بإيجاز فى فصل « التشبيه عند القدماء » - ٣٤ ج - ١

عن معنى الوعيد في ذلك ، وإنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عرف مثله وهذا لم يعرف .

فقال : إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرئ القيس :
أيقنتني والمشرقي مضاجعي ومسفونة زرق كأنياب أغوال
وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أو عدوا به
فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه السائل (١) .

ويقول الجاحظ : وليس أن الناس رأوا شيطانا قط على صورة ،
ولكن لما كان الله تعالى قد جعل في طباع جميع الأمم استقباح جميع صور
الشياطين واستسماحها وكراهتها ، وأجرى على ألسنة جميعهم ضرب المثل في
ذلك ، رجع بالإيحاش والتنفير وبالإخافة والتفريع إلى ما قد جعله الله
في طباع الأولين والآخرين وعند جميع الأمم على خلاف طبائع
جميع الأمم .

ثم يقول : وهذا التأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين : أن
رموس الشياطين نبات ينبت باليمن (٢) .

ويعود مرة أخرى فيقول : زعم ناس : أن رموس الشياطين ثمر
شجرة تسكون ببلاد اليمن لها منظر كريه .

والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير ، وقد قالوا : ما عني إلا رموس
شياطين معروفة بهذا الاسم من فسقة الجن ومردتهم .

وقد قال أهل الطعن والخلاف : كيف يجوز أن يضرب المثل بشيء لم
نره فنتوهمه ، ولا ووصف لنا صورته في كتاب ناطق أو خبر صادق ،
ونخرج الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة والتفريع منها ، وعلى أنه

(١) نزهة الأنبياء للأخباري - ١٤٣ - وفيات الأعيان - ٢ - ١٣٨ - ١٣٩ - ثمار

القلوب - ٦٨ . (٢) الحيوان - ٤ - ١٣ (ط . السامري)

لو كان شيء أبلغ في الزجر من ذلك لذكره ، فكيف يكون الشياطين كذلك
والناس لا يفزعون إلا من شيء هائل شنيع قد عاينوه أو صوروه لهم
واصف صدوق اللسان بليغ في الوصف ، ونحن لم نعاينها ولا صورها لنا
صادق ؟

ويجب الجاحظ بقوله : وإن كنا نحن لم نر شياطين صور رءوسها لنا
صادق بيده ، ففي إجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان حتى صاروا يضعون
ذلك في مكانين .

أحدهما أن يقولوا : هو أقبح من الشيطان !

والوجه الآخر : أن يسمى الجميل شيطانا على جهة التطير به ، كما تسمى
الفرس السكرية شوها ، والمرأة الجميلة صماء وقرناء وخنساء وجرباء وأشباه
ذلك على جهة التطير به .

وفي إجماع المسلمين والعرب وكل من لقيناه على ضرب المثل بقبح
الشيطان ، دليل على أنه في الحقيقة أقبح من كل قبيح ، والكتاب إنما نزل
على هؤلاء الذين ثبت في طبائعهم غاية التثبث .

.... فما القول في ذلك إلا كالقول في الزبانية وخزنة جهنم ، وصور
الملائكة الذين يتصورون في أقبح الصور إذا حضروا لقبض أرواح
الكفار ، وكذلك في صورة منكر ونكير ؛ يكون للمؤمن على مثال وللكافر
على مثال (١) .

ويقول المبرد : وقد اعترض معترض من الجهلة الملحدين في هذه الآية
فقال : إنما يمثل الغائب بالحاضر ، ورموس الشياطين لم نرها فكيف يقع
التمثيل بها !

وهؤلاء في هذا القول كما قال الله - جل وعز - « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » .

وهذه الآية قد وقع تفسيرها في ضربين :

أحدهما : أن شجراً يقال له « الأسن »^(١) ، منكر الصورة يقال ثمره رموس الشياطين .

وزعم الأصمعي : أن هذا الشجر يسمى : الصَّوم .

والقول الآخر : - وهو الذي يسبق إلى القلب - : أن الله - جل ذكره - صنع صورة الشياطين في قلوب العباد ، وكان ذلك أبلغ من المعاينة ، ثم مثل هذه الشجرة بما تنفر منه كل نفس^(٢) .

ويقول ابن رشيقي : قال قوم : إن شجرة الزقوم - وهي أيضاً الأسن - لها صورة منسكرة وثمره قبيحة يقال لها رموس الشياطين .

وقال قوم : الشياطين : الحيات في غير هذا المكان .

ثم يقول : والأجود الأعراف : أنه شبه بما لا يشك أنه منكر قبيح ، لما جعل الله - عز وجل - في قلوب الإنس من بشاعة صور الجن والشياطين وإن لم يروها عياناً ، فحرفنا الله - تعالى - بما أعد للعقوبة وشبهه بما نخاف أن نراه .

وقد قال امرؤ القيس :

أيقظني والمشرقي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال
فشبه نصال النبل بأنياب الأغوال لما في النفس منها .

(١) عن أبي حنيفة الدينوري : الأسن وزن أفعل : شجر يفشوق منابته ويكثر ، إذا

قطر إليه الناظر من بعيد شبهه بشخوص الناس . رغبة الآمل للمرصفي - ٦ - ٢٣٩ .

(٢) الكامل « شرح المرصفي » - ٦ - ٢٣٨ - ٢٣٩ .

وعلى هذا التأويل قال أبو تمام — وفيه عكس التشبيه — :
وأحسن من نور يفتقه الندى بياض العطايا في سواد المطالب
وقال أعرابي قديم :

يزملون حديث الضغن بينهم والضغن أسود أو في وجهه كلف
فوصفه بما يتصور ويقوم في النفس ، كأنه يقول : لو كان صورة
لكان هكذا .

وقال بعض المولدين :

وتدير عيناً في صحيفة فضة كسواد يأس في بياض رجاء
فاليأس على الحقيقة غير أسود ، لأنه لا يدرك بالعيان ، لكن صورته
في المعقول وتمثله كذلك مجازاً ، والرجاء أيضاً على هذا التقدير في البياض ^(١) .
ويقول ابن قتيبة الدينوري : والعرب تسمى الحية شيطاناً .
ويقال : منه قول الله — عز وجل — : « طلعها كأنه رؤوس الشياطين » ^(٢) ،
وصفوة القول : أن في الآية ثلاثة أقوال :

١ — أن الشياطين : هم متمردة الجن القباح الصور والمناظر كما وقر في
أذهان الناس .

٢ — أن الشياطين هم الحيات على جاری تسمية العرب .

٣ — أن الشياطين : شجر مخصوص منكر الصورة .

وعلى القولين الآخرين لا يكون التشبيه في الآية الكريمة مما نحن فيه
من تشبيه المعقول بالمحسوس ، وعلى القول الأول يكون منه .

وبأدنى تأمل يظهر رجحان قول من ذهب إلى أن الشياطين هم المعروفون
في أخيلتنا وتصوراتنا .

وقد كانت العرب تتمثلهم كما تتمثلهم اليوم على غاية الشناعة والبشاعة ،
كما كانت تصف الملائكة بالحسن والجمال ، ولهذا زعموا : أنهم بنات الله —
تعالى عن ذلك علواً كبيراً !

وقد قال أبو النجم العجلي في بنته ظلامه :

كأن ظلامه أخت شيان يقيمة ووالداها حيان
العنق منها عطل والأذنان وليس في الرجل إلا خيطان
وقصة قد شيطتها النيران فهي التي يذعر منها الشيطان
أو تلك التي يضحك منها الشيطان !

أفلا تراه قال ذلك وإن لم يره ، لما قرر في القلوب من نكاريته وشناعته
وقال آخر في البقل :

وفي البقل إن لم يدفع الله شره شياطين يعدو بعضهن على بعض
وقال الراجز :

أبصرتها تلتهم الثعبانا شيطانة تزوجت شيطانا
ويذكر الثعالبي : أن صاحب بن عباد كان يستملح قول أبي علي البصير
في أبي هفان ويستظرفه ، وكثيراً ما كان ينشده ويردده وهو :

لى صديق فى خلقه الشيطان وعقول النساء والصبيان
من تظنونه فقالوا جميعاً ليس هذا إلا أبا هفان

أمثلة طريفة لتسميه المعقول بالمحموس .

قال مسلم بن الوليد :

أذكرى من المسك أنفاساً وبهجتها أرق دياجة من رقة النفس
كان قلبى وشاحاها إذا خطرت وقلبها قلبها فى الصمت والخرس (١)

تجّرى محبتها في قلب عاشقها جرى السلامة في أعضائه منتكس
وقال أبو نواس - وبعُدونه غاية الغايات في هذا الباب - :

معتقة صاغ المزاج لرأسها أكاليل در ما لمنظومها سلكُ
جرت حركات الدهر فوق سكونها فذابت كذوب التبر أخلصه السبك
وأدرك منها إلا خرون بقية من الروح في جسم أضرب به النهك
وقد خفيت من لطفها فكأنها بقايا يقين كاد يذهبه الشك
وقال :

وندىمان سقيت الراح صرفا وأفق الليل مرتفع السجوف
صفت وصفت زجاجتها عليها كعنى دق في ذهن لطيف
وقال :

فتمشت في مفاصلهم كتمشى البرء في السقم
وقال أبو تمام :

ومسافة كمسافة الحجر ارتقى في صدر باقى الحب والبرحاء
وقال البحرى :

مشيب كنت السر أعيا بحمله محدثه أو ضاق صدر مديعه
وقال ابن الرومى :

عشقنا قفا عمرو وإن كان وجهه يذكرنا قبح الخيانة والغدر
فتى وجهه كالهجر لا وصل بعده وأما قفاه فهو وصل بلا هجر
وقال ابن الزيات أو مائى الموسوس :

رب ليل أمد من نفس العا شق طولا قطعته بانتحاب
وحدث ألد من نظر الرا مق بدله بسوء العتاب

ووصال أقل من لمحة البيا رق عوضت عنه طول اجتناب^(١)
وقال السرى الرفاء في الشمعة :

مفتولة مجدولة
كانها عمر الفتى تحكى لنا قدَّ الأسَل^(٢)
والنار فيها كالآجل

وقال أبو هلال العسكري :

وليلة كرجائي في بني زمني مسودة الوجه منسوباً إلى الفحم
وقال صاحب بن عباد في القاضي أبي الحسن مع هدية عطر بعث بها إليه :
يأبها القاضي الذي نفسى له في قرب عهد لقائه مشتاقه
أهديت عطراً مثل طيب ثنائه فكأنما أهدى له أخلاقه
وقال ابن حيدر :

مرجياً بالتى بها قُتل هم م وعاشت مكارم الأخلاق
هى فى رقة الصباية والشو ق وفى قسوة النوى والفراق
لست أدري أمن خدود الغواني سبكوها أم أدمع العشاق
وقال العلوى الأصفهاني :

كان انتضاء البدر من تحت غيمه نجاةً من البأساء بعد وقوع
وقال عبد الله بن حجاج :

وقينة تنعيمها فى الغنا أملح من قهقهة القمرى^(٣)
غناؤها الممدود بي فاعل فعل الغنى المقصور بالعسر

وقال القاضي التنوخى :

أما ترى البرد قد وافت عساكره وعسكر الحركيف انساب منطلقا

(١) لهذه الأبيات قصة أقرأها في زهر الآداب — ٣ — ١٦٤

(٢) الأسَل : الرماح .

(٣) لم ترو قهقهة القمرى في غير هذا الشعر .

فانهض بنار إلى فحم كأنهما
جاءت ونحن كقلب الصب حين سلا
وقال يصف الشمس يوم غيم :

ويوم كأن الشمس من تحت غيمه
إذا طلعت من فرجة فيه خلتها
وقد مد سترأ فوقها فكأنها
وقال أمين الدولة التنوخي :

أتانا بكانون يشبُّ ضرامه
كأن احمرار النار من تحت فحمة

وقال الشهاب محمود في بعض الحصون :

كأنه وكان الجو يكنفه
وهم تكنفه في طيه الفكر

وقال ابن الزقاق :

وكم طرقت قباب الخي مرتدياً
والليل يسترني غريب سدفته

وقال :

زارت على شط المزار متياً
والطيف يخفي في الظلام كما اختفى
وقال العماد الأصمباني :

أجدك أن قد جاد وقت التعبس
وعاطيته صهباء من فيه مزجها
غزال بوصل لي وأصبح مؤنسى
كرقة شعري أو كبدين ابن يونس

ويونس هذا : هو كمال الدين الشافعي ، وكان يتهم بغلبة العلوم العقلية عليه ^(١) .
وقال الوراق التيمي :

أورد قلبي الردا لام عذار بدا
أسود كالغى في أبيض مثل الهدى

وقال شاعر :

يسقيك من كفه فدا ما ألد من غفلة الرقيب
كانها إذا صفت ورقته شكوى حب إلى حبيب

وقال آخر :

اسقني إن يومنا يوم «رام» ولام فضل على الأيام
من شراب ألد من نظر المعشوق م في وجه عاشق بابتسام
ورام : هو يوم الحادى والعشرين من كل شهر فارسى ، وهو يوم يلذون
فيه ويفرحون .

وكذلك « بهرام » وهو يوم العشرين .

وقال آخر :

سألت الندى والجود ما لى أراكما تبدلتما ذلا بعز مؤبد
وما بال ركن المجد أمسى مهدما فقلا أصبنا بابن يحيى محمد
فقلت فهلا مثما عند موته فقد كنتما عبديه فى كل مشهد
فقلا أقنما كى نغزى بفقده مسافة يوم ثم نتلوه فى غد

وقال آخر :

اسقني خمرة كركة دينى أو كعقلى ولا أقول كحالى
خيفة من توهم الناس أنى قلت هذا فى موطن لسؤال

وقال آخر :

نبئت أن فتاة كنت أخطبها عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول
وقال آخر :

فصرت أذل من معنى دقيق به فقر إلى مبنى جليل
وبما سارت به الأمثال قول القاضي التنوخي — وهو ممن يسلك هذه
الطريقة كثيراً — :

وكان النجوم بين سناها سنن لاج بينهن ابتداع
فإنه لما شاع وصف السنة بالبياض والإشراق ، كقوله — عليه الصلاة
والسلام — : « أتيتكم بالحنيفية البيضاء ليلاً كنهارها » ، واشتهرت البدعة وكل
ما ليس بحق بالظلمة والسواد كقولهم : ليل الشرك ، أقام هذا الشاعر السنن
مقام الأجناس التي لها إشراق وبياض ، والبدع مقام أجناس السواد والظلمة
فصار ذلك عنده كشبه محسوس بمحسوس ، فجاز له التشبيه على هذا التقدير
كقول أبي طالب الرقي :

ولقد ذكرتك والظلام كأنه يوم النوى وفؤاد من لم يعشق
فإنه لما كانت الأوقات التي تحدث فيها المكاره توصف بالسواد ، كقول من
يناله مكروه : اسودت الدنيا في عيني ، جعل هذا الشاعر يوم النوى أشهر
بالسواد من الظلام فشبهه وعرفه به ، ثم عطف عليه بفؤاد من لم يعشق ،
والقلب القاسي يوصف بشدة السواد ، فصار هذا القلب عنده أصلاً في
في السواد على هذا التقدير .

ومثل فؤاد الخلى من العشق وجه الناصبي^(١) .

والشيعة تصف وجه الناصبي بالسواد ، ويشبه به كل شديد السواد كما قال
الناشي الأصغر :

(١) الناصبي : الذي يدين ببيعة علي — كرم الله وجهه — !

يا خليلي وصاحبي من لؤي بن غالب

حکم الحب جائز موجب غير واجب

يلدغ الناس إذ تعقرب م لدغ العقارب

ومثله قول شاعر :

لك صدغ كأنه قلب فرعو ن ووجه كأنه يد موسى

وفهم قد أتى ببرهان عيسى فهو بالطيب منه يحيي النفوسا

وقال المطرزي : يجعل البياض مثلاً للصالح ، والسواد مثلاً للفساد والخيبة

كقول البستي :

حكمت معانيه في أثناء أسطره أثارك البيض في أحوالي السواد

وقال :

ليس الكواكب في الظلماء أحسن من نعمائك البيض في آمال السواد

ولعله مأخوذ من قول أبي تمام :

وأحسن من نور تفتقه الصبا بياض العطايا في سواد المطالب

ومما يتصل بذلك قول الشاعر :

أسفر ضوء الصبح عن وجهه فقام خال الخد فيه بلال

كأنما الخال على خده ساعة هجر في ليالي الوصال

فجعل ليالي الوصل بيضا وساعة الهجر سوداء .

وقد نظر إليه المعتمد بن عباد الأندلسي في قوله (١) :

أكثرت هجرك غير أنك ربما عطفتك أحيانا على أمور

فكأنما زمن التهاجر بيننا ليل وساعات الوصال بدور

ومما يتفق مع قول الشاعر الأول قول الأسعد بن بليطة (٢) :

تتنفس الصبهاء في لهواته كستففس الرياحان في الآصال
وكأنما الخيلان في وجناته ساعات هجر في زمان وصال
وقول شاعر :

مليح كالغزال وكالغزاله رأيت به هلالا في غلاله
كان يياض غرته رشاد كان سواد طرته ضلاله
كان الله صيره نبيا وصير حسنه أقوى دلاله
إذا ما ازددت وصلازدت خبلا كان حبال وصلك لى حباله

ومما جاء في شعر العصريين قول البارودي :

وصاحب كهوم النفس معترض ما بين ترقوة منى وأحشاء
وقول حافظ في وصف القطار :

مر كاللمح لم تسكد تقف العين م على ظل جرمه المترامى
أو كشرخ الشباب لم يدر كاسيه م تولى في يقطعة أم منام
وقول الدكتور زكى مبارك :

وجنَّ على الليل حتى حسبته جفاء كريم أو رجاء لثيم

ومن النثر المترجم عن لغة الغرب :

إن القاطرة التي تجرى اليوم على السكة الحديدية جبارة كالإرادة الإنسانية،
جسورة خفيفة كالآمل (١).

ومن قصيدة للشاعر الروسي «لرمنتوف» عنوانها : ليلة شاعر عربي :
ما أحوجنى إلى مياه مطهرة وزنا بق بيضاء كأطياف ملائكة أبرار .
وهذه هي الخمر ، الخمر المبدعة تهرق أماهى كالآمل ، وتسطع كالعزاء ،
وتضحك كالنسيان (٢) . . .

وهذا اللون من التشبيه دليل التأمل والنظر في الحالات النفسية المختلفة التي تظهر آثارها على الملاح ، كما أنه دليل على شدة تتبع الشاعر لهذه الحالات ، حتى أصبحت من الواضوح بحيث تشبه بها أوضح المظاهر الطبيعية وأشدها بريقا ولمعانا .

وإذا اتصل هذا بالتفكير الفلسفي القائم على التأمل في النفس ومعرفة أحوالها ، فإنه يتصل كذلك بالصفة العظيمة التي تؤدي إلى التفنن في طرق الأداء (١) .

ورأي أن هذا النوع من التشبيه عنوان الترف العقلي ، ودليل الثروة الفكرية والقدرة على اقتناص المعاني من أغوارها السحيقة ، وجوب آفاق الأخيلة الرحبة بجناح قوى الخفق .

وهو لا يسلس إلا لإنسان لماح الذكاء شفاف العقل ، عميق الملاحظة ، عامر الواعية الباطنية بالمعاني المختلفة ، والنظائر والأشباه الكثيرة .
والنوع الجيد منه المتلائم الطرفين لا يعيا ذهن بفهمه ، ولا يشعر بغرابته ، بل يلذه ويستروح إليه ، ويحس له نداوة وحلاوة لما تضمنه من طرافة وملاحة .

الفصل التاسع

التشبيه الرمزي

هذا موضوع له صلة وثيقة بالفصل السابق لأن في كليهما تجريداً وتصفية وإرهاقا وإطفا ونفوذاً إلى ما وراء الحواس الظاهرة ، واستلهاً القوى الباطنية ، واستشفاف الأشياء غير المنظورة وإن كانت الرمزية أكثر تغلغلا في الخيال ، وتدسسا في الوهم ، وتدليا في أعماق الفناء .

ومها يكن فهذا اللون بدع من الشعر العربي دخيل عليه ، ولهذا لا تستسيغه الأذواق العربية الخالصة إلا في أحوال يسودها الاعتدال والاتزان ، فتظل الألفاظ بمسكة بزمام المعاني مسيطرة عليها ولو بقدر محدود .

إن الرمزية المقبولة هي التي يكون لها سند من الفهم الإنساني العام ، ومن الإدراك الصادق بالبصيرة الصافية ، ومن تعاون العقل الباطن والعقل الواعي ، أو من المثالية وما يكمن وراء المادة من قوانين طبيعية ، وبذلك تكون مظهرآ من مظاهر الفن ووسيلة للتعبير عما تعجز عنه اللغة المتعارفة ، ومنفذآ للخروج من الجوف الفكري المألوف ، أو الميدان الحسي الرتيب الذي تواضع عليه الناس ، والتحرر من القيود التي تغل التفكير وتقف به عند حدود النظرات المباشرة للأشياء من زاوية واحدة دائما (١) .

ونحن لا نتسكّر أن بعض الشعاريات المطبوعة الملهمة تستطيع أن تنفذنا بمعان إضافية غير المعاني الوضعية المستفادة من الألفاظ ، ولكننا لا نقر مسح الألفاظ وتعطيل وظيفتها جملة ومواجهتنا بالمعاني عارية من صورها الطبيعية

وأكسبتها التي تبرج فيها وتطل علينا من نوافذها ، ففهم على وجوهنا ضالين في أودية مجهولة وفياف مهمة لاتحدها صُورى ولا معالم ، ولا تسلم سالكها إلى نهاية أمينة .

إننا كما يقول أرسطو : في حاجة لاستعارة صور من عالم المرئيات ، لنستعين بها على التعبير الخفي^(١) .

غير أن هذه الصور المستعارة لابد أن يشيع فيها الانسجام ، ويؤلف شملها التناسب ، وتواخي بينها لحة القرابة أو صلة المودة ، وعلى قدر منزلتها من ذلك يكون حظها من الوضوح أو الغموض .

خذ مثلاً قول « بودلير » من قصيدة عنوانها « الجمال » :

أنا جميلة أيها الفانون حكم من حجر !

فهذا التشبيه غريب المعنى ، لأن الحلم لا يكون من حجر .

والواضح : أنه قصد الجمال الذي لا يبكي ولا يتألم ولا يضحك أو يفرح دائماً ، وإنما هو صامت عميق الصمت^(٢) .

ومثله قوله : تنبخر كل زهرة كالجمرة ، ويهتز السكان كفواد معني ،

وفلس حزين ، وبحران كئيب ، والسما والجملة كمنج رحيب !

ويقول « ملارمة » من قصيدة حوار :

وتذهل عيناتها في انتظار المجهول ، وتأمل أحلام صباها متناثرة كأنها

جواهر باردة !

ولاربية أن هذه التشبيهات مبهمه تكلها هالة من الضباب وعدم الوضوح

الذي يحولها إلى رموز^(٣) .

ومن يقرأ مثل هذه التشبيهات لابد أن تطول وقفته عليها ليصل إلى فهم

(١) خواطر الخيال المرحوم كامل حجاج - ٢٨ .

(٢) الرمزية والأدب العربي الحديث للأستاذ أنطون غطاس - ٨٧ - ٨٨

(٣) الرمزية والأدب العربي الحديث - ١٠ - ٤٥ - ٤٦ - ٥٨

ما يراد منها ، ولكنه سيعود بعد طول الشوط والاستنجد بمقوله
ومنقوله بالخبيثة المؤلمة لأن المعنى فى بطن الشاعر كما يقولون !
فهذه المعانى لاتفهم فهما جليا ولهذا يعسر التعبير عنها ، لأنها لاتجربى فى
فنهج الألفاظ القويم المأثور ولا تقاس بمقاييس التعبير المألوف ، ولكنها
تذاق بالحس الباطنى وحده ، أو تذاق كما يذاق اللبن والماء وما طعم اللبن
والماء ؟

وقد تستطيع أن تقول : إن شأننا مع بعضها المستحسن ، كشأن أى تمام
مع هذه المغنية الفارسية التى يقول فيها :

ولم أفهم معانيها ولكن شجيت كبدى فأعجبني شجاها

ولاشك أن ما مثلنا به يعد من الضرب المعتدل ، ولهذا يمكن أن نسيغ
بعضه ، فنشبيه الزهرة تتبخر بالمحمرة ، واهتزاز الكمان بالفؤاد المعنى
لايكدها تصوره لاتزاعه من عالم الحس الذى قرب فهمه منا ، ولكن تشبيه
المرأة الجميلة بحلم من الحجر لاتجد له تأويلا مقنعا وإن جهدت فى الاحتيال له .
وليس ذلك بعجيب فالأمر كما يقول « ملارمة » ، إننى ابتدع لغة منها
ينبثق شعر جديد ، شعر لا يدور على وصف الشئ بل على تأثيره ، لا يتكون
البيت الشعرى فيه من ألفاظ ذات معنى ، بل من ألفاظ ذات نوايا ، بحيث
تغيب قيم الألفاظ المعنوية أمام شعورنا . (١)

ويقول : إن البرناسيين (٢) يتناولون الشئ كله فيفقدون بذلك سحر
الخفاء ، ويسلبون الذهن نشوة الطرب التى ينشئها فيه اعتقاده بأنه يخلق .
إن الشاعر إذا سعى الشئ باسمه فقد أفقد القصيدة ثلاثة أرباع المتعة ،
وما هذه المتعة إلا أثر السعادة التى يشعر بها القارىء ، وهو يضرب رويدا
رويدا فى أودية الحس ، وذلك هو الحلم .

(١) المصدر السابق - ٥٧

(٢) البرناسية : طريقة تبغض الشعر العاطفى وتؤثر جانب الصنعة على جانب الطبيعة .

قالشعر الرمزي ينكر الواضح ، وينفر من المحدود ، ويطلب المتخيل ، ويبحث عن المشتبه ، ويحملك على أن تحمل لاعلى أن تفكر فالألفاظ عندهم لم تعد تدل على الأفكار أو الصور التي وضعت لها ، وإنما تدل كما تدل الرموز على مناسبات بعيدة ومشابهات مبهمه^(١) .

ولكن أصحاب الطريقة الرمزية يرون أنهم معذرون فهم يقولون : إننا لا نعرف الشعور والفكرة إلا بطريقتين : دراسة تعبيرها الفسيولوجي ، ومعرفة الوجدان .

ولكن الفسيولوجي ما هو إلا نتيجة الانفعال ، وليس بالانفعال نفسه ، ومعرفة الوجدان عمل بسيط لا يستطيع تمثيله أو تقليده .

وإذن ما هي الفكرة والشعور باعتبارهما الذاتى ؟

إننا لانستطيع أن نعبّر عن حقيقتهما ، كل بيان لها نراه مناقضا للآخر ، لأنها أشياء غير مادية ، ويأتى التصور لإغائتنا بهذا بأن يجعلنا نسند إلى العواطف والفكر أشكال الأشياء المادية .

وهذا الإسناد الإلهامى يحدث فى الكلام الاعتيادى عدة صيغ تضطرد فى الازدياد والتكاثر لدرجة لانهايه لها فى الكلام الفنى .

وربما استغرب القارىء أو استهجن الأوصاف التى يسندها علماء البسيكولوجيا إلى الفكرة ، ولكن الغاية تبرر الواسطة ، وما هى إلا وسائل يستعان بها على فهم الفكرة ، فتراهم يعيرون الفكرة وزنا ، فيقولون : فكرة ثقيلة وخفيفة .

ويعيرونها لونا ، فيقولون : فكرة قائمة وسوداء وصافية ، ويعيرونها أبعادا فيقولون . فكرة عريضة وضيقة ومرتفعة وعميقة وسميكة ، ويعيرونها خاصية المتانة ، فيقولون : فكرة متينة ، وينسبون إليها مذاقا ، فيقولون :

فكرة حلوة ومرة وتافهة ، ويعبرون الشعور حرارة ، فيقولون : قلب بارد وحار .

وهذا منبع الإنشاء الشعري ، ولولاه لاقتصر الشعراء على تبيان أسباب العواطف ونتائجها وأحجموا عن تصور العواطف نفسها .

وإن تعدد الرموز المستعملة في تمثيل الحب تكاد تضحكنا ، إذ تظهر عجز الكتاب عن تعيين شيء غير مادي ، مثل قول « تينو فيل جوتتية » عن المراهقين : إن نفوسهم كلون اللبن !

وحينما يجد الشاعر نفسه غير قادر على إظهار النفس ، يضطر لأن يبحث عن طرق غير رأسية ، وتشبيهات ليكشف عنها الحجب ، فالصور سر الكلام وروحه (١) .

أو كما يقول - تشارلتن - :

قد يريد الشاعر أحيانا أن يقول ما يستحيل قوله في ألفاظ ، فثم ضروب من الخيال الجاح تحطم حدود الألفاظ ثم تلوذ بالفرار لأن طبيعتها تأتي عليها السكينة والقرار .

وهناك من الشعراء من يشطحون بخيالهم إلى تلك الضروب الشמוש الشرود فلا يرون من الحياة إلا جوانبها الغوامض الدقاق دون ألوانها المحددة الواضحة ، وهم من يطلق عليهم في الآداب الأوربية : اسم الشعراء الابتداعيين تميزا لهم عن فريق الاتباعيين الذين يدعون بخيالهم وتفكيرهم للقيود والحدود .

فهؤلاء الشعراء الابتداعيون يريدون أن يعبروا عن تجارب مرت بهم وخواطر طافت بأذهانهم مما يستعصى على التعبير لأنهم إن ساقوها في أدوات التعبير المألوفة باتت كالتجارب والخواطر المألوفة وهي ليست كذلك .

وبديهي أنك لو جسمت الظل لم يعد ظلا ، لهذا نرى هؤلاء الشعراء ينتقون للتعبير عما في نفوسهم ألفاظا توحى بالمعاني ولا تحددها ، وذلك باستخدام كلمات لم يكثر دورانها على الألسنة ولم تألفها الأسماع ، فتكون غرابتها وندرتها سببا في إبهامها وعدم تحديدها ، لأنها عندئذ تكون كالوعاء المليء بمادة مجهولة لا تدرى على وجه التحديد والدقة على أى شيء يحوى . وفي مثل هذه الحالات يكون للإبهام قوة أكثر مما للوضوح ^(١) . ومن عاداتهم ألا يتقيدوا بهذه القواعد الجافة التي تضغط مشاعرهم ، وتكبل حياتهم ، وتعوقهم عن التوثب والانطلاق .

ولهذا نراهم قد أهملوا حروف التشبيه التي تجمع بين المشبه والمشبه به ولا ريب في أن بقاء عضوى التشبيه أو الاستعارة أو الكناية بلا رابط يربط بينهما يستفز الصور المتقاربة في الضمير ويشيرها جميعا ، غير أن الإسراف والغلو في هذا الباب يجعل من الألفاظ مجرد إشارات تعجز عن توليد الجو النفسى فى القارىء فتفقد الألفاظ غرضها ورسالتها .

وهم إلى ذلك يحسون علاقات وثيقة بين الألوان والأصوات والعمور وأن هذه الأشياء تعبر عن الفكر ولل فكر علاقة أكيدة بها ، لأن الله - سبحانه - عندما خلق الكون أبدعه كوحدة كاملة لا تتجزأ .

فالحواس إذا يتحول بعضها إلى بعض من حيث المعقول الذى تنقله إلى النفس ، والاختلاف البين بين مظاهر المادة ، إنما هو اختلاف فى العرض ، أما الجواهر فواحدة .

و « لرمبو » قصيدة تسمى : « قصيدة الحروف » الصوتية فيها نظرية السمع الملون ، وهو باب من أبواب نظرية « العلاقات » . وقد خلع رمبرو على الحروف فيها شخصية ذاتية تنطبق عليه وحده :

فالحرف A يوحى اللون الأسود فى بريق أجنحة الذباب تتمليل أسرابا حول الأقدار النتنه فى خليج عميق الظل .

E و يوحى طهارة الدخان وثلوج الذرا والمملوك البيض .

و I يوحى الدم الأحمر ، وضحكة الشفاه الجميلة فى غضبتها وسكرتها .

و U يوحى هزة البحار ، وهـدوء مراعى انتشرت فيها القطعان ، وأخاديد الجبين .

و O يوحى دقة التصوير الصارخ ، كما يوحى سكون العوالم والملائكة ، ولون البنفسج فى عيني حبيبه .

فالحروف قد حملت هذه الألوان عرضا واتفاقا .

وجاء بعده من رأى غير ذلك فألبسها ألوانا تختلف عن التى وشامها بها رمبو (١) .

واللون الأحمر إجمالا فى شعر «رمبو» ، رمز إلى الحركة والحياة الصاخبة ، والدم والمبدأ وشهوة الحب والنشوة العارضة ، وقد يرمز إلى القتال والثورة والغضب والأعاصير .

واللون الأخضر يمثـل السكون والطبيعة والبحر بما فيه من سعة الانطلاق . ويمتـزج الأخضر بفكرة المستحيل الذى لا يبلغه الإنسان : من فردوس الطفولة والطهر والانعقاد والخلـاص .

وقد يستخدم عنده الأخضر للوصف غير المألوف فيخلع على عازفى البيانو صفة الأخضرار .

وقد حظى اللون الأزرق عنده حظوة واسعة ، وفيه يرمز إلى العالم الذى لا يعرف حدوداً ولا تخوماً، وفيه انطلاق إلى ما وراء المادة الكونية .

وهو غشاوة السكون التي تكشف عوالم الملائكة ، والألحان الموسيقية التي تبلغ الأعماق .

واللون البنفسجي لون الرؤى الصوفية .

وفي الأصفر والذهبي لون المرض والانقباض ، وقد يرتبط الأصفر بشعور الحزن والتبرم من الحياة ، والتحضر نحو عالم أظلم وأمثل .

ويترك اللون الأبيض في نفس « رمبو ، جوا من الطهر المثالي الذي لا يبلغه الإنسان في رجسه وذنسه ، وفي البياض هدأة وسكينة ولون من الفراغ والجمود .

والحق أن الشعراء منذ القدم كانوا يرون في الألوان خصائص تتقارب من الاعتبارات الرمزية المذكورة ، إلا أن الرمزيين أسرفوا ، وجعلوا من الاتجاه نظريات مستقلة بذاتها .

وفيما سبق ورد شيء من هذا كتشبيه السنة والوصال والرجاء والعطايا والهدى بالبياض ، والبدعة والصدود واليأس والمطالب والغنى بالسواد إلخ . وفي انعكاس المؤثرات على النفس واختلاط الحواس في التعبير عنها نجد لمحات في الشعر العربي وإن لم تبلغ في ذلك مبلغ الرمزيات الخالصة . فالمتنبى يقول في مدح كافور :

كأن كل سؤال في مسامعه قيص يوسف في أجفان يعقوب
يعني أنه يفرح بسؤال السامع فرح يعقوب برؤية قيص يوسف .
فجعل ما يسمع كأنه بما يبصر .

وقوله في أبي بكر الطائي — وقد نام وقت إنشاده — :

إن القوافي لم تُتمك وإنما محققتك حتى صرت ما لا يوجد
فكأن أذنك فوك حين سمعتها وكأنها بما سكرت المرقد

فجعل الأذن تذوق وجعل القصيدة مما يشرب .

ويقول من قصيدة في مدح سيف الدولة :

في جحفل ستر العيون غباره فكأنما يُبصرن بالآذان
فجعل الأذن تبصر .

ويقول في مدح عضد الدولة :

تنشد أثوابنا مدائحها بالسن ما هن أفواه
إذا مررنا على الأصم بها أغنته عن مسمعيه عيناه
فجعل العين تسمع .

ويقول في مدح ابن العميد :

فدعاك حسدك الرئيس وأمسكوا ودعاك خالكك الرئيس الأكبرا
خلفت صفاتك في العيون كلامه كالخط يملأ مسمعي من أبصرا
فجعل العين تسمع .

والمعنى أن ما يراه الناس فيك من الصفات الشريفة التي خصك الله بها ،
تؤذن بأنه قد فضلك على الرؤساء ، وجعلك الأكبر بينهم وإن لم ينطق بذلك
لفظا ، فكانت هذه الصفات الظاهرة فيك كالخلف لكلامه يفهم منها
ما يفهم منه .

ثم مثلها بالخط ، فإن معناه إنما يتناول بالبصر فيستفيد منه القلب
ما يستفيده بسمع الآذان ، فكأنه لفظ مسموع .
هذا قول اليازجي في تفسير البيت (١) .

والمعنى المراد في رأيي : أن هذه الصفات النبيلة التي منحه الله إياها قامت
بدلالة الحال مقام الكلام الإلهي بتفضيله على غيره من الناس .

وكلام الله - تعالى - لا يسمع بجراحة الأذن كما تسمع الأصوات
الحادثة، بل يسمع بلا كيفية ولا واسطة دليل عليه من حروف ولا غيرها^(١).
كما في تكليمه لموسى - عليه السلام - .

وكذلك هذه الصفات - وقد خلفت كلام الخالق في ادعاء الشاعر -
لا تدرك بالبصر ، ولكن بالجنس الباطني الروحاني ، والإدراك على هذه
الصفة يتسامى فوق الجوارح الظاهرة جميعاً ، ويلغىها إلغاء تاماً ، فيسمع
الإنسان ويصير ويذوق وما إلى ذلك بجميع كيانه ، وعلى هذا فليس غريباً
أن يشبه هذه الصفات بالخط الذي يملأ مسمعى من أبصر ، لأن العين يصح
أن تسمع في هذه الحال .

ولتقريب ذلك نضرب مثلاً بما يقع في الأحلام ؛ فقد يرى الإنسان
في نومه أشياء لا جد لها ، ويسمع ألواناً من الأصوات ، وأفانين من
القول ، دون أن يكون للعين والأذن دخل في ذلك ، فإنهما معطلتان
بلا ريب .

وفي مثل ذلك يقول البحترى :

تأوّهت من وجد تعرض يطمع	بنفسى خيالاً من أثيلة كلبا
وتسمع أذنى رجع ما ليس تسمع	ترى مقلتي ما لا ترى من لقائه
	ويقول تميم بن المعز :

عند العذول فيغدو وهو يعذرني	ترى عذارية قد أقاما بمعذرتي
عقد آ من الحسن أو نوعاً من الفتن	ريم كأن له في كل جراحة
فليس تحويه إلا أعين الفطن	كأن جوهره من لفظه عرض
إذا تأملته أبدى من العفن	أخفى من السر لكن حسن صورته

(١) تفسير النسفي - ١ - ٥٧٢ ط . المعارف . الانتصاف على تفسير الكشاف

لابن الزبير - ١ - ٣٤٦ .

والشاهد في البيت الثالث وهو الرؤية بعين الفطنة .

وكقول العقاد يصف الكروان :

كم صيحة لك في الظلام كأنها دقات صدر للدُّجْنَة عانى

خفاقة النغبات تطفر في الدجى فوق النسائم طفرة النشوان

إني لأسمع منك إذ ناديتني معنى يقصر عنه كل بيان

والشاهد في البيت الرابع حيث جعل المعنى يسمع .

ويقول صرّدر :

وإذا الطيوف إلى المضاجع أرسلت بتحية منه فعينى تسمع

فجعل العين أذنا تسمع .

ويقول :

مستنشق عطر الشاء بسمعه ما كل طيبة تشم بمنخر

فجعل الأذن أنفا تشم .

وتقول زوجة قتادة بن مغرب الشكرى تهجوه بالبحر :

فما جيفة الخنزير عند مغرب قنادة إلا ريح مسك وغالية

فكيف اضطبارى يا قتادة بعدما شمت الذى من فيك أثنى صماخيه

أثنى : أفسد . والمعنى : أنها تخاطب زوجها بأنها لا تستطيع الصبر

على معاشرته بعد ما شمت من خبث نكهته ما أثر في أذنها فكيف حال أنفها !

فجعلت الأذن تشم كالأنف كذلك .

ويقول ابن رشيق .

فشربتها من راحتيه م كأنها من وجنتيه

وكانها في فعلها تحكى الذى في ناظريه

وأجازه أبو حديدة الشاعر فقال :

وشمت وردة خده نظرا وزرجس مقلتيه

فقال له ابن رشيق :

أحسننت في شتمك بالنظر كما سمع أبو الطيب بالبصر حيث يقول :

كالخط يملأ مسمعى من أبصرا^(١)

وقال الدكتور طه حسين باشا من مقالة يرثي بها الأستاذ عبد الرحيم محمود^(٢).... فإن أراد الصمت فابتسامة طويلة ترتسم على ثغره ، ويشيع نورها فيما يتحدث به إليك من الألفاظ ، وحتى في هذه الحال كنت أفهم من هذا النور الذى تحسه الأذن ، وقد لا تراه العين معنى ابتسامه وما أكثر ما كان لا ابتسامه من المعانى .

فجعل الأذن تبصر .

ومما جاء من ذلك فى القرآن الكريم قوله - تعالى - : ولنديقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ،

جعل ما يرى مما يذاق ، لأن حس الذائق - كما يقول العسكري - لإدراك ما يذوقه قوى وللذوق فضل على غيره من الحواس ، ألا ترى أن الإنسان إذا رأى شيئا ولم يعرفه شمه ، فإن عرفه وإلا ذاقه ، لما يعلم من أن للذوق فضلا فى تبين الأشياء .^(٣)

وصور البيان الرمزي فى جملته يكثر فى شعر الغربيين ، وشعر المعاصرين من العرب الذين يتابعونهم فى مناهج تفكيرهم وأخيلتهم ، وبخاصة إخواننا شعراء المهجر الذين يقيمون بالدنيا الجديدة .

وشعراء لبنان أكثر البلاد العربية إيغالا فى هذا النوع لتأثرهم بالثقافة الفرنسية أكثر من غيرهم .

وفى مصر لا يظهر أثره واضحا فى الشعر ، لأن الشعراء الكبار الذين

(١) بدائع البداة لابن ظافر الازدى - ١ - ١١٤ .

(٢) الاهرام - ١١ - ٨ - ١٩٥١ (٣) الصناعتين - ٢٦٥

لحقوا بالرفيق الأعلى أمثال شوقي وحافظ ومطران وغيرهم لم يتركوا للخلف رسوماً منه يسير على هداها ويتخذها إماماً ، وهم بموضع القدوة لمن بعدهم . والشعراء الذين تغلب عليهم الثقافة العربية ينسكرونه أشد الإنكار ولا يتذوقونه بحال ، ويعدونه عيا وحسراً وقصوراً في العبارة عن تأدية المعنى ، بل يعدونه نوعاً من الهراء والعبث .

والعقاد وهو من زعماء الحركة الابتداعية يزرى عليه ويضيق به ويعد أهله مرضى وقد حمل عليهم حملة شعواء في بعض مقالاته^(١) .

هذا كله بما فات في عضد المفتونين به فلم ينفق له سوق ولم تحقق له راية ولكنه مع هذا لا يعدم له أنصاراً وشيعة بمصر على رأسهم الدكتور « بشر فارس » ، وله في ذلك جولات شعرية منها قصيدته التي عنوانها « إلى زائرة »^(٢) ،

لو كنت ناصعة الجبين	هيئات تنفضني الزيادة
ما روعة اللفظ المبين	السحر من وحى الإشارة
ظل على وهج الجبين	رسمته معجزة الإشارة
خط تساقط كالخزين	أرخی على العزم انكساره

يريد بالظل على وهج الجبين مقلة العين وبالخط المتساقط الحزين جفونها الفاترة .

وكثيراً ما جادل النقاد دفاعاً عن مذهبه هذا بدون أن يقنعهم أو يقنعوه وكذلك تجد لهذا اللون لمحات واضحة لا تصل إلى حد الإغراق في شعر الدكتور زكي أبو شادي والأستاذ محمود حسن إسماعيل وإن كان الأخير لا ينطق بغير العربية .

وأستطيع أن أجزم بحكم تجاربي أن النفس المصرية السهلة البسيطة البيضاء

(١) الكتاب - ١ - ١٩٤٨

(٢) المقتطف شهر ١٢ / ١٩٤٤ .

القرية الغور، الناشئة في بلاد منبسطة الرقعة، متطامنة الجبال، معتدلة الجو، صافية السماء، ضاحية الشمس، سافرة الأقاليم والكواكب، بعيدة عن تقلبات الجو. وتغيرات الطبيعة، لا تطرب لهذا النوع ولا تستجيب إليه، وسيظل يمشى متعثراً حتى تنشأ أجيال جديدة ربما وجدت فيه شيئاً يذاق. فهذا الفن غريب على المزاج المصرى الذى تحيطه الواقعية من كل جانب ويطلعه الوضوح والصفاء فى الأرض والسماء، وتلفه الطبيعة الهادئة الوديدة الثابتة فى شملة من السكينة والطأنينة، فلا جبال تناطح السماء وتكفل قممها الثلوج، وتأوى إلى مغاورها العميقة شياطين الإنس والجن، ولا غابات فيح صفيقة الظلال تكن تحت أشجارها المتشابكة ما لا يحيط به الوهم من أنواع الوحوش والزواحف والحشرات، ولا سماء قائمة الإهاب داكنة الجلباب ملشمة القمرين ضريرة النجوم تقهقه بهزيم الرعود وتبسم بشقيقة البروق ويوحى تلبد أساريها وغموض قسماها بالفراغ والرغبة والوجل ويثير الهواجس والوساوس ويبعث الفكر الخادر إلى اكتناه ما تحجب ورامها من حقائق واكتن من أسرار، والتماس تفسير لهذه الظواهر المبهمة المعجبة المرعبة معا!

ولكننا يذكر حينما رأى قوس قزح أول مرة مبلغ ما أوحى إليه من التأويلات والتعليقات العريقة فى الوهم، وكيف ذهب به الخيال فى شأنه كل مذهب ومالت به الظنون كل ميل. وأحسب أن هذا من الأسباب التى جعلت شعراء سوريا ولبنان أقرب إلى اعتناق الرمزية من إخوانهم المصريين، فوق ما قدمناه من تأثيرهم بالثقافة الغربية.

الفصل العاشر

التشبيه المتعدد ^{بصر}

الأصل في التشبيه : أن يأتي مفرد الطرفين ؛ كان تشبه شيئا بشيء في
فقرة من النثر أو بيت من الشعر كقول الحسن البصري : بدن لا يشتكى مثل
مال لا يزُكِّي .

وقول ابن قيس الرقيات في مدح عبد الملك بن مروان :

يأتلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

ولهذا لم يقع التشبيه متعددا في القرآن الكريم ، فلم يجيء فيه تشبيه شيئين
بشيئين ولا أكثر من ذلك ، وإنما جاء تشبيه واحد بواحد فيما ورد من
أنواع التشبيه جريا على أعراق البلاغة الأصلية التي تنفر من التكلف والإغراق
كقوله — تعالى — : « فكانت وردة كالدهان » فلما رأها تهتز كأنها جان
ولَّى مدبرا . .

ولكن بترأخي المدة عدل الشعراء عن البساطة والقصد ، إلى التعقيد
والإسهاب ، ورغبوا في التزيين والتنميق ، والمبالغة في الوصف ، والافتنان
في التصوير ، فكان أن رأينا هذا التعدد الذي بلغ حينئذ حد الإملال .
وأبسط ألوان التعدد :

١ — أن يتعدد المشبه دون المشبه به ، ويسمى تشبيه التسوية .

سمى بذلك للتسوية فيه بين مشبهاته ، كقول الشاعر :

صدغ الحبيب وحالي كلاهما كالليالي

وثغره في صفاء وأدمعي كالآلي

وقول البحترى :

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم في الحادثات إذا دجون نجوم
٢ — أن يتعدد المشبه به دون المشبه وهو أكثر من الأول ،
ويسمى تشبيه الجمع .

سمى بذلك للجمع بين المشبهات به .

كقول العطوى :

وكم قالوا تمن فقلت كأس يطوف بها قضيب في كшиб
وندمان يساقطني حديثاً كاحظ الحب أو غص الرقيب
وقول بعضهم في الفضل بن الربيع :

كم من مقيم ببغداد على طمع لولا رجاء أبي العباس لم يقم
البدر إن نظروا والبحر إن رغبوا والحصن إن رهبوا والسيف ذو النقم
وقول آخر :

والثريا كأكرة أو لجام أو بنان أو طائر أو وشاح
وقول البحترى في وصف ضمور المطايا :

كالقسي المعطفات بل الأسهم م مبرية بل الأة — لام
وقوله :

كأنما يبسم عن لؤلؤ منصد أو برد أو أقاح
ويقول المرتضى : إنه جمع فيه كل ما وصف به الثغر ^(١) .
وقد زاد عليه الحريري في قوله :

يفتر عن لؤلؤ رطب وعن برد وعن أقاح وعن طلع وعن حبيب
وبعض الناس يروى بيت البحترى :

كأنما يبسم عن لؤلؤ أوفضة أو برد أو أقاح

وهى - كما زعموا - رواية أهل الأندلس والمغرب ، فيكون الشجر حينئذ مشبها بأربعة أشياء .

وقد تقدم البحترى أبو تمام بقوله :

وثناياك إنها إغريض و لآل تؤم وبرق وميض ^(١)
 فشبّه الثنايا بثلاثة أشياء حقيقية ، لأن حكم الواو غير حكم أو ، لاسيما وقد
 أتى بالتشبيه بغير كاف ولا شيء من أخواتها ، فجاء كأنه إيجاب وتحقيق ^(٢)
 وقول البحترى أيضا :

كالسيف في إخذامه والغيث في إرهامه والليث في إقدامه ^(٣)
 وعده العسكرى من نوع تشبيه ثلاثة بثلاثة : أى من تعدد الطرفين
 على تقدير تكرير المشبه ، والخطب سهل .
 وقول العسكرى :

كالسيف في غمراته والبدر في ظلماته والغيث في أزmate
 وقول عبيد الله بن طاهر :

واحرّبا من فراق قوم هم المصابيح والحصون
 والأسد والمزن والرواسى والأمن والخفض والسكون
 وقول الثعالبي في الأمير أبي الفضل الميكالى :

لك فى المحاسن معجزات جمّة أبدا لغيرك فى الورى لم تُجمع
 بجران : بحر فى البلاغة شابه شعر الوليد وحسن لفظ الأصمى ^(٤)
 وترسل الصابى يزين علوه خط ابن مقلّة ذى المحل الأرفع
 كالنور أو كالسحر أو كالدرأو كالوشى فى برد عليه موشع

(١) الإغريض : ما ينشق عنه طلع النخل من الحبيبات البيض .

(٢) العمدة - ١ - ١٩٨ - ١٩٩ (٣) الصنائع - ٢٣٩

(٤) الوليد : البحترى .

وقول ابن طباطبا :

أتانى قريض كنظم الجمان وروض الجنان وأمن الفؤاد
وعهد الصبا ونسيم الصبا وبرد الفؤاد وطيب الرقاد
وقول الصاحب فى أبيات أهديت إليه :

أتنى بالأمس أياته تعل رُوحى بروح الجنان^(٢)
كبرد الشباب وبرد الشراب وظل الأمان ونيل الأمانى
وعهد الصبا ونسيم الصبا وصفو الدنان ورجع القيان
ويلاحظ أن بيت ابن طباطبا وبيت الصاحب قد اتفقا فى الشطرين
الأولين ، وذلك يحتمل الأخذ أو توارد الخواطر .
وقول آخر :

أفدى حبيبا له بدائع أو صاف تعالت عن كل ما أصف
كالبدريعلو والشمس تشرق والغزال م يعطو والغصن ينعطف^(٣)
وقول بعض العصريين :

ولست الثقيل ولا المستطيل على الصاحب بين ذوات الحجال
ولكننى كنسيم الرياض وصفو المدام وعذب الزلال
والسابق إلى ذلك امرؤ القيس فى قوله — يشبه الأصابع — :
وتعطو برخص غير شئن كأنه أساريع ظي أو مساويك إسحل
والأساريع واليساريع : دود يكون فى البقل والأماكن الندية ، وظي :
موضع بعينه ، والإسحل : شجرة تدق أغصانها فى استوام .

يشبه بناتها الرخص الناعم غير الغليظ ولا السكر فى التناول ، بدود هذا
المكان ، ومساويك هذا الشجر .

ومن النثر الرائع قول الثعالبي يصف شعر السرى الرفاء . وكتبت من

(٢) الروح بالفتح : الراحة والرحمة ونسيم الريح .

(٣) يعطو : يتناول .

ذلك محاسن وملحاً وبدائع وطرفاً كأنها أطواق الحمام ، وصدور البزاة
البيض ، وأجنحة الطواويس ، وسوالف الغزلان ، ونهود العذارى الحسان ،
وغمزات الخدق الملاح .

وقول ابن شهيد - يصف الماء من رسالة التوايع والزوايع - :
أزرق كعين السنور ، صاف كقضب البلور ، انتخب من الفرات ، واستعمل
بعد البيات ، فجاء كسان الشمعة ، في صفاء الدمعة ، كأنه عصير صباح ،
أو ذوب قمر ليّاح ^(١) ، ينصب من إنائه انصباب الكوكب من سمائه ، العين
حانوته ، والقلم عفريته ، كأنه خيط من غزل فلق ^(٢) ، أو مخصر يضرب به من
ورق ، يرفع عنك فتردي ، ويصدع به قلبك فتحيا .

ولبعض الظرفاء في وصف خط رديء : نظرت في خط مُحِط ،
كأرجل البط على الشط ، أو أنامل السرطان على الحيطان .

ولآخر في وصف رجل : كان والله سمحاً سهلاً ، كأنما بينه وبين القلوب
نسب ، أو بينه وبين الحياة سبب ، إنما هو عيادة مريض ، وتحفة قادم ،
وواسطة عقد .

وأقلّ تعدد المشبه به أن يحى اثنين كقول المتنبي :

تحمى السيوف على أعدائه معه كأنهن بنوه أو عشائره
وقول المعري :

وسهيل كوجنة الحب في اللو ن وقلب الحب في الخفقان
وقول القطامي :

فهن كاللؤلؤ الموشى ظاهرها أو كالكتاب الذي قد مسه البلل

وقد يتعدد كل من طرفي التشبيه ، فإن أتى بالمشبهات أولاً عن طريق العطف أو غيره ، ثم بالمشبهات بها كذلك سمي ملفوفاً ، كقول امرئ القيس في وصف العقاب — وهو مما انفرد به ^(١) — :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي
شبه شيتين بشيتين مع التفصيل في بيت واحد فأحسن التشبيه ، وجاء به في غاية الجودة .

وقد قالوا : إنه لم ير مثله في تشبيه شيتين بشيتين في حالتين مختلفتين ^(٢) . وتقديره : كأن قلوب الطير رطبا : العناب ، ويابسا الحشف البالي ، وهو أردأ التمر ، أو الضعيف الذي لانوى له ، أو اليابس الفاسد ، فشبه الطرى من القلوب بالعناب ، والعقيق اليابس بالحشف .

وخص قلوب الطير لأنها أطيب اللحوم ، وإنما كثرت هذه القلوب عند وكر العقاب ، لأن أفرانها تأكل لحوم الطير ما خلا القلوب فتلقبها خارج الوكر ، أو لكونها — ما دامت صغيرة — لا تأكل سواها فلا تأتي الكوااسب لأفرانها إلا بهذه القلوب ^(٣) .

وظاهر أن التشبيه هنا لا يراد منه التركيب ، فالكلام معقود على تشبيه شيتين بشيتين ضربة واحدة ، إلا أن أحدهما لا يداخل الآخر في الشبه . وذلك أنه لم يقصد أن يجعل من الشيتين اتصالا ، وإنما أراد اجتماعا في مكان فقط ، كيف ولا يكون لمضامنة الرطب من القلوب إلى اليابس هيئة يقصد ذكرها أو يعنى بأمرها كيف ولا فائدة لأن ترى العناب مع الحشف أكثر من كونهما في مكان واحد .

ولو أن اليايسة من القلوب كانت مجموعة ناحية والرطبة كذلك في ناحية

(١) الشعر والشعراء — ٥٥ (٢) الحيوان — ٣ — ١٥ .

(٣) المواهب الفتحية — ١ — ١٢٧

أخرى لسكان الشبه بحاله ، ولذلك لو فرقت التشبيه هنا فقلت : كأن الرطب من القلوب عتاب ، وكأنّ اليابس حشف بال لم تر أحد الشيثين موقوفاً في الفائدة على الآخر ، وليس كذلك الحكم في المركبات .^(١)

ومثله قول الوزير أبي عبد الله بن الحداد :

إذا ما بدا سربلته العيون وخرت وجوه إليه سجودا
هو البدر والغصن خدا وقدأ كما أنه الظبي لحظا وجيدا

وإن أتى فيه بمشبه ومشبه به ثم آخر وآخر سمي مفروقا ، كقول امرئ القيس أيضاً :

وكشح لطيف كالجديل مخصر وساق كأنبوب السقي المذلّ
شبه كشحها في ضموره بخطام الجلد ، وساقها في صفاء لونه بأنبوب
البردى المسقى المذلل بالإرواء .

وقول فضل الشاعرة^(٢) في قبيحة^(٣) جارية المتوكل :

سلافة كالقمر الباهر في قدح كالكوكب الزاهر
يديرها خشف كبدر الدجي فوق قضيب أهيف ناضر
وقول البحتري :

يدوى الرجال ويشفيهم بمقتسم كابن الغمام وريق كابنة العنب
وقول بكر بن النطاح :

بيضاء تسحب من قيام فرعها وتغيب فيه وهو وحف أسحم
فكأنها فيه نهار ساطع وكأنه ليل عليها مظلم

(١) أسرار البلاغة - ١٥٦ - ١٥٧ (٢) مدامع العشاق - ٧٥

(٣) سميت قبيحة لجمالها الرائع من باب تسمية الأضداد.

وقول أبي بكر الخوارزمي :

رب ليل كطلعة الناصبي ذى نجوم كحجة الشيعي^(١)
وقول بعض الشعراء :

وليل كعين الظبي غيرت لونه بكأس كعين الديك بل هي ألمع
فلما مزجت الروح مني براحها ترحل عنى الغم والهم أجمع
قال الثعالبي : جمع بين عين الظبي وعين الديك في يد واحد ولعله
لم يسبق إليه .

وعين الظبي تشبه بها العيون المستحسنة ، وما يوصف بالسواد^(٢) .
وقد يشبه شيثان مختلفان بشيئين من جنس واحد ، كقول بشار :
من كل مشتهر في كف مشتهر كأن غرته والسيف نجمان
وقد كثر تشبيههم شيئين بشيئين حتى لم يصر عجباً — كما يقول ابن رشيق^(٣) .
ويتدرج هذا النوع :

١ — من تشبيه شيئين بشيئين كما تقدم في الأمثلة إلى تشبيهه :
٢ — ثلاثة بثلاثة — بأداة أو بدونها — ، كقول المرقش الأكبر :
النشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الأكف غم
الغنم : شجرلين الأغصان يشبه بنان النساء ، وقال أبو عبيدة : هو أطراف
الخروب الشامي ، وقيل : شجر له أغصان حمراء ، وقيل : هو ثمر العوسج
يكون أحمر ثم يسود إذا عقد ونضج .
وقوله :

إن أقبلت فالبدرياح وإن مشيت فالغصن ماد وإن دنت فالريم

(١) الناصبي : من يغض علياً — كرم الله وجهه — .

(٢) ثمار القلوب — ٣٢٧ (٣) العمدة — ١ — ١٩٩

وقول أبي نواس :

يا قمرأ أبصرت في مآتم يندب شجوا بين أتراب
يبكي فيذرى الدر من نرجس ويلطم الورد بعناب
وقد أعجب الناس بقوله هذا ، حتى لقد سئل ابن منذر : من أشعر الناس ؟
فقال الذى يقول : وأنشد البيتين .
ثم قال : هذا أشعر الجن والإنس .

ويقول ابن رشيق : وقد جاء بالشعر على بيجيته ، وشاهد ذلك في لفظه ،
ولإلا فهو قادر أن يجعل مكان الدر الطل ، حتى يتناسب الكلام ، لكنه
لم يكن يؤثر التصنيع ولا يراه فضيلة لما فيه من الكلفة .
ثم يقول ومن الناس من يرويه كذلك ، ومنهم من يرويه :
فيذرى الدر من جفنه (١)

وقد أخذه بعض المتأخرين فقلبه هجاء بقوله (٢) :

يا قردة أبصرت في مآتم تندب شجوا بتخاليط
تبكى فتذرى البعر من كوة وتلطم الشوك ببلوط (٣)
وقول ابن المعتز — وهو من المقلوب — :

بدر وليلى وغصن وجه وشعر وقد
خمر ودر وورد ريق وثغر وخد
وقد عده المرتضى من تشبيه ستة بستة ، فقال : وأما تشبيه ستة بستة
فلم أجده إلا لابن المعتز في قوله (٤) ، وأورد البيتين .
وهو وهم منه ، فإن كل بيت مستقل عن الآخر بتشبيهاه الثلاثة .

(١) العمدة — ١ — ٢٠٠

(٢) الصنائع — ٢٣٩ ، وفي ديوان المعاني — ١ — ٣٧ : وأور أبصرت في مآتم .

(٣) السكوة بالفتح والضم : النافذة في الحائط .

(٤) أمالى المرتضى — ٤ — ٤٣

وقول ابن رشيق :

شقيق وعينه بقية نرجس

كان ثناياه أقاح وخده

وقول تميم بن المعز بن باديس :

إذا وصفت تجل عن القياس

وخمر قد شربت على وجوه

كدر في شعور مثل آس

حدود مثل ورد في ثغور

وقول ابن حيوس :

عن كأسه المألَى وعن إريقة (١)

ومُقرطَق يغني النديم بوجهه

من مقلتيه ووجنتيه وريقة

فعل المدام ولونها ومذاقها

وقول حمدونة (٢) الأندلسية :

وما لهم عندي وعندك من ثار

ولما أنى الواشون لإفراقنا

وقل حماقي عند ذاك وأنصاري

وشنوا على أسمعنا كل غارة

ومن نفسي بالسيف والسيل والنار

غزوتهم من مقلتيك وأدمعي

وقول ابن نباته :

لقبلة الحسن واعذرنى على سهري

عرج على حرم المحبوب منتصباً

تجد بلا لا يرأى الصبح في السحر

وانظر إلى الحال فوق الحد تحت لى

وقول بعض الطالبين يفخر :

غيرى وراح على متون ظواهر

وأنا ابن معتلج البطاح إذا عدا

كالجفن يُفتح عن سواد الناظر

يفتر عن ركنها وحطيمها

خلق ومثل ظبائن مجاوري

كجبالها شرفي ومثل سهولها

يريد أنه من قریش البطاح وهي عشرة أبطن : هاشم وأمية ونوفل

وعبد الدار وأسدو تيم ومخزوم وعدى وجمح وسهم .

(١) المقرطق : لباس القرطقي ، وهو لباس قصير أشبه بالقباء .

(٢) في خزنة الأدب للحموي — ٨٢ : حميدة .

وقريش الظواهر : بنو الحارث وبنو محارب ابنا فهر ، سموا بذلك
لأنهم نزلوا حول مكة وليست لهم .^(١)
وقول بعضهم :

روضُ ورد خلا له نرجس غض م يحفان أقحوانا نصيراً
ذا يباهي لنا حدوداً وذا يحكي عيوناً وذا يضاهي ثغوراً
وقول آخر :

كان ضلوعي والزفير وأدمعي طول وريح عاصف وسيول
٣ — أو أربعة بأربعة ؛ كقول امرئ القيس في وصف الجواد
من معلقته :

له أبطالا ظبي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل
شبه خاصرقي هذا الفرس بخاصرقي الظبي في الضمور ؛ وساقيه بساقي
النعامة في الانتصاب والطول ، وعدوه بإرخاء الذنب وتقريب التفل ،
وهذه الأشياء أحسن ما تكون في هذه الحيوانات .

فأني بأربعة أشياء مشبهة بأربعة أشياء ، وذلك أن مخرج قوله :
له أبطالا ظبي إنما هو على أنه له أبطلان كأبطلا ظبي ، وكذا ساقان
كساق النعامة .^(٢)

وقول يزيد بن معاوية :

ومدامة حمراء في قارورة زرقاء تحملها يد بيضاء
فالراح شمس والحباب كواكب والكف قطب والإناء سماء

وقول ابن حاجب النعمان وزير القادر بالله :

ثغر وخذ ونهد واختضاب يد كالطلع والورد والرمان والبلح

وقول الوأواء الدمشقي ، وقيل : هما غيره : (١)

بجرة جدول وسماء آس وأنجم نرجس وشموس ورد

ورعد مثلك وسحاب كأس وبرق مدامة وضباب ند (٢)

وقول المتنبي لابن عبد الوهاب - وقد جلس ابنه إلى جوار المصباح - :

أما ترى ما أراه أيها الملك كأننا في سماء ما لها حُبك (٣)

الفرقد ابنك والمصباح صاحبه وأنت بدر الدجى والمجلس الفلك

وقول ابن سكرة الهاشمي :

في وجه إنسانة كلفت بها أربعة ما اجتمعن في أحد

فالخذ ورد والصدغ غالية والريق خمر والثغر من برد

وقول الزغاري :

كان السحاب الغرما تجمعت وقد فرقت عنا الهموم بجمعها

نياق ووجه الأرض قعب وثلجها حليب وكف الريح حالب ضرعها

وقول ابن رشيق :

بفرع ووجه وقد وردف كليل وبدر وغصن وحقف (٤)

ومن لطيف قول بعضهم - وقد أهدى إليه نرجس وأقحوان وشقائق

وآس - فكتب إلى من أهداه :

لله ما أظرف أخلاقك م يا بحر الكرم

أهديت ما ناسبتهما حسنا وظرفا وشيم

فما رأينا مهديا قبلك في كل الأمم

أهدى العيون والثغو ر والحدود واللهم

(١) النجوم الزاهرة - ٥ - ٣٢٣ (٢) المثلث : ثالث الأوتار ، والمراد : العود نفسه .

(٣) الحبك : طرائق النجوم في السماء .

(٤) ألحقف : بالسكسر : الموج من الرمل ، أو الرمل العظيم المستدير ، أو المستطيل

ومن بديعه قول الصنوبرى - يفضل الربيع على غيره من الفصول: - (١)
 إن كان فى الصيف ربحان وفاكهة فالأرض مستوقد والجو تنور
 وإن يكن فى الخريف النخل مُحترقا فالأرض عريانة والجو مقرر (٢)
 وإن يكن فى الشتاء الغيث متصلا فالأرض محصورة والجو مأسور
 مالدهر إلا الربيع المستنير إذا جاء الربيع أتاكَ النور والنور
 فالأرض ياقوتة والجو لؤلؤة والنبت فيزوج والماء بلور
 تبارك الله ما أحلى الربيع فلا تُغرر فقايسه بالصيف مغرور
 من شَمَّ طيب جنَّات الربيع يقل لا المسك مسك ولا الكافور كافور
 والشاهد فى البيت الخامس .
 وقول البارودى :

من كل مائسة كالغصن قد جمعت بدائعا كلها للحسن أوضح
 فالعين نرجسة والشعر سوسنة والنهد رمانة والحد تفاح
 ٤ - وخمسة بخمسة ، كقول الوأواء الدمشقى - وقد أتى به من غير أداة - :
 قالت متى النأى يا هذا فقلت لها إما غدا - زعموا - أو لا فبعد غد
 فأسبلت لؤلؤا من نرجس وسقت وردا وعصت على العُنب بالبرد
 وفيه يقول العسكرى ولا أعرف لهذا البيت ثانيا فى أشعارهم (٣)
 وقد وجد له ثان بقول الحريرى المتقدم :

يفتر عن لؤلؤ رطب وعن برد وعن أقاح وعن طلع وعن حب
 وقول ابن برون الأكشوفى الأندلسى - يصف فرسا وردا أغر محجلا :
 فكأن غرته وتحجيلاته خمس من السوسيان وسط شقائق

(٢) الاختلاف : الاجتناء

(١) نثر النظم للشعالى - ١٥٠

(٣) الصنائع - ٢٣٩

قال أبو عامر بن شهيد : وهذا على التحقيق ستة ستة ، ولم أسمع بمثله من قبل :
وقال ابن الجلاب : وكلام أبو عامر هذا لا يخلو من النقد ^(١) .

ذلك لأن الغرة مضافاً إليها أربعة تحجيلات في قوائمه الأربعة خمس
لا ست .

ولكن لعله جعل السادس لون الفرس نفسه المشبه بالشقائق في حرته .
وقول ابن حزم :

كأنى وهى والكأس والخمر والدجى ثرى وحيأ والدر والتبر والسَّج ^(٢)
وقد علق عليه بقوله : وهذا أمر لا مزيد فيه ولا يقدر أحد على أكثر
منه ، إذ لا يحتمل العروض ولا بنية الأسماء أكثر من ذلك ^(٣)

ونسى ابن حزم أن يقول : إن بيته متكلف سخيف ، وليته أعفى نفسه
من نظمه .

هـ — أوسنة بستة ، كقول صفي الدين الحلى — وقد جاء به مع الطي
والنشر المرتب — :

زنبق بين قضب آس وبان وأقاح وعيهر وورود ^(٤)
كجيين وعارض وقوام وثغور وأعين وخدود
وقول ابن جابر الأندلسي :

إن شئت ظيماً أو هلالاً أو دجى أو زهر غصن في الكشيب الأملد
فللحظها ولوجهها ولشعرها ولخدها والقدر والردف اقصد

وفي هذين البيتين يقول الحموي : صبرنا على « الأملد » لكونه صفة

(٢) السَّج : الخرز الأسود .

(١) نفع الطيب — ٢ — ٢٣٩

(٤) العيهر : الترجس والياسمين .

(٣) طوق الحمامة — ١٥

الكثيب ، ولكن لم نصبر على دخول القصد ، يريد : « اقصده ، فإنها زيادة أجنبية »^(١) .

ولو انصف لقال : لا نستطيع الصبر على البيت كاه لأنه تلفيق محض .

٦ — أو سبعة بسبعة كقول قاضي القضاة نجم الدين البارزى .

يقطع بالسكين بطيخة ضحا على طبق فى مجلس لأصاحبه

كبدر ببرق قد شمس أهلة لدى هالة فى الأفق بين كواكبه

وقد نقده شهاب الدين أبو جعفر : بأنه نص فى اللف على ستة ، ونص فى النشر على سبعة ، لأن الأهلة راجعة إلى الأشرطة وهى غير مذكورة فى اللف .

وكذلك قوله « ضحا » فى بيت اللف مطرح لانظير له فى النشر .

وقد رد عليه الحموى : بأن الأشرطة تفهم من قوله : يقطع .

وقوله : « ضحا » ليس له عنده فى الحسن نظير ، وهى تقابل قوله : « شمس »^(٢) ،

وهذا خطأ من الحموى لأن الذى يقابل الشمس هو البطيخة لا الضحا

وهذا لا يحتاج إلى بيان .

وقد قطع مصححو نهاية الأرب : أن البيتين كالآتى :

يقطع بالسكين بطيخة ضحا على طبق فى مجلس لان صاحبه

كشمس ببرق قد بدر أهلة لدى هالة فى الأفق شتى كواكبه

وقالوا : إن هذا هو الصواب وما سواه تحريف^(٣) .

والتحريف ما صوبوه لأنه ظاهر التكلف ، فلا معنى لقبولهم : لان

صاحبه وقولهم : شتى كواكبه ، وخلق الفعل « قد » من تاء التأنيث العائدة على

الشمس خطأ نحوى ، وجعل البطيخة بدر ايزرى بها ، لأنها تكون بطيخة قرعاء .

(١) خزانة الأدب — ٨٣ (٢) المصدر السابق والرقم .

(٣) نهاية الأرب — ١١ — ٣٥ .

ويشهد لقولنا قول الآخر :

أنا الغلام بيطيخة وسكينة جملوها صقالا
فقطع بالبرق شمس الضحا وناول كل هلال هلالا
على أن قول البارزى كله لا يستحق هذه العناية .

٧ — أو ثمانية بثمانية ، كقول علاء الدين بن مقاتل الحموى :

خدود وأصداع وقد ومقلة وثغر وأرياق ولحن ومُعرب
فورد وسوسان وبان وزجس وكأس وجريال وجنك ومطرب^(١)
٨ — أو عشرة بعشرة ، كقول بعضهم :

شعر جبين حيا معطف كفّل صدغ فم وجنات ناظر ثغر
ليل صباح هلال بانه ونقل آس أقاح شقيق نرجس در
وبلاحظ أن تشبيه تسعة بتسعة لم يرد في كلامهم .
وما تقدم من الأمثلة نستنبط ما أتى :

١ — أن أفضل هذا النوع « المتعدد الطرفين ، وأقربه إلى الفطرة ، وأبعده
من التعسف والتعقيد ، ما وقع فيه تشبيه شيئين بشيئين في بيت واحد .
وقد مدحه قدامة وعده من دلائل البراعة والمقدرة ، فقال : اعلم أن
الشاعر إذا أتى بالمعنى الذى يريد أو المعنيين في بيت واحد ، كان في ذلك
أشعر منه إذا أتى بذلك في بيتين ، ولذلك فضل قول امرئ القيس :
كأن قلوب الطير رطبا ويابسا « البيت »

على قوله :

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذى لم يشب
لأنه جمع في البيت الأول وصف شيئين بشيئين ، وإنما وصف في الأخير
شيئا واحدا^(٢) .

٢ — أن تشبيه ثلاثة بثلاثة وما فوقه أكثر ما ورد من هذا النوع في شعر الشعراء المولدين .

٣ — أن المقبول منه ينتهى عند تشبيه أربعة بأربعة — كما يؤخذ من التأمل في الأمثلة — ولا بأس بخمسة حينما يعدل عن التشبيه إلى الاستعارة ؛ كقول الوأواء المتقدم :
فأسبلت لؤلؤاً

٤ — تشبيه خمسة بخمسة إن جرى على غير طريق الاستعارة ، لا يسعه البيت الواحد إلا بعسر وكلفة ، وأما ما فوق ذلك فلا يقع إلا في بيتين .
٥ — ما زاد على تشبيه أربعة بأربعة يشوبه التعقيد والتعسف وضعف النسيج ونضوب الماء والرواق ، ويزداد قبحه بزيادة صعوده في العدد حتى يستحيل إلى لون من الثقل والتنافر اللفظي كتموالى الروابط والإضافات والأفعال وما أشبه ذلك .

٦ — لم يرد عن الأقدمين أكثر من تشبيه أربعة بأربعة كقول امرئ القيس :
له أبطاظمي

وفى ذلك يقول المرتضى : تأملت ما اشتملت عليه تشبيهات الشعراء ، فوجدت أكثر ما شبهوا فيه الشيء بالشيء الواحد ، أو الشئيين بالشئيين . وقد تجاوزوا ذلك إلى تشبيه ثلاثة بثلاثة وأربعة بأربعة وهو قليل ^(١) .

الفصل الحادي عشر

نشأة التشبيه المتعدد

قدمنا أن الأصل في التشبيه الأفراد ؛ فيشبه شيء بشيء في بيت واحد .
وأول من ابتدع التعدد في طرفي التشبيه امرؤ القيس حين وصف
العقاب بقوله :

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابَسًا ، البيت ،

فشبه شيتين بشيتين في بيت واحد ، واتبعه الشعراء في ذلك ، فقال لييد :

وَجَلَا السَّيُولُ عَنِ الطَّلُولِ كَأَنَّهَا زُبُرٌ تُجَدُّ مَتُونَهَا أَقْلَامُهَا

الزبر بضميتين : السكتب جمع زبور .

يقول : كشفت السيول عن أطلال الديار فأظهرتها بعد ستر التراب
لها ، فكأن الديار كتب تجدد الأقلام كتابتها .

وأقلام مضافة إلى ضمير زبر ، واسم كأنها : ضمير الطلول .

فشبه الطلول بالزبر ، والسيول بالأقلام ، بل زاد فشبه جلاء هذه عن
هذه بتجديد تلك لتلك .

ثم جاء بشار من المحدثين فقال :

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رَمُوسِنَا وَأَسْيَافُنَا لَيْلَ تَهَاوَى كَوَاكِبِهِ

ويحكون عنه أنه قال : ما قرأني القرار منذ سمعت قول امرئ القيس .
كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ . . .

حتى صنعت :

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ

قال ابن رشيق : فإن كان مراده الترتيب فصدق ، ولم يقع بعد بيت

امرى القيس في ترتيبه كيبته ، وإن كان المراد تشبيهين في بيت ، فقد قال
الطرماع في صفة ثور وحشى :

يدو وتضره البلاد كأنه سيف على شرف يسل ويغمد
وهذا في نهاية الجودة (١) .

ويقول الباقلاني : واستبدعوا تشبيهه — أى امرى القيس — شيتين بشيتين
على حسن تقسيم ، ويزعمون : أن أحسن ما وجد في هذا للمحدثين
قول بشار :

كأن مثار النقع . . .

وقد سبق امرؤ القيس إلى صحة التقسيم والتفصيل ، ولم يتمكن بشار
إلا من تشبيه إحدى الجملتين بالأخرى دون صحة التقسيم والتفصيل (٢) .

ويقول العسكرى في بيت بشار : شبه ظلمة الليل بثار النقع ، والسيوف
بالكواكب ، وبيت امرى القيس أجود ، لأن قلوب الطير رطبا ويابساً
أشبه بالعناب والحشف من السيوف بالكواكب (٣) .

والحق أنه لا معنى للموازنة بين البيتين ، لأن بيت امرى القيس من
تشبيه المفرد بالمفرد ، لأن انضمام الرطب إلى اليابس من القلوب ، والعناب
إلى بالى الحشف لا يتألف منه هيئة ولا يقصد ذلك .

وأما بيت بشار فتشبيه مركب في طرفه ، وفي وجهه كذلك ، وهو
الهيئة الحاصلة من هوى أجرام مشرقة مستطيلة متناسبة المقدار ، متفرقة
في جوانب شتى .

ولذلك وجب الحكم — كما يقول عبد القاهر — : بأن الكلام إلى قوله
« وأسيافنا » في حكم الصلة للمصدر وجارى مجرى الاسم الواحد ، لثلا يقع

(١) العمدة — ١ — ١٩٧ — ١٩٨ .

(٢) إيجاز القرآن — ٧٣ — ٧٤ (٣) الصنائع — ٢٣٨ .

(١٠م — فن التشبيه — ج ٢)

في التشبيه تفريق ويتوهم أنه كقولنا : كأن مثار النقع : ليل ، وكأن
السيوف : كواكب .

ونصب الأسياف لا يمنع من تقرير الاتصال ، ولا يوجب أن يكون
في تقدير الاستئناف ، لأن الواو فيها بمعنى « مع » ، ... وهي إذا كانت
بمعنى مع لم يكن في معطوفها الانقطاع ، وأن يكون الكلام في حكم جملتين ^(١) .
وبهذا يسقط تفضيل الباقلاني بيت امرئ القيس على بيت بشار بما ذكره
من صحة التقسيم والتفصيل ، لأن بشارا لم يرد التقسيم ، وإنما أراد انزعاج
هيئة مكتملة من طرفي التشبيه المركبين ، وقد جاء فيها بتفصيل أوسع وأكثر .
وأما موازنة العسكري بين البيتين فلا يقام لها وزن ، لأنه عد التشبيه
مفردا ثم هو — إلى ذلك — قصر نظره على جزئيات تافهة لا تقدم
ولا تؤخر .

وقد أعجب النقاد بيت بشار ، فقليل له ^(٢) — وقد أشد البيت
المتقدم — : ما قيل أحسن من هذا التشبيه ؟ فمن أين لك هذا ولم تر الدنيا قط
ولا شيئا منها ؟

فقال : إن عدم النظر يقوى ذكاء القلب ، ويقطع عنه الشغل بما ينظر
إليه من هذه الأشياء ، فيتوفر حسه وتذكو قريحته .
ثم أنشدتم قوله :

عميت جنينا والذكاء من الغمي فجت عجيب الظن للعلم مونا
وغاض ضياء العين للعلم رافدا لقلب إذا ماضيع الناس حصلا
كأنه أخذ هذا من الأثر : « ما انتقصت جارحة من إنسان إلا كانت
ذكاء في عقله » .

ولذلك ضرب المثل بعين بشار ، لأنه كان أعمى لكنه لم يبصر شيئا قط

(١) انظر أسرار البلاغة من — ١٤٠ — إلى — ١٥٩ —

(٢) معاهد التنصيص — ١ — ١٤٣ .

وهو قائل هذا البيت (١).

وإذا كان امرؤ القيس سبق الشعراء بتشبيه شيئين بشيئين ، فقد سبقهم أيضا بتشبيه شيء بشيئين في قوله يصف البنان .

وتعطو برخص غير شثن كأنه أساريع ظبي أو مساويك إسحل وتشبيه أربعة بأربعة في بيته المتقدم .

له أبطلاظي . . .

فكان أول من فتح هذا الباب (٢).

وبهذا الابتكار وأمثاله استحق امرؤ القيس أن يلقب « أمير الشعراء » لأن شعره في جملة أقل من شعر زهير تنقيحا وتهذبا ، ومن شعر النابغة صفاء ونقاء .

فبمجة التشبيه المتقدم .

لا خلاف أن التشبيه المتعدد في بعض صورهِ يتزعم منا الاستحسان ، لأننا نرى فيه مظهر الاستيعاب والتقصى ، وقوة الملاحظة ، والبراعة في الجمع بين الأشياء المتناسبة ، والقدرة على نظمها في سلك قصير ، ولكن النقاد — مع هذا — لا يرتفعون به إلى منزلة التشبيه المركب لخلوه من الهيئة ذات التفاصيل الكثيرة والجزئيات المتضامة المنسجمة ، يفعل فيها الخيال فعله ، ويبدع — ما وسعه — في تأليفها وتنسيقها وتوشيتها وتحجيرها وتحليلتها في صورة كلية موفقة خلاصة تهز أنفسنا من الأعماق ، وتثير فيها ألوانا مختلفة من الانفعالات .

وفي هذا يقول عبد القاهر : واعلم أن ما كان من التركيب في صورة بيت امرئ القيس . .

كأن قلوب الطير

فإنما يستحق الفضيلة من حيث اللفظ ، وحسن الترتيب فيه ، لا لأن للجمع فائدة في عين التشبيه ^(١) .

ويقول ابن يعقوب المغربي : ليس فيه هيئة يعتد بها ويستحسنها الذوق ؛ أو يستطرفها السامع ، وإنما الفضيلة في اختصار ما تعلق به هذا التشبيه المتعدد من ترتيبه ، ولا فضيلة له باعتبار الهيئة لانتفاء حسنها . ^(٢)

ويقول الحموي : المراد من حسن التشبيه وبلغه غير كثرة العدد في الصفات ، فقد أوصله البارزى إلى سبعة ، وأوصله الناس إلى أكثر من ذلك . ولكن جُلّ القصد هنا غير كثرة العدد ، فإن المراد من التشبيه غرابة أسلوبه وسلامة اختراعه . ^(٣)

ويقول ابن شهاب العلوى الحضرمى : التشبيه المقصود عند البديعيين هنا : هو التشبيه المركب ، وهذا هو العزيز الممنوع ، أما تعدد التشبيه من غير تركيب فهو أمر سهل ، وقد بلغ فيه الشعراء إلى ثمانية ثمانيه وتسعة بتسعة ^(٤) ، وعشرة بعشرة ^(٥) .

وربما كان في بعض هذه الأقوال شوب من المبالغة ، ولكن فيها حق كثير .

وحفظ الترتيب في هذا النوع غير واجب ، فإن حفظ فيه الترتيب فلا جل الشعر فقط ، كما قول المرقش الأكبر :

النشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الأكف غم
فإنه يصح في غير الشعر ألا يتبع هذا النظام المخصوص فتبدأ بأيا شئت والمعنى على حاله .

(١) أسرار البلاغة - ١٥٨ (٢) مواهب الفتاح - ٣ - ٤٤٨

(٣) خزانة الأدب - ٢١٧

(٤) ذكرنا فيما سبق : أننا لم نعثر على مثال للتشبيه بتسعة بتسعة .

(٥) إقامة الحجة على التقى بن حجة - ٣٦ .

الفصل الثاني عشر

القريب المبتذل ، و البعيد الغريب

هذا فصل لم يخل كلامهم فيه من اللبس والاضطراب ، ومرد ذلك إلى الخلط بين الأشياء وعدم التدقيق في بيان معنى كل منها .

فالخطيب مثلاً جعل القريب والمبتذل شيئاً واحداً ، وكذلك البعيد والغريب ، فكان أن قال : القريب المبتذل ، والبعيد الغريب دون أن يذكر حرف العطف بين كل اثنين ، ثم عرف كل اثنين منهما تعريفاً واحداً ، فالقريب المبتذل : هو ما ينتقل فيه من المشبه إلى المشبه به من غير تدقيق نظر ، لظهور وجهه في بادىء الرأى .

والبعيد الغريب : هو ما لا ينتقل فيه من المشبه إلى المشبه به إلا بعد فسكر ، لخفاء وجهه في بادىء الرأى . (١)

واقصر الرازى (٢) من هذه الأسماء الأربعة على القريب والغريب وجعلهما متقابلين .

والقريب عنده : ما يخطر ببالك عند ذكر المشبه ، كنظرك إلى السيف عند سله ، فإنه يذكر ك بلمعان البرق .

والغريب : هو الذى تحتاج في إدراكه إلى دقة نظر وقوة فكر ، كتشبيه البرق بإصبع السارق فى قول كشاجم :

أرقت أم نمت لضوء بارق مؤتلق مثل فؤاد العاشق
كأنه إصبع كف السارق

(١) الإيضاح - ١٨٢

(٢) نهاية الإيجاز - ٧١

ويفهم من كلام عبد القاهر : أن البعد والغرابة عنده سواء ، فهو يقول : والمعنى الجامع في سبب الغرابة أن يكون الشبه المقصود من الشيء مما لا ينزع إليه الخاطر ، ولا يقع في الوهم عند بديهة النظر إلى نظيره الذي يشبه به ، إلا بعد تثبت وتذكر ، وفكر للنفس عن الصور التي تعرفها ، وتحريك الوهم في استعراض ذلك واستحضار ما غاب عنه ^(١) .

أما شراح التلخيص فقد وافقوا في بعضها وخالفوا في بعضها الآخر ، فالقريب عندهم : ما يحصل من غير تدقيق نظر .

وهو مثل كلام الرازي والخطيب .

والبعيد : ما كان كثير التفصيل ، أو كان قليل التفصيل ، إلا أن المشبه به فيه غير غالب الحضور في الذهن : أي عند ذكر المشبه .

والغريب : ما كان قليل الاستعمال ^(٢) .

والمبتذل : الكثير الاستعمال ، أو هو كما يقول الزمخشري : الملهوج بذكره المستعمل ^(٣) .

إذا الابتذال في الأصل : الامتحان ، أطلق وأريد به التداول وكثرة الاستعمال ، لأن الشيء المتداول بين الناس يكون متمتها ^(٤) .

وهم بهذا التقسيم يجعلون القريب في مقابل البعيد ، والمبتذل في مقابل الغريب .

ونحن لانجد فرقاً بين البعد والغرابة واللغة تساعد على ذلك ، ففي المعاجم اللغوية : الأبعد : ضد الأقارب ، والأبعد : الغرباء أيضاً ، واغترب فلان : إذا تزوج إلى غير أقاربه .

لذلك نستطيع أن نوافق الرازي على جعله البعد والغرابة شيئاً واحداً ،

(١) أسرار البلاغة — ١٢٥ وقرأ كذلك من ١١٠ إلى ١٢٠

(٢) عروس الأفراح — ٣ — ٤٤٨ (٣) أساس البلاغة .

(٤) مواهب الفتاح — ٣ — ٤٤٣

ولكننا لا نستطيع أن نوافق الخطيب على أن القريب هو المبتدل ؛ إذ ليس كل قريب مبتدلا ، ذلك لأن الابتدال يرجع إلى كثرة الاستعمال أكثر من القرب ، فمثلا قول العباس الصولي :

فكن كيف شئت وقل ما تشا وأبرق يمينا وأرعد شمالا

نجابك لؤمك منجى الذباب حتمه مقاذيره أن يُنالا

يعد قريبا فضلا عن شهرته ولكنه لا يعد مبتدلا .

وكذا قول سعيد بن حميد :

أهاب وأستحي وأرقب وعده فلا هو يداني ولا أنا أسأل

هو الشمس مجراها بعيد وضوءها قريب وقلبي بالبعيد موكل

فإن الحصرى يقول فيه : وهذا المعنى ، وإن كان كثيرا مشهورا . فايكاد يداني في الإحسان فيه ^(١) .

وقد فرقوهم بين القريب والمبتدل فقالوا :

١ — إن كان قريب التناول بحيث يمكن لكل أحد التشبيه به ، ولكن اتفق أنه لم يكثر استعماله فلا يكون مبتدلا .

٢ — إن كان قريب التناول وكثر استعماله يكون مبتدلا .

٣ — إن كان بعيدا عن كثير من الإدراكات بحيث لا يفوز بالتشبيه إلا القليل من الأذكياء والبلغاء ، ولكن جرى استعماله كثيرا حتى عد مبتدلا من حيث كثرة ممارسة البلغاء له لا من حيث ظهوره لعامة الناس فيعد من البعيد الغريب ^(٢) .

فقولهم صريح إذن في أن القريب لا يكون مبتدلا إلا إذا صاحبه كثرة التداول .

بل يجب أن نحتاط في هذا القول أيضا ، فهناك ألفاظ لا يمكن أن
تخلق جذتها وينصل لونها أبد الأبد لأسباب كثيرة منها ..

١ — أن تكون قد اكتسبت قداسة وروحانية وجلالا بورودها في الكتب
المنزلة ، أو كانت مما نطق بها الرسل وأصحابهم وأئمة الأديان وحكماء
البشرية .

فتشبيه القرآن الكريم للقمر في نقصه بعد الزيادة بالعرجون القديم .
وتشبيه الرسول — صلوات الله عليه — الناس في أنهم سواسية بأسنان
المشط ، سيظللان حين ما دامت الحياة .

٢ — أن تكون كثيرة الإشعاع موفورة الحظ من الرقة والدقة والبهاء
والجمال ، أو القوة والعظمة والجبروت ، كالشمس والقمر والظي والريم والمها
والغصن والزهر والندى والنسيم والمدام ، والأسد والجبل والبحر والنار
والصاعقة والعاصفة، إلى غير ذلك مما هو رقيق أو جميل أو قوى .

٣ — ألا يمكن الاعتبار عنها بغيرها كالشباب والمهرم ، والحياة
والموت ، والقوة والضعف ، والحرب والسلام ، والفقر والغنى ، والكبر
والصغر ، والام والآب .

٤ — ان تكون ألفاظا تاريخية كتب لها الخلود وسارت بها الأمثال
مدحا وذما كحاتم في الكرم ، وما در في البخل ، وسبحان في الفصاحة ، وياقل
في العي ، وعرقوب في الخلف إلخ .

ولذلك رأينا أبانما لا يرى بأسا أن يمدح ولي عهد الخلافة بهذا البيت :

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إلياس

لأن هذه الأسماء صارت رموزا على المثل العليا في هذه الصفات .
فليس الغرض التشبيه بحاتم أو الأحنف وإنما الغرض الوصف بالغاية
القصوى في هذه المعاني ، لذلك لم يكن معنى لاعتراض الفيلسوف السكندى

عليه ، ولعله أراد أن يمتحن ذكاه وقوة عارضته ، كما أن أبا تمام راغ عن الحقيقة حين قال :

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس
وإن كان قد أخف خصمه .

لأنه في بيته لم يشبه الأكثر بالأقل كما في الآية الكريمة التي قصد منها تقريب الفهم ، وإنما هو قد وصف عظيمًا بما هو أعظم منه ، لأنه أراد أن « ولي العهد ، بلغ أسنى ما يمكن أن يصل إليه البشر في هذه الخصال التي تعلم الناس أصحابها ، وهو كما تعلم ادعاء لا حقيقة لأنه ليس من الضروري أن توجد هذه الصفات أو بعضها في شخص لأنه ولي عهد أو ملك مثلا .

وقد جرت العادة أن يتمثل بجرأة الأسد حتى النسوان والصبيان ؛ لأن الأسد سيد السباع ، كما أن العقاب سيد الطيور ، والفرس سيد الدواب (١) . وسيظل ذكر السيف غضا لا يبلى مع ما عرف وما يعرف من أدوات القتال الجهنمية التي تركته أثرا من الآثار ؛ لأنه أصبح رمزا للحرب ولآلاتها جميعا ؛ لذلك لم نعجب من قول « هتلر » في بعض خطبه « أنتم في حماية السيف الألماني » ، وقول رئيس جمهورية فرنسا حينما استجرت المعركة في الحرب العالمية الثانية « لقد امتشقت فرنسا حسامها » .

ولبعض الألفاظ رسوخ في ميدان التفكير على توالي الحقب مما يجعلها مشبعة بالمعاني والتجارب والذكريات التي نسجها حولها الزمن وأودعها طياتها . وأمثال هذه الألفاظ تزيد الأسلوب قوة وتجعل أثره امتدا إلى آفاق فسيحة . ولعل هذه الأنواع من الكلمات والعبارات هي التي لا تستغنى عنها اللغة في جميع عصورها مهما تبدلت حياة المتكلمين بها واختلفت بيئاتهم ؛ لأن الزمن قد ثبتت دعائمها وأوضح معالمها حتى أصبحت الأجيال المتعاقبة تحرص

عليها، وتعمل على صيانتها، كما تعمل على صيانة الآثار التاريخية التي تذكرها
بماضيها، وتربطها بحاضرها ومستقبلها، وقد يكون هذا من بعض أسباب
خمود الفن والأدب^(١).

ولاشك أنه توجد في اللغة العربية كما في غيرها تعبيرات ابتذلت بكثرة
الاستعمال، وهي ما يسميه الأستاذ «ديومين، الفرنسي» «كايشيه»^(٢).
ولكن يجب أن يعرف أن هذا الابتذال عرض طارىء عليها، وأن
كثيراً منها بادية ذي بدء كانت ذات سنا وبهجة ورونق وماء تجمل في
الأذان وتنبل في الصدور، فثلها كمثل الغيد الأماليد في طراءة السن وزهو
الصبا، ثم تدول دولتها وتحول حالها بتتابع السنين، فإذا هن عجائز دميات
تقتحمهن العيون وكن فتنها، وتصدف عنهن القلوب وكن كعبتها، والله المنبي
إذ يقول :

متّعينا بحسن وجهك ماذا م فحسن الوجوه حال تحول
وفي ذلك يقول الإمام عبد القاهر: قد يسبق الأول إلى تشبيه لطيف
يحسن تأمله ويدل على ذكائه، ويشهر حتى يخرج إلى حد المبتذل وإلى المشترك
في أصله، وحتى يجرى على دقة تفصيل فيه يجرى المجمال الذي تقوله الوليدة
الصغيرة والعجوز الورها، فإنك تعلم أن قولنا لا يشق غباره الآن في الابتذال
كقولنا: لا يلحق ولا يدرك، وهو كالبرق ونحو ذلك، إلا أننا إذا رجعنا
إلى أنفسنا علمنا أنه لم يكن كذلك من أصله، وأن هذا الابتذال أتاه بعد أن
قضى زمانا بطراءة الشباب وجدة الفتاة وبغزة المنيع، ولو قد منعك جانبه
وطوى عنك نفسه، لعرفت كيف يشق مطلبه ويصعب تناوله، وأظهر منه
قولنا: «أما بعد»، منسوباً في الأصل إلى واحد بعينه وإن كان الآن في

(١) الأصول الفنية للأدب للأستاذ عبد الحميد بك حسن - ١٨٨

(٢) النثر الفني في القرن الرابع للدكتور زكي مبارك - ١ - ١٨٠

البذلة ، كقولنا هذا بعد ذاك مثلا ، وهذا الحكم في الطرق التي ابتدأ بها الأولون ، والعبارات التي لخصها المتقدمون والقوانين التي وضعوها ، حتى صارت في الاشتراك كالشيء المشترك من أوله ، والمبتدل الذي لم يكن الصون من شأنه ، والمبدول الذي يعترض دونه المنع في شيء من زمانه (١) .

ورب نفيس جلب إليك من الأمكنة الشاسعة وركب فيه النوى الشطون ، وقطع به عرض الفيافي ، ثم أخفى عنك فضله حتى جهلت قدره أن سهل مرامه واتسع وجوده ، ولو انقطع مدده عنك حتى يحتاج إلى طلبه من مظنته لعلت إحسان الجاني به إليك ، والجالب المقرب نيله عليك ، ولا كثرت من شكره بعد أن أقللت وأخذت نفسك بتلافى ما أهملت ، وكذلك رب شيء نال فوق ما يستحقه من شغف النفوس به وأكثر مما توجبه المنافع الراجعة إليه ، لأنه لا يتسع اتساع الأول الذي فوائده أعم وأكثر ووجود العوض عنه عند الفقر أعسر ، فكسبت عزة الوجود هذا عزا لم يستحقه بفضله . كما منعت سعة الآخر فضلا هو ثابت له في أصله .

أسباب الابتزال .

ويرجع الابتزال إلى أشياء تمت إلى النفس بصلة قوية .

١ - إدراك الشيء مجملا أسهل من إدراكه مفصلا ؛ لعدم احتياجها في فهمه إلى ملاحظات متعددة ؛ إذ التفصيل على أنظار كثيرة وتعريفات صعبة الإدراك ، ولذا كان العام أعرف من الخاص فإذا كان الوجه كذلك كان أمراً ظاهرة أسهل تناول .

وهذا الحكم بأسبقية الجملة إلى النفوس من التفصيل ، نعم السمع وغيره من الحواس ، ويأتي التفصيل بعد ذلك فتستبين به أشياء كانت مطوية ، ولهذا قيل : النظرة الأولى حقا .

ويأدرأ التفصيل يقع التفاضل بين راء وراء وسامع وسامع وهكذا ، وإنك في إدراك ما تراه أو تسمعه أو تذوقه كمن يلتقي الشيء من بين جملة ، وكن يميز الشيء مما قد اختلط به ، فأما حين لا يهملك التفصيل فأنت كمن يأخذ الشيء جزافاً وجرفاً .

والأمر كذلك في القلب فالجل أبدا هي التي تسبق إلى الأوهام وتقع في الخاطر أولاً ، وتجدر التفاصيل مغمورة فيما بينها ، ونراها لا تحضر إلا بعد إعمال الروية والاستعانة بالتذكر ، وكلما أوغل الفكر في التفصيل كانت الحاجة إلى التوقف والتذكر أكثر ، والعقل إلى التأمل والتمهل أشد . فلاشتراك مثلاً في الصنعة من جهة الجملة على الإطلاق يقل عن أن يحتاج فيه إلى قياس وتشبيه ، نحو كلا الشئيين أسود أو أحمر ، فإن دخل في التفصيل شيئاً احتيج بعد ذلك إلى إعمال الفكر مثل تشبيه حمرة الخد بثمرة التفاح والورد ، فإن زاد تفصيله بخصوص تدق العبارة عنه ، ويتعرف بفضل تأمل ازداد الأمر قوة في اقتضاء الفكرة وذلك مثل قول الشاعر :

كان على أنيابها كل سُحرة صياح البوازي من صريف اللوائك
فأنه أرفع طبقة من قول امرئ القيس :

كان صليل المرو حين تُشدُّه صليل زيوف يُنتقدن بعبقراً^(١)
لأن التفصيل والخصوص في صوت البازي أبين وأظهر منه في صليل الزيوف^(٢) .

٢ — الشيء مع ما يناسبه أقرب حضوراً منه مع ما لا يناسبه .
فإن هناك مناسبة بين طرفي التشبيه ، فإن هذا التناسب من شأنه أن

(١) المرو : الحجارة البيض الرقاق ، وتشده : تنجيه .

(٢) أسرار البلاغة — ١٣٠ — مواهب الفتح — ٣ — ٤٥٥

يخطر في ذهن الأشياء المتقاربة في الصفات ، لأنها من واد واحد ، والطيور على أشكالها تقع كما قال الشاعر .

فإذا استحضر الخيال بعضها حضر غيره تبعاله بلا كلفة ولا مشقة ، لوضوح وجه الشبه الذي يقضى بسرعة الانتقال من أحد المتشابهين إلى الآخر ، كتشبيه العنبة السوداء الكبيرة بالإجاصة^(١) في الشكل والمقدار واللون ، والجزرة الكبيرة بالفجلة في الشكل والمقدار .

وهذه القاعدة خاضعة لما يسميه علماء النفس : « تداعى المعانى » ، وهو ارتباط بين خاطرين يستدعى حضور أحدهما في ذهن عند حضور الآخر به ، ويسمى المعنى الداعى بالمقدم والمدعو بالتالى .

وذلك أنه لا توجد في العقل حقيقة منفردة ليس لها اتصال بغيرها من الحقائق ، ولا يلج الحواس شئ من غير أن يربط نفسه بحقيقة سابقة أو يذكر بمعنى قديم .

ومن عادة المعانى أن يدعو بعضها بعضا وتتآزر وتلتئم .

والنشاط العقلى فى أى لحظة زمنية ، هو حلقة من سلسلة متصلة هى مجرى شعور الإنسان الذى يبدأ منذ ولادته وينتهى بنهاية حياته ، فهو وحدة مستمرة وإن كانت دائمة التغير ، إذ أننا لو تأملنا فى حلقة من هذه السلسلة : أى ما يحتويه الشعور فى لحظة ما لوجدناها متصلة بالوحدة الشعورية السابقة لها ، كما أنها بدورها ذات شأن فى تعيين الحلقة التى تأتى بعدها .

وهذه العمليات الشعورية أو العقلية تستمر فى غير انقطاع ، حتى فى

(١) الإجاصة : البرقوقة .

أثناء النوم وإن كان نشاطها وقتئذ في أحط درجاته (١).

ويرى الفيلسوف دهربارت ، أن قوة دموع المدركات مثلها كمثل قوة هضم الأغذية ، فكأن الطعام بهذه القوة يستحيل إلى دم ، كذلك المعاني بتلك القوة تتأخى وتآزر ويزيل بعضها غشاوة الآخر فتمتزج معا في مادة معنوية يسيغها الدهن ويمتصها المخ ، كما تمتص الإسفنجية الماء وتوقف عليها الحياة .

ومن المعروف أن لتداعي المعاني جوامع كثيرة ، أهمها في موضوعنا هذا جامع التشابه ، كأن تكون بين الصورتين العقليتين شئ من التماثل يستدعى إحداهما إلى الحضور في الدهن ، وكلما عظم التشابه قويت الرابطة بين المعنيين وأسرع أحدهما للاتصال بأخيه (٢).

٣ — كثرة تكرار المشبه به على الحس ودورانه على الفكر في كل الأوقات أو جعلها تثبت صورتها في النفس وتجعله سريع الخطور بالبال ، لأن من عادة النفس أن تنتقل بسرعة إلى ما ألفته وأنست به قبل غيره لما بينهما من علاقة قديمة ، وهكذا يلحق التشبيه الابتدال .

فمثلا تشبيه الشمس بالمرأة المجلوة في الاستدارة والإستدارة لا يخلو من التفصيل ، ولكن كثرة شهود المرأة وتكررها على الحس أوجب ابتدالها ، لأن كل شبه يرجع إلى وصف أو صورة أو هيئة من شأنها أن تحس أبدأ ، فالتشبيه المعقود عليها نازل مبتذل ، وما كان بالضد من هذا وفي الغاية القصوى من مخالفته ، فالتشبيه المردود إليه غريب نادر بديع . ثم تتفاضل التشبيهات التي تجيء واسطة لهما من الطرفين بحسب حالها منهما ، فمما كان منها إلى الطرف الأول أقرب فهو أدنى وأنزل ، ومما كان

(١) مبادئ علم النفس التعليمي - ٩٤ .

(٢) علم النفس وآثاره في التربية والتعليم - ١٤٧ إلى ١٥٠ - الفرائز - ٩٤ - ٩٥ .

علم النفس الأدبي - ٣٩ إلى ٤٢ - علم النفس التعليمي - ١٣٢ .

إلى الطرف الثانى أذهب ، فهو أعلى وأفضل وبوصف الغريب أجدر .
٤ - استحضار الأمر الواحد أبسر من استحضار غير الواحد ،
وهذا الأصل له علاقة بالأصل الأول بالتفصيل والإجمال ، ومن هنا كانت
وحدة الجبهة بين الطرفين تسقط التشبيه عن درجة الاعتبار كتشبيه الزنجى
بالفحم ، لأن المتعدد صعب الاستحضار بخلاف الواحد الداعى إلى القرب .
ومما يلاحظ أن قدامة (١) يؤمن بقرب التشبيه الذى يدنى إلى الاتحاد
بين الطرفين .

ولهذا رأيناه يعد قول امرئ القيس :

له أيتلاظي وساقا نعاماً وإرخاء سرحان وتقريب تتفل
من أحسن التشبيهات .

وهذا تشبيه أعضاء بأعضاء هى بعينها ، وأفعال بأفعال هى أيضاً
بعينها إلا أنها من حيوان مختلف .

والأمر كما قال فى قرب التشبيه إلا أن فضل الشاعر فيه غير كبير حينئذ
لأنه كتشبيه نفس الشيء ، وإنما حسن التشبيه أن يقرب بين البعيدين حتى
تصير بينهما مناسبة واشتراك كما قال الأشعري :

كأن أزيز الكير إرزام شخبها إذا امتاحها فى محلب الحى ماتح
فشبه ضرع العنز بالكير ، وصوت الحلب بأزيزه ، فقرب بين الأشياء
البعيدة .

ولو كان الوجه ماقال قدامة لكان الصواب أن يشبه الأشعري ضرع
عنزه بضرع بقرة حتى تتناسب أو خلف ناقة ، لأنه إنما أراد كبره وكثرة
ما فيه من اللبن ، وكان يعدل عن ذكر الكير وأزيزه الذى دل به على أعظم
ما يكون من كبر الضرع وكثرة لبنه (٢) .

الفصل الثالث عشر

قيمة التشبيه البعيد الغريب

للتشبيه البعيد الغريب في النفس وقع شاج يتغلغل إلى قراراتها ، ويهز أحق أوتارها ، ويلبس مكان الطرب والاستحسان منها ، لأنه هبط عليها من أفق عال لا تستطيع أن ترتفع إليه بقوتها الذاتية ، وأطل عليها من نافذة سحرية لم تكن تترقب أن تطالعه منها .

والنفس مجبولة على أن تهش لمثل هذا العزيز النادر الذي ترى فيه اتساعاً لمداركها ، وتوشية لخيالها ، وامتداداً لصلتها بالكائنات ، وترويحاً لكدها ولغوبها ، وهد هدة لهما وانقباضها ، برؤية الصور الجميلة المونقة من أثقال الحياة وأوزار العيش .

ثم هي إلى ذلك تشعر بما يشعر به الصائد عند الظفر بصيد ثمين بعد طول المصابرة وإنفاذ الجهد ؛ فإن سروره بما لم يكن يقع في حسابه لا يعدله إلا طول الحنين إلى نيله ، وفرط الصبابة بالحصول عليه ، ومقاساة اللوعة في ترقب اقتناصه ، ولولا تفاوت الكلام في دقة معناه ولطف ترتيبه وملاحة تركيبه واحتياج العقول إلى هتك أستاره عن أسرار الخفية ، لما كان لكلام فضل على كلام ، ولتساوى في الفضل جميع الأنام ، ورحم الله الجاحظ إذ يقول : وأين تقع لذة البهمة بالعلوفة ، ولذة السبع بلطع^(١) الدم وأكل اللحم ، من سرور الظفر بالأعداء ، ومن انفتاح باب العلم بعد إدمان قرعه .

(١) اطعم الدم . شربه .

وفي هذا يقول القطامي :

وهن يَبْذَن من قول يُصْبَن به
ويقول ابن الزيات في أبي تمام :

رأيتك سمح البيع سهلاً وإنما
فأما إذا هانت بضائع بيعه
هو الماء إن أجمته طاب ورده

ويقول العسكري :

بقدر الصباية عند المغيب
وأطيب ما كان برد الثغور

ويقول ابن وكيع :

قالوا عشقت كثير التيه ممتنعا
لو جاد هان وقلت الجود غايته

ويقول آخر :

لولا أطراد الصيد لم تك لذة
هذا الشراب أخوال الشباب وماله

وما نقرؤه في تاريخ الأدب من تهلل الخلفاء والملوك والأمراء لسماع
بيت من الشعر لشاعر غواص على المعاني الدقيقة ، رسام للصور المبكرة ،
نساج للديباجة الفاخرة ، فيزحف بعضهم عن دسنة آونة ، ويجلس من اتكاه
مرة ، ويقوم من قعود أخرى ، وينادى بعضهم : أحشوا فاه دراجينا ، وإنما
هو الطرب لهذا البزّ النفيس يحلبه الشاعر من سوقه إلى سوقهم ، والانبهار

بهذه القدرة على استئزال المعاني النافرة العصية من سمائه إلى أرضهم ، والبهجة بهذا التوفيق الخارق في التأليف بين أشياء يرونها بعيدة كل البعد ، ويراها قريبة كل القرب .

إن ما يميز الفنان العظيم هو إحساسه الأصيل بالأشياء ، وهذه الأصالة لا ترجع إلى الإدراك الأسهل والأرهم والأسرع ، ولكن إلى الفكر الأوسع المنظم المملوء بالفلسفة ، وإلى قوة الاستقراء والتعميم التي تجعله يستخرج من الشيء المدرك كل المعاني المبهمة الغامضة التي كان يحويها .

لذلك كانت عظمة العباقرة كما يلاحظ ، رسكن ، تظهر في طريقتهم في النظر إلى التفاصيل .

إنهم في نفس الوقت يدركون فيه الطابع المميز للشيء يدركون جميع ملامح الجمال التي يشترك فيها هذا الشيء مع مراتب من الوجود أعلى وأرفع ، أفليس هذا الإدراك للتشابه الكلي في الاختلاف الكلي هو بعينه ما كان يطلق عليه ، لينتس ، اسم الإحساس الفلسفي الحقيقي (١) .

ألست ترى السحر عيانا بيانا في قول ابن طباطبا يهجو علي بن رستم :
أنت أعطيت من دلائل رسل الله م آيا بها علوت الرءوسا

جئت فرداً بلا أب ويمنّا ك بياض فأنت عيسى وموسى
فقد رماه بأنه دعي وهو أحش ما يهجي به إنسان ، وغيره بالبرص وهو
أخبت الأدوية المنفرة المعضلة ، ثم غاص غوصة في أغوار الفكر خرج
بعدها بكرة فائقة لا تقع إلا للآحاد في الزمن المتطول ، وهي تشبيهه بنبيين
من طواويس الأنبياء ، خصا بمعجزات باهرة خرقت العوائد ! فكيف أتيج
لهذا الشاعر أن يلعب بعقولنا ويلهو بعواطفنا ، فيلبس الظم في أشبع شياته
لباس المدح في أبهى سمائه ! فهل حام في خيالك - وأنت تقرأ البيت الأول

أن الشاعر يتخلص منه إلى هذا المعنى العجيب: هجاء إنسان أشد الهجاء ، بأنه
نبي من الأنبياء !

وأنت ترى كل يوم الصلحان من الناس — ولعلك واحد منهم —
وتشاهد كيف يتجفّ الصلح شعورهم تدريجاً فيمتد يياض جباههم على مدى
الأيام ، وينقص سواد رؤوسهم شيئاً فشيئاً ، ولكن هل أتيح لك أن ترسم
هذه الصورة التي رسمها ابن الرومي :

يجذب من نقرته طُرةً إلى مدى يقصر عن نيله
فوجهه يأخذ من رأسه أخذ نهار الصيف من ليله
واسمع قوله أيضاً يشبه القواداة بالمقص :

تسعى لكي تجمع وسطها كأنها مسبار مقراض
فهل يمكن أن توصف القواداة بأبلغ وأدق وأوضح وأوجز من هذا
المعنى ! مسبار مقراض بضم ومطين !

أليست هذه الصورة من نوادر ما يقذفه الشيطان على ألسنة الشعراء أحياناً !
قد كان مبلغ الشعراء أن يشبهوا القواداة بالخر في تيسيرها عسر النساء
كما يقول بعضهم .

لقد لقبوا الراح بالعجوز وما تخرج ألفاظهم عن العادة
ألانت الغادة التي امتنعت فصيح أن العجوز قواده
ولكن أين هذا المعنى من ذاك ! أين سنبلة الأرض من سنبلة السماء !
وقد أكثر الشعراء من وصف الخال فأحسنوا وأجادوا ، ولكن هل
استطاعوا مجتمعين أن يقولوا فيه مثل قول ابن حمديس :

ياسالبا قر السماء جماله ألبستني الحزن ثوب سمائه
أضرمت قلبي فارتى بشرارة وقعت بخدك فانطقت في مائه

ما الذى يقوله هذا الشاعر ؟ .

يقول : إن محبة سحر قلبه ناراً ، فطار منه شرارة وقعت على خده
الغض البض ، فانطقات في مائه ، فاستحالت فوقه نقطة سوداء !
وهل تلد النار غير الرماد ، وهل يسلم من يلعب بالنار من أن
يحرقه الشرار ١٩ .

ألمست ترى أن الشاعر قد أبدع في جمعه بين الماء والنار ، وأنه علل
فأحسن التعليل !

ثم انظر إلى قول المتنبي :

كأن الهام في الهيجا عيون ، وقد طبعت سيوفك من رقاد
شبه الرءوس في الحرب بالعيون ، والسيوف بالرقاد ، والرقاد لا ينزل
عادة إلا العيون كما قال عبد المطلب بن هاشم :
كالنوم ليس له مأوى سوى المقل .

فكذلك هذه السيوف لا تجد محيداً عن الهام ، فلا تنزل إلا فيها .
ولا توصف السيوف في إصابة المقاتل بأبرع من هذا .
وليس كل شاعر يستطيع أن يأتي بهذا المعنى الدقيق اللطيف ، بل إن
هذا المعنى في فهمه محوج إلى فسكر دقيق لطيف .

ولكن مامدى هذا البعد ؟

أهو الاستغلاق والغموض بسبب الوحشية والغرابة والمعاظلة
وهو التعقيد اللفظي ؟

أهو تعسر الانتقال من المعنى الأول إلى المعنى الثانى المراد من اللفظ ،
وهو المسمى بالتعقيد المعنوى ؟

أهو عدم التلائم بين الطرفين فيدفع أحدهما في قفا الآخر ويصنك
وجهه وينادى بالبراءة منه ؟

إن هناك بعداً يرجع إلى عمق المعاني وخصبها واكتنازها وطرافتها وترتيب بعضها على بعض ، ودقة المسلك في التقاط الشبه من نواح تعز على غير الفكر اللهاج والنظر النافذ ، فترى الصلة بين الطرفين واضحة وضوح الشيء المتعين في مكانه ، ولكنك مع هذا تؤمن بأنها صلة غريبة لأنها لم تكن تخطر لك على بال ، وكيف لا تكون غريبة وأنت ترى الشئيين المختلفين وضعاً موضع المؤلفين !

وهذا الحسن تجده في الألوان أيضاً ، فلا شك أن الألوان المتباينة إذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة ، ولهذا كان الياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة لقرب ما بينه وبين الأصفر وبعد ما بينه وبين الأسود ، وهذه هي العلة في حسن النقوش إذا مزجت من الألوان المتباعدة ولهذا جاء قول الشاعر :

فالوجه مثل الصبح مبيض والشعر مثل الليل مسود
ضدان لما استجمعا حسنا والضد يظهر حسنه الضد^(١)

وهناك بعد أقرب من القرب ، ولكنه اختفى في ظلام دامس من رداء الصنعة ، وسوء الفسح ، ووهن الربط ، وفساد المقايسة ، فأفته من معرضه الذي نص فيه ، وصورته التي تقمصها .

ومع هذا يجب أن يكون معروفاً أن هذا البعد الحمود الذي نعتيه ، ليس هو الإفراط في التدقيق حتى تأق بما يجهد ذهن الخاصة ويسمو على متناول أفهامهم ، فالشأن — كما يقول عبد القاهر — : إن لم أرد هذا الحد من الفكر والتعب وإنما أردت القدر الذي يحتاج إليه في نحو قوله :

فإن المسك بعض دم الغزال

فأنت تعلم على كل حال أن هذا الضرب من المعاني كالجوهر في الصدف لا تبرز لك إلا أن تشقه عنها ، وكالعزيز المحتجب لا يريك وجهه حتى تستأذن عليه ، ثم ما كل فكر يهتدى إلى وجه الكشف عما اشتمل عليه ، ولا كل خاطر يؤذن له في الوصول إليه ، وما كل أحد يفاجئ في شق الصدفة ويكون في ذلك من أهل المعرفة ، كما ليس كل من دنا من أبواب الملوك فتحت له ^(١) ومذهب عبد القادر هذا لا يزال هو المذهب السائد حتى عصرنا الحاضر ، فهذا الدكتور طه حسين باشا يقول : كنت أقرأ في كتاب « لبول فاريري » عن « مالارميه » ، فإذا بيول فاريري عندما أراد أن يحدد الشعر يقول : إن الشعر هو الكلام الذي يراد به أن يحتمل من المعاني ومن الموسيقى أكثر مما يحتمل الكلام العادي .

والشاعر المجيد حقا يمتاز من غير المجيد : بأنه إذا تحدث إليك لم يتمكنك أن تسير معه كما تسير مع نفسك ، وإنما يضطرك أن تفكر وأن تجهد نفسك في أن تفهمه وتفهمه معه ، فأبو تمام هذا هو الشاعر الذي يأتيك بأشياء لا تتكاد تسمعها حتى تأخذك الدهشة ، وإذا أنت قد خرجت عن طورك واضطرت إلى أن تفكر مع الشاعر وإلى أن تسير معه . ^(٢)

وقد كشف عبد القاهر عن هذا البعد وبين حدوده وقيوده بقوله : واعلم أني لست أقول لك : إنك متى آلفت الشيء يبعيد عنه في الجنس على الجملة ، فقد أصبت وأحسن ، ولكن أقول بعد تقييد وبعد شرط ؛ وهو أن تصيب بين المختلفين في الجنس وفي ظاهر الأمر شيئا صحيحا معقولا ، وتجدها للبلاءمة والتأليف السوي بينهما مذهبا وإلهما سييلا ، وحتى يكون اختلافهما الذي يوجب تشبيهك من حيث العقل والحدس في وضوح اختلافهما

من حيث العين والحس، فأما أن تستكره الوصف وتروم أن تصوره حيث لا يتصور فلا ؛ لأنك تكون في ذلك بمنزلة الصانع الأخرق يصنع في تأليفه وصوغه الشكل إثنين شكلين لا يلائمانه ولا يقبلانه حتى تخرج الصورة مضطربة ويحىء فيها تنوء ، ويكون للعين من تفاوتها نبوء ، ولم أرد بقولي : إن الخدق في إيجاد الائتلاف بين المختلفات في الأجناس ، أنك تقدر أن تحدث هناك مشابهة ليس لها أصل في العقل ، وإنما المعنى أن هناك مشابهات خفية يدق المسلك إليها ، فإذا تغلغل فكرك فأدركها فقد استحققت الفضل ، ولذلك يشبه المدقق في المعاني بالغائص على الدرر .^(١)
فتلا قول جرير في الأخطل :

والتغلي جنازة الشيطان

من البعيد المرغوب عنه لغموض معناه حتى عدوه من الغي كما يقول
المرزباني^(٢) .
وكذ قول أبي نواس :

وإذا ما الماء واقعا أظهرت شكلا من الغزل

لؤلؤات ينحدرن بها كأنحدار الذر من جبل

شبه الحب في انحداره بنمل صغار تنحدر من جبل ، وهذا من البعد
على غاية لا يحتاج إلى بيان وإيضاح^(٣) .
وقول بعض الشعراء :

ملا حاجيك الشيب حتى كأنه ظباء جرى منها سنيح وبارح

فالتشبيه في غاية البعد لفقد الملائمة بين طرفيه ، فأى علاقة بين شيب

الخواجب ، وبين الظباء التي يجرى بعضها يمينا وبعضها شمالا !

(١) أسرار البلاغة - ١٢٠ - ١٢١ .

(٣) ثمار القلوب - ٣٩

(٣) النثر السائر - ١٦٤

(٢) الموشح - ١١٨

ولكن انظر كيف شبه إسحاق الموصلي أباريق الخمر بالظباء فأجاد التشبيه في قوله :

كَأَنَّ أَبَارِيقَ الْمَدَامِ لَدَيْهِمْ ظَبَاءٌ بِأَعْلَى الرِّقَّتَيْنِ قِيَامٌ
وَقَدْ شَرَبُوا حَتَّى كَانُوا رِقَابَهُمْ مِنَ اللَّيْنِ لَمْ تَخْلُقْ لَهُنَّ عِظَامَ
فهذا من البعيد القريب معا .

ثم انظر إلى البعيد المخترع في قول ابن الرومي :

مَدِيحِي عَصَى مُوسَى وَذَلِكَ أَنِّي ضَرَبْتُ بِهِ بَحْرَ النَّدَى فَتَضَحَضَحَا
فِي أَلِيتْ شَعْرِي إِنْ ضَرَبْتُ بِهِ الصَّفَا أَيْبَعْتُ لِي مِنْهُ جَدَاوِلَ سُبْحَا
كَتَلَكِ الَّتِي أُنَدْتُ رِيَّ الْأَرْضِ يَا بَسَا وَأَبَدْتُ عَيُونَنَا فِي الْحِجَارَةِ سُفْحَا
سَأَمَدَحُ بَعْضَ الْبَاخِلِينَ لَعَلَّهُ إِنْ أَطْرَدَ الْمَقْيَاسُ أَنْ يَتَسَمَّحَا

* قال الثعالبي : ولولم يفترع غير هذا المعنى البكر لكان أشعر الناس ، إذ شبه مديحه بعضا موسى التي ضرب بها البحر ، فيبس وضرب بها الحجر فانجس ، وذلك أن ابن الرومي مدح جوادا فيخل ، فقال سأمدح بخيلا فلعله أن يجود على هذا القياس .

سبب البعر .

قد منا أن البعد والغرابة في التشبيه ترجع إلى خفاء وجه الشبه في بادي الرأي ، فيحتاج الأمر إلى إمعان وتدبر في استخراج ما يكمل به القصد .

وهذا الخفاء يرجع إلى أشياء كثيرة :

١ — كثرة التفصيل في وجه الشبه ، وهو أن يكون أمورا كثيرة بعيدا كل منها عن الآخر في الخيال كما في تشبيه سقط الزند بعين الديك في الشكل واللون ، وكتشبيه الإنسان بالخنفساء في اللجاج .

وكقول الراجز — ^(١) وهو من بديع ما قيل في انقلاب الشمس عند الغروب ^(٢) — :

صب عليه قانص لما غفل والشمس كالمرآة في كف الأشل
وفي رواية :

والشمس كالمرآة في كف الأشل لما رأيتها فوق الجبل
وهو يشبه الشمس بذلك عند طلوعها ^(٣) .

والشبه على كل حال يصلح للشمس في حال الشروق والغروب .
وجه الشبه : الهيئة الحاصلة من الاستدارة مع الإشراق ، والحركة السريعة المتصلة مع تواج الإشراق واضطرابه بسبب تلك الحركة ، حتى يرى الشعاع كأنه يهيم بأن ينبسط حتى يفيض من جوانب الدائرة ، ثم يدوله فيرجع من الانبساط الذي تراه إلى انقباض كأنه يجمع من جوانب الدائرة إلى الوسط ، فالشمس إذا أحد الإنسان النظر إليها ليتين جرمها وجدها مؤدية إلى هذه الهيئة ، وكذلك المرأة في كف الأشل .

ومثله عند العسكري قول أبي النجم

وضارت الشمس كعين الأحول

ومن ذلك قول المعوج الشاعر في معناه :

كأن شعاع الشمس في كل غدوة على ورق الأشجار أول طالع
دنانير في كف الأشل يضمها لقبض قهوى من فروج الأصابع
وهو مأخوذ من قول أبي الطيب :

وألقى الشرق منها في ثيابي دنانيراً تفرّ من البنان

(١) اختلف فيه فقيل : الشاح أو ابن أخته أو ابن المعتز أو أبو النجم . معاهد التنصيص

— ١٤٤ — (٢) ديوان المعاني — ١ — ٣٥٩

(٣) بغية الإيضاح للأستاذ عبد المتعال الصعیدی — ٣ — ٢٤

(٤) الشرق : الشمس .

وقول القاضي الفاضل :

والشمس من بين الأرائك قد حكت سيفاً صقيلاً في يد رعشاء

وقول التلعفري :

أفدى الذى زارنى فى الليل مستتراً أحلى من الأمن عند الخائف الدهش

ولاحت الشمس تحكى عند مطلعها مرآة تبردت فى كف مرتعش

وقول إدريس بن اليماني العبدى :

وكان النجم حين بدا درهم فى كف مرتعش

ونقله بعضهم إلى معنى آخر فقال فى الخبر :

كانت سراج أناس يهتدون بها فى سالف الدهر قبل النار والنور

تهتز فى الكأس من ضعف ومن هرم كأنها قبس فى كف مقرر

٢ — ندرة حصول المشبه به فى الذهن إما عند حضور المشبه لبعده

المناسبة بينهما كما مر فى تشبيه البنفسج بنار السكبريت .

ولما مطلقاً : أى بصرف النظر عن حضور المشبه ؛ لكونه مركباً خيالياً

كالنار نجمة وشمس من عقيق فى سماء زبرجد ، أو وهماً كأنياب الأغوال ، أو

عقلاً كاللهود والحمار يحمل الأسفار .

وقد تكون الندرة لقلة تكرره على الحس كما سبق .

وذهب الخطيب : إلى أن ندرة حضور المشبه فى الذهن موجبة للغرابة

على الإطلاق ولو كان الوجه جليلاً لتفصيل فيه ، وقد يكون الإجمال حيناً

أبلغ من التفصيل لتذهب نفس السامع فيه كل مذهب كما سبق فى

باب الإنجاز (١) .

أنواع التفصيل .

وأنواع التفصيل في وجه الشبه الموجبة للغرابة له كثيرة العدد ، وقد ذكر الدسوقي : أنها تبلغ اثني عشر نوعاً (١) .

وذكر عبد القاهر : أن القسمة في التفصيل موضوعة على الأغلب الأعراف ، وإلا فدقائقه لاتكاد تضبط (٢) .

وأعرف هذه الأنواع ثلاثة :

١ - أن تأخذ بعض الأوصاف وتدع بعضها الآخر كقول امرئ القيس :

حملت رُدينياً كأن سنانه منا لهب لم يتصل بدخان
فإن الشاعر عمد إلى تفصيل دقيق جميل لا يمكن أن يسبح بديهته في الخاطر من غير تفكير ولا تروفيه ، فهو قد عرف بعد الثبوت والموازنة بين الأصل والفرع أن سنان الرمح لا يشبه اللهب على إطلاقه ، لأن اللهب لا ينفك عن دخان يخالطه ، فرأى أن ذلك يقدح في حقيقة التشبيه ويُلَمِّ كماله ، وإذن فلا مناص من استثناء الدخان ونفيه عن السنان ؛ لأنه لا يوجد في رأسه ما يشبهه وبذلك تم التشبيه من غير عيب لحقه .

وإنك لتحس الفرق واضحاً بين البيت المتقدم وبين قول عنتره العبسي :

يصف حملة ورد بن حابس على فضلة الأسدى :
يتابع لا يبتغي غيره بأبيض كالقيس الملتهب
مع أن المشبه به واحد فيهما وهو شعلة النار ؛ لأن الأول فصل حين استثنى الدخان ، والثاني أجمل بترك الاستثناء .

ومثل قول امرئ القيس قول السرى الزقاء يصف الخمر :

كأن الشُّرب ينتهبون ناراً لها لهب وليس لها دخان

وقول النخري :

أهدى لنا برداً يلوح كأنه في الجو حبّ لآلء لم يثقب
أو ثغر حواء اللّثات تبسمت عن واضح مثل الأقاليم أشنب
وهذا النوع يسمى « الإيغال » في علم المعاني ، وهو أن يستوفي الكلام
معناه قبل البلوغ إلى مقطعه ، ثم يأتي المقطع فيضيف إليه معنى آخر يزيد به
وضوحاً وشرحاً وتوكيداً حسناً .
ومن ذلك أيضاً قول امرئ القيس :

كأن عيون الوحش حول خيائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب
فقد أتى على التشبيه كاملاً قبل القافية ، وذلك أن عيون الوحش شبيهة
بالجزع ، وهو خرز يمني صيني فيه سواد وبياض تشبه به الأعين .
ثم لما أتى بالقافية أو غل بها في الوصف وجوده وأكده بقوله : لم
يثقب وهي بالجزع الذي لم يثقب أدخل في التشبيه لأن عيون الوحش غير مثقبة .
وقول زهير من معلقته :

كأن فتات العن في كل منزل نزلن به حبّ الفنا لم يحطم
فالعن : الصوف الأحمر ، والفنا : حب أحمر تنبته الأرض وإذا كسر
أيضاً ، فاستظهر في القافية لما أن جاء بها بأن قال : لم يحطم .
فأكد التشبيه بإيغاله في المعنى .

وقد سئل الأصمعي من أشعر الناس ؟

قال : من يأتي إلى المعنى الخسيس فيجعل بلفظه كبيراً ، وإلى الكبير فيجعله
بلفظه خسيساً ، أو ينقضي كلامه قبل القافية فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى نحو
قول ذي الرمة :

قف العيس في أطلال مية فاسأل رسوما كأخلاق الرداء المسلسل
فتم كلامه بالرداء قبل المسلسل ، ثم قال : المسلسل فزاد شيئاً .

وقوله :

أظن الذي يُجدي عليك سؤاها دموعا كتبت يد الجمان المفصل
فتم كلامه بالجمان ، ثم قال : المفصل ، فزاد شيئا ^(١) .
ومن ذلك قول حسان :

كان ريحهم في الناس إذ خر جوا ربح الكلاب إذا مامسها المطر
فاستوفى المعنى عند قوله : ربح الكلاب .

ثم قال : إذا مامسها المطر فجاء بتميم حسن . ^(٢)
والكلاب تزداد رائحتها خبثا بالبلل ، قال الشاعر :

يزداد نفا على المديح كما يزداد نفن الكلاب بالمطر

٢ — أن يكون التفصيل بالنظر إلى خاصة في بعض الجنس كالتي تجدها
في صوت البازي وعين الديك حين تشبه صوت الناقة بالأول والخر الصافية
بالثانية ، فليس كل صوت يشبه صوت البازي لأن له صرصرة متميزة يعرف
بها ، وليست كل حمرة كحمة عين الديك ، لأن حمرتها رقيقة ناصعة ،
وسوادها صاف براق .

٣ — أن يكون التفصيل بأخذ الأوصاف جميعها التي يتألف منها التركيب
في المعنى ، فنظر إليها في المشبه على جهة التقصى ثم تطلبها في المشبه به كذلك
حتى تعثر على وجه الشبه كاملا كقول ابن وكيع التميمي في البلح :

أما ترى النخل طارحا بلحا جاء بشيرا بدولة الزطب
كأنه والعيون تنظره إذا بدا زهره على القضب
مكاحل من زمرد خرطت مقمعات الرموس بالذهب

فهو قد نظر من البلح إلى الحجم والقمة والهيئة واللون الجزئي ، ثم قصد له

مثالا فوجده في المساحل المخروطة من الزمرد المقمعات الرموس بالذهب بخلاف قول عبد الصمد فيه .

كأنه في ناصر الأغصان زمرد لاح على تيجان
فإنه لم ينظر لغير الاشتراك في اللون الأخضر .
وقد مرت بك أمثال كثيرة من هذا النوع في مراعاة وجه الشبه .

كرة التفصيل أفضل .

ويتفاوت التفصيل في الأفضلية فما نظر فيه إلى ثلاثة أشياء أو ثلاث
جهات أفضل مما نظر فيه إلى شيئين أو جهتين ، وما نظر فيه إلى شيئين
أو جهتين أفضل مما نظر فيه إلى شيء واحد أو جهة واحدة .
وذلك كقول الناجم :

نخذها مشعشة قهوة تصب على الليل ثوب النهار
ويسبلها الخد جريالها فتهديه للعين يوم الخمار
وقول العسكري :

شقائق كناظر الخمور وأقحوان كشور الحور
وزجس كأنجم الديجور

فذكر الأول حمرة العين عند الخمار فقط ، وأما الثاني ، فشبه ما يعترى
بياض العين والخالق من الحمرة عند الخمار مع سواد الحدقة بحمرة الشقائق ،
فاعتبر عدة أشياء في الطرفين .
وقول بعضهم في الرمان :

لله رمانة من فوق دوحها مثالها بيدع الحسن منعوت
فالقشر حق نضار ضم داخله والشحم قطن له والحب ياقوت
وقال آخر :

رمانة صبغ الزمان أديمها فتبسمت في خضرة الأفنان

فكأنما هي حُقة من صندل قد أودعت خرزا من المرجان
فالأول راعى أربعة أشياء وهي حق من الذهب مضموم الداخل ،
والشحم المشبه بالقطن ، والحب المشبه بالياقوت .
والثاني راعى شيئين فقط ، وهما حقة الصندل والحب المرجاني .
وقول ابن هانيء الأندلسي :

كأن عمود الصبح خاقان عسكر من الترك نادى بالنجاشي فاستخفى
وقول حازم الأندلسي :

كأن بياض الصبح معصم غادة جنت يدها أزهار زهر الدجى لقطاً
فالأول اقتصر على ذكر البياض المتمثل في خاقان الترك ، وذكر السواد
التمثل في نجاشي الحبشة ، وكأنه قال : إن بياضاً صاح بالسواد فاخفى ،
على أن تشبيه الصبح والليل بالخاقان والنجاشي مطروق .

أما الثاني فقد تصرف وأكثر من التفصيل ، فبياض الصبح معصم غادة ،
والدجى حديقة أزهارها النجوم ، وكف الغادة البيضاء تنحى على هذه
الأزهار فتلقطها واحدة بعد أخرى ، وهو المناسب لطلوع الصبح وأفول
النجوم ؛ لأنها لا تحتق مرة واحدة ، بل تزول مع الظلام شيئاً فشيئاً لا كما
يفيده قول ابن هانيء .

ومن الاستقصاء في التفصيل قول ابن المعتز :

كأننا وضوء الصبح يستعجل الدجى نطير غراباً ذا قوادم جون
شبه ظلام الليل حين يظهر فيه الصبح بأشخاص الغربان ، ثم شرط أن
تكون قوادم ريشها بيضاء ، لأن تلك الفرق من الظلمة تقع في حواشيها من
حيث يلي معظم الصبح وعموده لمع نور يتخيل منها في العين كشكل قوادم
إذا كانت بيضاء .

وتمام التدقيق والسحر في هذا التشبيه في شيء آخر ، وهو أنه جعل ضوء الصبح لقوة ظهوره ودفعه لظلام الليل كأنه يحفز الدجى ويستعجلها ولا يرضى منها بأن تتمهل في حركتها .

ثم لما بدأ بذلك أولا اعتبره في التشبيه أخيراً ، فقال : نظير غرابا ولم يقل غراب يطير مثلاً ، وذلك أن الغراب وكل طائر إذا كان واقعا به هادئاً في مكان فأزعج وأخيف وأطير منه ، أو كان قد حبس في يد أو قفص فأرسل كان ذلك لا محالة أسرع لطيرانه وأجمل وأمد له وأبعد لأمدته ؛ فإن تلك الفزعة التي تعرض له من تنفيره أو الفرحة التي تدركه وتحدث فيه من خلاصه وانفلاته مما دعته إلى أن يستمر حتى يغيب عن الأفق وبصير إلى حيث لا تراه العيون ، وليس كذلك إذا طار عن اختيار لأنه يجوز حينئذ أن يصير إلى مكان قريب من مكانه الأول وألا يسرع في طيرانه بل يمشى على هينة ، ويتحرك حركة غير المستعجل .

وجملة القول أنك ما زدت في التشبيه على مراعاة وصف واحد وجهة واحدة ، فقد دخلت في التفصيل والتركيب وفتحت باب التفاصيل ثم تختلط المنازل في الفضل بحسب الصورة في استنفادك قوة الاستقصاء أو رضاك بالعفو دون الجهد (١) .

الفصل الرابع عشر

رفع الابتدال عن التشبيه

ليس الابتدال مما يصحب التشبيه دائماً وأبداً كالأعراض المعضلة التي تستعصى على الطب ، ولكنه سقم طارئ يمكن علاجه ، ففي قدرة البليغ الحاذق أن يضيف على التشبيهات المبتدلة معارض من نسجه الموشى أو أشعة من خياله الفضفاض ، أو يتصرف فيها نوعاً من التصرف بنقلها من جهة إلى أخرى ، أو يضيف إليها نكتة بيانية ، فينقلها من ذل الابتدال إلى عز الصيانة ، ومن ضعة القرب إلى شرف البعد .

ووسائل ذلك كثيرة منها :

١ - أن يأتي بالتشبيه مطوياً أو مشاراً إليه كقول الناجم :

طالبت من شرد نوى وذعر بقلة تحسن في القلب الأثر
فقال لي مستعجلاً وما انتظر ليس لغير العين حظ في القمر

فهو يسوى نفسه بالقمر في أن المتعة به مقصورة على العين فقط ، فجاء بالتشبيه ضمياً لا شتراكهما في هذه الصفة فأثبت له ضمناً أنه قمر ، وبذلك أخرج التشبيه عن دائرة الابتدال ، لأن التشبيه بالقمر لا كتبه الألسن من القديم ويقول ابن بسام في قول ابن دراج القسطلی :

حتى بدا الصبح مشمطاً ذوائبه يطارد الليل موشياً أكارعه
الأكارع : الأطراف .

أصاب في الإشارة إلى التشبيه لأنه أوماً إلى أن الصبح كالثور الوحشي

وهو أبيض ، والثيران الوحشية كلها بيض وأكارعها موشية خاصة ^(١) .
ويقول الشهاب الخفاجي في « الإيماء » ^(٢) : وهو إما إيماء إلى التشبيه
كقوله :

جاءوا بمذق هل رأيت الذئب قط

أو إيماء إلى غيره .

وكنتم قبل هذا سميت طيف الخيال ، وهو أن يرسم في لوح فكرك
معنى صورته يد الخيال فتصبه في قالب المتحقق ، وترمز إليه بجعل رواده
وآثاره محسوسة ادعاء ، كما أن ما يلقي إلى المتخيلة في المنام يرى كذلك .
ولا يلزم من ابتناؤه على الكناية والتشبيه أن يعد منهما لأمر ما يدر به من له
خبرة بالبديع .

وفي كتاب الإشارة لابن عبد السلام : من المجاز تنزيل المتوهم منزلة
المتحقق .

ومن أمثاله قول المنازى ^(٣) :

سقاء مضاعف الغيث العميم	وقانا لفحة الرضام واد
حنو الرضعات على القطيم	نزلنا دوحه فحنى علينا
ألد من المدامة للنديم	وأرشفنا على ظمأ زلالا
فيحجبها ويأذن للنسيم	يصد الشمس أنى واجهتنا
فتلمس جانب العقد النظيم	يروع حصاه حالية العذارى

شبه الحصى بالدر ضمنا .

وقول المعري في درعياته :

إن يرها ظمآن في مهمه يسألك منها جرعة للفم

(١) الذخيرة - ١ - ٦٩ (٢) طراز المجالس - ٤

(٣) الصحيح أنه لجدونة الأندلسية كما يحققه أبو جعفر الأندلسي . خزائن الأدب للعموى

وقوله :

وقد أهوت إلى درعى لميس لئلا من جوانبها الإداوة (١)
شبه الدرع بالماء فى صفائها ولألاها ضمنا .
وقول غالب الحجام فى ملىح يلعب بتفاحة :

عائنته وبكفه تفاحة قد ألبست من وجنتيه بردها
يرمى بها فى وجهه ويظنها من خده سقطت فيبقى ردها
شبه التفاح بالخذ ضمنا والتشبيه مقلوب .

وقول البديع :

إذا اقتنصت منه خراسان لفظه أماطت نساء الحى در الخاق
أى استغنت النساء بدر لفظه عن در عقودها .
ومن بدائع هذا النوع :

قول المتنبي :

رأت وجهه من أهوى بليل عواذلى فقلن نرى شمسا وما طلع الفجر
وقوله :

ولما التقينا والنوى ورقينا غفولان عنا ظلت أبكى وتبسّم
فلم أر بدرا ضاحكا قبل وجهها ولم تر قبلى ميتا يتكلم
وقول الثعالبي :

وكأن بابل أصبحت فى جفنه وكأنما الأهواز فى شفتيه
يؤمى إلى أن جفنه ساحر ، لأن بابل موطن هاروت ، وداروت ،
ملكى السحر .

وإلى أن ريقه حلو كالسكر ، لأن الأهواز معروفة بالسكر .

وقد ذكر المرزباني ^(١) : أنه مما وقع كالإيماء قول الفرزدق :
 ضربت عليك العنكبوت بنسجها وقضى عليك به الكتاب المنزل
 وتأويل الشعر : أن بيت جرير في العرب كالبيت الواهي الضعيف .
 وقوله : قضى عليك به الكتاب المنزل : يريد قول الله — عز وجل — :
 « وإن أوهن اليوت ليت العنكبوت لو كانوا يعلمون » .
 وقول آخر :

برومون في غير المكان الذي له خلقت وبعض منكر ذاك من بعضي
 فقولوا لبدركم يترك سماه ويحتل من أجل التواضع في الأرض
 وقول آخر :

وحديث إذا سمعناه لم ند ربخمر نصحتنا أم بشهد
 أنفت من براقع الحز والقزم م حدود قد برقعوها بورد
 وقول آخر :

لا آكل التفاح دهري ولو جنته كفي من جنان الخلود
 تالله لا أتركه عن قلبي لكنني أتركه للحدود
 وقول آخر :

رصدت غفلة الرقيب فزارت تحت ليل مطرّز بنهار
 فتعجبت من سراها فقالت غير مستطرف سري الأقار
 وقول ابن منير :

لا تحذعنك وجنة محمرة رقت في الياقوت طبع الجلمد
 وقول الإسردي :

قد كدت أحرق خده يوم النوى بتنفس لو لم يكن ياقوتا

وقول ابن زيدون :

لا يَهْأُ الشَّامَتِ المَرْتاحَ خَاطِرُهُ أُنَى مَعْنَى الأَمَانِ ضَائِعَ الخَطَرِ
 هَلْ الرِّيحُ بَنَجَمِ الأَرْضِ عَاصِفَةٌ أُمُ الكَسُوفِ لغيرِ الشَّمْسِ والقَمَرِ
 إِنْ طَالَ فِي السِّجْنِ إِيْدَاعِي فَلَاعْجَبُ قَدْ يُودِعُ الجَفْنَ حُدَّ الصَّارِمِ الذِّكْرِ
 وقول أبي تمام :
 أبا القاسمَ المَحْمُودَ إِنْ ذَكَرَ الحَمْدَ وَقَبِيحَ الرِّزَايَا مَا تَرُوحُ وَمَا تَعْدُو
 فَإِنَّكَ قَدْ نَالَكَ أَطْرَافُ وَعَكَا فَلَا عَجَبَ أَنْ يُوعَكَ الأَسَدُ الوَرْدُ
 بَنَّا لَبَكِ الشُّكُوى وَلَيْسَ بَضَائِرُ إِذَا صَحَّ نَصْلُ السِّيفِ مَا لَقِيَ الغَمْدُ
 وقول شوقي :

هَامُ الفُؤَادِ بِشَادَنِ أَلْفَ الدَّلَالِ عَلَى المَدَى
 أَبْكِي فَيَضْحَكُ ثَغْرُهُ وَالْكَمُّ يَفْتَحُهُ النَّدَى
 الكَمُّ بالكسر : كَأْسُ الزَّهْرَةِ يَرِيدُ : أَنْ فَه كَالزَّهْرَةِ .
 وَمَنْ نَوَادِرِ المَطْوَى مَا كَتَبَ بِهِ ابْنُ مَطْرُوحٍ إِلَى البَهَاءِ زَهِيرِ يَسْتَهْدِيهِ
 وَرَقًا وَمَدَادًا : (١)

أَفْلَسْتُ يَاسِيدِي مِنَ الوَرَقِ فَابْعَثْ بِدَرَجٍ كَعَرَضِكَ البَقَقِ (٢)
 وَإِنْ أَتَى بِالمَدَادِ مَقْتَرَنَا فَمَرْجَبًا بِالخُدُودِ وَالحَدَقِ
 يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الوَرَقَ كَالخُدُودِ وَالحَبَرَ كَالْحَدَقِ .
 فَسِيرٌ إِلَيْهِ البَهَاءُ مَا طَلَبَ وَكَتَبَ مَعَهُ :

مَوْلَايَ سَيَّرْتُ مَا رَسَمْتُ بِهِ وَهُوَ يَسِيرُ المَدَادُ وَالوَرَقُ

(١) ديوان البهاء زهير - ١٤١

(٢) البَقَقُ يَفْتَحَتَيْنِ : الشَّدِيدُ البَيَاضُ ؛ يُقَالُ : أَيْبَضَ يَقْقُ ، وَأَحْمَرُ قَانِي وَأَصْفَرُ قَانِعٌ ، وَأَسْوَدُ حَالِكٌ ، وَأَخْضَرُ نَاضِرٌ ، وَأَزْرَقُ غَامِقٌ ، وَيُقَالُ : نَاصِعٌ لِجَمِيعٍ .

وعزَّ عندى تسيير ذاك وقد شَبَّهَ بالحدود والحدق
وقد أفاض عبد القاهر فى قيمة التشبيه المطوى وأثره فى رفعة شأن
التشبيه المبذل، وخلع أشعة الحسن عليه حتى كأنه شىء جديد !
يقول من ذلك التشبيه بالأسد فى الشجاعة ، وبالبحر فى السخاء ،
وبالبدْرِ فى النور والبهاء ، وبالصبح فى الظهور والجلال ، ونفى الالتماس
والخفاء .

وذلك فى المشترك العامى والظاهر الجلى فإذا ما رُكِّب عليه معنى
ووصلت به لطيفة ، ودخل إليه من باب الكناية والتعريض والرمز
والتلويح ، فقد صار - بما غير من طريقته ، واستؤنف من صورته ، واستجد
له من المعرض ، وكسى من ذلك التعرض - داخلا فى قبيل الخاص الذى
يملك بالفكرة والتعمُّل ، ويتوصل إليه بالتدبير والتأمل ، وذلك كقولهم
- وهم يريدون التشبيه - : سلبن الظباء العيون ، كقول بعض العرب .

سلبن ظباء ذى بقر طلاها ونَجَل الأعين البقر الصوارا (١)

وقوله :

إن السحاب لتستحي إذا نظرت إلى نَدَاك فقاسته بما فيها

وقوله :

لم تلق هذا الوجه شمسُ نهارنا إلا بوجه ليس فيه حياء

وقوله :

واهتز فى ورق الصَّبَا فتحيرت حركات غصن البانة الأملود

وقوله :

فأفضيت من قرب إلى ذى مهابة أقابل بدر التم حين أقابله

إلى مسرف فى الجود لو أن حاتما لديه لأمسى حاتما وهو عاذله

(١) الطلا : الأعناق جمع طلبة بالضم ، والصوار ككتاب وغراب : القطيع من البقر .

فهذا كله في أصله ومغزاه وحقيقته معناه تشبيه ، واسكن كنى لك عنه
وخودعت فيه ، وأتيت به من طريق الخلافة والسحر في مسلك السحر
ومذهب التخيل ، فصار لذلك غريب الشكل ، بديع الفن ، منيع الجانب
لا يدين لكل أحد .

وإذا حققت النظر فالخصوص الذى تراه والحالة التى تراها تنفى
الاشتراك وتأباه ، إنما هما من أجل أنهم جعلوا التشبيه مدلولاً عليه بأمر آخر
ليس هو من قبيل الظاهر المعروف فهو إذا قال : سرقت الظباء
العيون فقد أوهى أن تم سرقة ، وأن العيون منقولة إليها من الظباء ، وإن
كنت تعلم — إذا نظرت — أنه يريد أن يقول : إن عيونها كعيون الظباء
في الحسن والهيئة وفترة النظر ^(١) .

٢ — أن يشترط في تمام التشبيه وجود وصف لم يكن ، أو انتفاء
وصف كان ولو ادعاء ، أو بعبارة أخرى . أن يقيّد المشبه أو المشبه به أو كلاهما
بشرط وجودى أو عدى يدل عليه بصريح اللفظ أو سياق الكلام ، بشرط
أن يكون ذلك على وجه دقيق .

ويسمى هذا التشبيه : التشبيه المشروط .

وذلك كقول أعرابي :

ألا حبذا البرد الذى تلبسينه	ويا حبذا من باعك البرد من تجر
فلو كنت ماء كنت ماء غمامة	ولو كنت ذرا كنت من درة بكر
ولو كنت لهواً كنت تعليل ساعة	ولو كنت نوما كنت إغفاءة فجر
ولو كنت ليلاً كنت قراءاً جنب	نحوس ليالى الشهر أو ليلة القدر

وقال رجل يهجو :

لو كنت ريحاً كانت الدبورا أو كنت غيماً لم يكن مطيرا

أو كنت ماء لم يكن طهورا أو كنت مخا كنت مخاريرا^(١)
أو كنت بردا كنت زمهريرا

وقول آخر:

لو كنت ماء لم تكن بعذب أو كنت سيفاً كنت غير غضب
أو كنت لحماً كنت لحم كلب أو كنت عيراً كنت غير ندب^(٢)
وقال رجل من بني تميم:

لو كنتم ماء لكنتم زبدًا ، أو كنتم لحماً لكنتم عُددًا ، أو كنتم غنماً
لكنتم نقدًا^(٣)

وقال عوف بن محمّل:

وصغيرة علّقتهم — كانت من الفتن الكبار
كالبدر إلا أنها تبقى على ضوء النهار
وقال ابن الرومي يصف إنساناً بكثرة الأكل:

شبه عصا موسى ولكنه لم يخلق الله له فاهاً
رفقا بزاد القوم لاتفقه يا ناقة الله وسقياها

وقال المتنبّي:

لو كنت عصراً منبتاً زهراً كنت الربيع وكانت الورداء
وقوله:

لو كنت بحراً لم يكن لك ساحل أو كنت غيثاً ضاق عنك اللوح^(٤)
وقال المعتمد بن عباد في أبيه:
سميدع يهب الآلاف مبتدئاً وبعد ذلك يُلبني وهو معتذر

(٢) الندب: الجسور.

(٤) اللوح بالضم: الجو.

(١) الرير والرار: الرقيق القاسد.

(٣) النقد بفتح الن: صغار الفم.

له يد كل جبار يقبلها لولا نداها لقلنا إنها الحجر^(١)
وقال سيف الدين بن جبارة في الأهرام :

لله أى غريبة وعجيبة فى صنعة الأهرام للألباب
أخفت عن الأسماء قصة أهلها ونضت عن الإبداع كل نقاب
فكأنما هى كالخيام مقامة من غير ما عمد ولا أطناب
وقال ابن سناء الملك :

نعم هى سعدى وهى لى قر سعد وصال ولا صد وقرب ولا بعد
يعانقها من دونى العقد وحده فى عجباً ياقوم هل يعشق العقد
هى البدر إلا أنه كله سنا هى الغصن إلا أنه كله ورد
ولو أبصر النظام جوهر ثغرها لما شك فيه أنه الجوهر الفرد
ولشاعر فى نارنجة :

يأرب نارجة يلهو النديم بها كأنها كرة من أحمر الذهب
أو جذوة حملتها كف قابسها لكنها جذوة معدومة اللهب
وقال آخر :

هو البحر إلا أنه عذب مورد وذا عجب أن العذوبة فى البحر
وقول البارودى :

قد أشبهت فى الهوى لكتها لم تحكى فى لوعى وشقاى
وقال :

طرف لو ان الطبا كانت كلحظته يوم الكريهة ما أبت على ودج
وقال شوقى من أندلسية :

والنيل يقبل كالدنيا إذا احتفلت لو كان فيها وفاء للمصافينا

والسعد لو دام والنعمى لو اطردت والسيل لو عَفَّ والمقدار لو دينا
وقال بعض العصريين فى القرآن الكريم :

وكل فاصلة منه منعمة لولا الجلال لقلنا جرسها وتر
ومن هذا النوع قول البحترى :

كالبدر إلا أنها لا تجتلى والشمس إلا أنها لا تغرب
وقد قال فيه الأمدى : . المعنى أن عيون الناس كلهم ترى البدر وتجتليه
وهى لا تراها العيون ولا تجتلى، وإنما قال: لا تجتلى لأنها محجوبة؛ فإذا كانت
فى حجاب فهى فى غروب، لأن الشمس إذا غربت إنما تدخل تحت حجاب.
فظاهر المعنى أنها كالبدر إلا أن العيون لا تراها، وكالشمس إلا أن
العيون لا تفقدها .

وهذا القول متناقض كما ترى .

قال الشريف المرتضى : وما المخطئ غير الأمدى .

ومراد البحترى بقوله أوضح من أن يذهب على متأمل ، لأنه أراد
بقوله - والشمس إلا أنها لا تغرب - أى إنها لا تصير حيث تتعذر
رؤيتها وتمتنع كما تتعذر رؤية الشمس على من غربت عن أفق بلده ، والمرأة
وإن احتجبت باختيارها؛ فإن ذلك ليس بغروب كغروب الشمس لأنها إذا
شامت ظهرت وبرزت للعيون ؛ والشمس إذا غربت فرؤيتها غير ممكنة ،
ولهذا لا يصح أن يقال فيمن استظل بدار أو جدار عن الشمس : إنها غربت
عنه وإن كان غير راء لها ، لأن رؤيتها ممكنة بزوال ذلك المانع ، ولا كذلك
القول فى احتجاب المرأة فلا تناقض فى بيت البحترى على ما ظنه الأمدى .
ولبعضهم فى هذا المعنى :

قد قلت للبدر واستعبرت حين بدا ما فيك يا بدر لى من وجهها خلف
نبدى لنا كلها شئنا محاسنها وأنت تنقص أحيانا وتنكسف

فغنى قوله : — وأنت تنقص وتنكسف — جار مجرى غروب الشمس لأنه فضلها على البدر من حيث كان بروزها لمبصرها موقوفا على اختيارها ، والبدر ينقص وينكسف على وجه لا تمكن رؤيته ، كما فضلها البحترى بأنها لا تغرب حتى تصير رؤيتها مستحيلة والشمس كذلك ^(١) .

٣ — أن يكون الشعراء ^(٢) قدلزموا طريقة واحدة من تشبيه شيء بشيء ، فيأتى الشاعر من تشبيهه بغير الطريق التى أخذ فيها عامة الشعراء . من أمثال ذلك أن أكثر الشعراء يشبهون الخوذ بالبيض كما قال سلامة ابن جندل .

كان نعاما باض فوق رؤوسهم

وقوله : كان نعام الدو باض عليهم ^(٣)

وأكثر الشعراء يلتزمون هذا التشبيه .

وجاء أبو شجاع الأزدي فقال :

فلم أر إلا الخيل تعدو كأنما سنورها فوق الرؤوس الكواكب ^(٤)
فشبها بالكواكب .

وربما كان الشعراء يأخذون فى تشبيه شيء بشيء والتشبه بين الشئين من جهة ما ، فيأتى شاعر آخر فى تشبيهه من جهة أخرى فيكون ذلك تصرفا أيضا ، مثال ذلك أن جل الشعراء يشبهون الدرع بالغير الذى تصفقه الرياح والغرض من ذلك الشكل ، وذلك أن الريح تفعل بالماء فى تركيبها إياه بعضا على بعض ما يشبهه فى حال التشكيل .

فقال سلامة بن جندل عادلا عن تشبيه الشكل إلى تشبيه اللون .

(١) أمالى المرتضى — ٤ — ١٠ — ١٢

(٢) نقد الشعراء — ٦٩ — (٣) الدو : الفلاة الواسعة .

(٤) السنور : جملة السلاح .

وذلك أن اللين من جودة الدرع لصغر قتيورها ، وروس المسامير ، وحلقها .
فألقوا لنا أرسان كل نجية وسابغة كأنها متن خرق
فشبها في لينها بظهر الأرنب .

وقال يذكر بريقها وهو وجه غير الوجهين الأولين :

مداخلة من نسج داود سكتها كمنكب ضاح من عماية مشرق^(١)
وكقول شهاب الدين الظاهري :

رأت شيتي قالت عجيب مع الصبا مشيك هذا صفه لي بجياتي
فقلت لها ماذاك شيب وإنما سنك بقلبي لاح في وجتاني
فقد جرت العادة ألا ينكر الشاعر الشيب وإنما ترف به مكرها ، يأخذ
في تحسينه وتحييه إلى المحبوب وإن كان موقنا بأنه لا يحسن ولا يجب !
إذا كان شبي بغضاً إلى فكيف يكون إليها حيباً
ولكن هكذا رسمهم في ذلك وسنتهم من القديم ، والأمثلة على هذا
يخطئها العد ، وحسبنا قول بعض العصريين .

عجى للحصان يزهدن في الشيب م وما الشيب غير هالة نور
قلت يا نعم ، لا تُراعى لشبي إنه حلية الحلیم الوقور
ناسب الأوجه الرقاق بياضاً وحكى ومضه رفيف الثغور
هو كالدر في نحور الرايب م وكالتور في حفاف الغدير
ولكن شهاب الدين الظاهري لم يسلك هذا الطريق المسلوك ، فيقر بالشيب
ثم ينبري لوصفه بأجمل الأوصاف لعل ذلك يغطي على عيبه ، ولكن جرحه
أصلاً وادعى أن هذا البياض نور الحبيبة قر في قلبه وتألق في عارضيه .
وذلك كما ترى نهج طريف مستملح وقد سلكه البهاء زهير أيضاً فقال :
وليس مشياً ماترون بعارضى فلا تمنعوني أن أهيهم وأطرباً

فما هو إلا نور ثغر لثته تعلق في أطراف شعري فألهبا
وأعجبني التجنيس بيني وبينه فلما تبدى أشبا رحت أشيا
وقد سلك أبو تمام مسلكا وسطا ، فقد اعترف بالشيب ثم انتقل إلى
ما يشبه الإنكار في قوله :

ولا يروّعك إيماض القمير به فإن ذاك ابتسام الرأى والآدب (١)
وأحسب أنه أول من فتح الباب للشعراء في ذلك المعنى .
وجاء ابن المعتز فقال :

قالت كبرت وشبت قلت لها هذا غبار وقائع الدهر
وكقول الخالدي يصف النجوم :

كأنما أنجم السماء لمن يرمقها والظلام منطبق
مال بخيل يظل يجمعه من كل وجه فليس يفترق

فقد جرى الرسم على تشبيهها بالمصاييح والدرر وأزهار النرجس إلى
غير ذلك ، ولكن الخالدي افترع طريقة لا تمت بصلة إلى طرائقهم فجاء بتشبيهه
بكر غريب .

٥ — أن يقلب التشبيه ، أو يجمع بين عدة تشبيهات في بيت واحد
سواء أعدد الطرفان أو أحدهما .

وقد سبق الكلام على ذلك بالتفصيل

٦ — أن يتصرف فيه بنوع من التصرف وهو أمر لا تحصى شعبه ،
كقول الخالوي الموصلي في وصف رسالة :

كتبت فلو لا أن هذا محل وذاك حرام قست لفظك بالسحر
فوالله ما أدرى أزهر خيملة بطرسك أم در يلوح على نحر

فإن كان زهراً فهو صنع سحابة وإن كان دراً فهو من لجة البحر
فتشبيه اللفظ الحسن بالزهر والدر مبتذل، لكنه لما قيد الزهر بأنه زهر
خيلة، والدر بأنه يلوح على نحر.

ثم ضم إليه سر الحسن في الزهر وهو أنه صنع سحابة، وسر الحسن
في الدر وهو أنه من لجة البحر ارتفع شأنه، وخرج بذلك من الابتذال
إلى الغرابة.

وقول ابن المعتز:

ولنعم، أحاديث عذاب لو أنها جنى النحل لم ينجح حلاوتها النحل
والناس كلهم يشبهون حلاوة الحديث بحلاوة العسل، وهو قد انفرد
بهذه الزيادة التي لاشك أنها ترفع الابتذال عن التشبيه.

وقول الوزير المغربي يصف خفقان القلب:

كأن قلبي إذا عن أذكركم ظل اللواء عليه الريح تحرق
وفي مثله يقول الأمير مؤيد الدولة أسامة:

أبكيتمو عيني دما لفراقكم فكأنما إنسانها مجروح
وكان قلبي حين يخطر ذكركم لهب الضرام تعاورته الريح
فالأول اقتصر على تشبيه خفقان القلب، والثاني شبه القلب المشوق
باللهب في حرارته، وشبه خفقانه باضطراب اللهب حين تختلف عليه الريح
بالبهبوب فزاد عليه زيادة بينة.

وقول عمر بن أبي ربيعة:

بينما ينعتنني أبصرني	مثل قيد الريح يعدو بي الأغر ^(١)
قالت الكبرى ترى من ذا الفتى	قالت الوسطى لها هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيمتها	قد عرفناه وهل يخفى القمر

(١) الأغر: يريد فرسه.

وفي هذه الآيات ألوان شائقة من البلاغة يحسن بيانها ، وإن كان الشاهد في البيت الأخير .

فأولا تدل هذه الآيات على حذق عمر بوضع الكلام في مواضعه كما يقتضيه الإعراب .

فإن القوافي جميعها لو أطلقت من عقال النظم لكانت مرفوعة ، فلو أن قائلاً قال : إن عمر كان يعرف قواعد النحو لم يبعد ! وذلك أمانة السليقة العربية الأصلية .

وثانياً أنه يتضمن بلاغة نفسية عميقة تدل على معرفة هذا الشاعر الغزل بأخلاق النساء وأهوائهن واختلافهن في التصريح والإخفاء على حسب أسنانهن وعقولهن ، ولعل ذلك كان سبباً في شغف النساء به وانعطافهن نحوه . فقد ذكر أولاً ما يفهم منه أن الكبرى لم تكن رآته من قبل ، وأنها كانت تهواه على السماع - والأذن تعشق قبل العين أحياناً - وأنها كانت تود رؤيته فلما أتحت لها الرؤية لم تتالك أن أظهرت من الكلف به مادعاها إلى التحق في المسألة عنه ، سالكة في ذلك أسلوب تجاهل العارف الذي يتضمن شدة الوله وعمق الصبابة ؛ لأن عقلها بحكم سننها وإحكام التجارب لها ، وقدرتها على ستر ميولها وكبت عواطفها ، يمنعها من التصريح باسم من تحب .

ثم نرى بأن الوسطى قد سارعت إلى تعريفه بالاسم العلم ، فكانت دون الكبرى في التوقر والثبات ، وهو ما يقضى به سننها وقلة ممارستها لتجارب الزمن وشئون الغرام .

ثم ثلث بأن بين أن الصغرى كثيرة التعلق به كبيرة الانجذاب إليه ، حتى إنها شبهته بالقمر الذي يشبه به كل بالغ الغاية في الحسن والجمال ، فلم يبق ريب في أنها تحبه وتهيم به .

وتصريحها بهذا الحب الذي جمجم به أختها يلائم سننها ويوائم عقلها ،

فالصغيرات تغلب عليهن الغرارة والبرامة ؛ فلا يستطعن أن يكتمن شيئاً مما يجول بخواطرن ويحوك في صدورهن .

وذكر عمر شغف الصغرى به، ووصفها له بالصباحة والملاحه ، يريد منه أن يعبر بدلالة الالتزام على أنه قتي السن ، ريق الصبا ، جديد سربال الشباب لأن الكواعب النواشيء النواعم الدل لا يمنحن حين إلا لمن كان في مثل سنهن ، والله أبو تمام حيث يقول :

أحلى الرجال من النساء موقعا من كان أشبههم بن حدودا

ومن بدائع البيت الأخير : أن التشبيه بالقمر لم يجر على الطريقة الساذجة السائدة التي نصل لونها وبلى ثوبها ، فأصبحت مبتذلة مملولة ، ولكنه أخرج مخرج المثل مع اتساق الوزن له ، فزاده عذوبة ورشاقة وحسنا .

ومن ذلك قول ابن المستوفى الإربلي :

رأت قمر السماء فأذكرتني ليالى وصلها بالرقتين
كلانا ناظر قرا ولكن رأيت بعينها ورأت بعيني

وفي تفسير البيت اختلفت المذاهب ، وقد قال فيه ابن حجلة : وللناس عليه كلام ، ولهم على فهمه زحام ، حتى إن بعضهم وضع فيه كتابا .

وأحسن ما قيل فيه : أنه كان ناظراً إليها وهي كانت ناظرة إلى قمر السماء ، فاستعار عينها لنظره واستعار عينه لنظرها ، وبهذا النظر المستعار للطرفين ينقلب الوضع ، فيصير قمر السماء قرأ مجازياً ، ووجهها قرأ على الحقيقة .



الفصل الخامس عشر

انتزاع التشبيه

يستطيع البليغ أن يجد مجالا رحبا لانتزاع صور التشبيه من مظاهر الطبيعة ، ومجالي الصناعة ، ومسائل العلوم ، وعادات المجتمع ، إلى غير ذلك مما يقع تحت بصره ، أو يطرق سمعه ، أو يحوِّك في صدره ، أو يجول بخاطره ولا سيما إذا كان غزير المعرفة ، ثاقب الفكر ، واسع الخيال ، نافذ البصيرة ، بعيد النظر ، دقيق الملاحظة .

ونحن إذا تأملنا وجوه التشبيهات المختلفة من رؤى حسية ، أو معان عقلية ، أو صور خيالية ، أو نبضات وجدانية ، وجدنا أنها أشياء التقطت من هذا الخضم الزاخر ، والمضطرب الواسع الذي نعيش فيه بأجسامنا وأفكارنا ومشاعرنا .

فهذا الكون بسمائه وما أظلت ، وأرضه وما أقلت ، كتاب ضخم مفتوح للنظر المتوسم ، والفكر المروى ، والعقل المتأمل القادر على الانتفاع بهذه الثروة الضخمة .

ومن هنا كانت كثرة الأسفار ، ومعاناة الأحداث ، وممارسة التجارب ، والاختلاط بالناس ، والانغماس في غمار المجتمع ، والتزود من الثقافات المنوعة ، مما يعين على استنباط التشبيه الصائب العميق الدقيق . وكلما امتدت الفتوحات العلمية ، وتعددت روافد الفكر ، وانبسطت رقعة الحضارة ، كثرت المنادح أمام البلغاء لصوغ صور البيان الأنيق ، والتفنن في تنويعها وتلوينها .

مصادر الانزعاع .

ومصادر الانزعاع لا يمكن حصرها ؛ لأن كل ما يحيط بالأديب اللباح الذكاء ، المستوعب النظر ، كنوز من المعاني السرية لا تنفذ على إنفاق .

بل كثير آ ما يستفيد الفطن من كلام الحشوة والعامية والدهماء ، ولا يرى في ذلك غضاظة ولا معابة عملا بالآثر الشريف . الحكمة ضالة المؤمن يَشْدُهَا حيث يجدها .

يحدث ابن الأثير ^(١) : أن بعض العبيد الأحايش الذين لا يستطيعون تقويم صنع الألفاظ فضلا عما وراه ذلك وذاك ، رأى صبيا في يده طاقة ريحان ، فقال : هذه طاقة آس تحمل طاقة ريحان !

فلما سمعت ذلك منه أخذتني هزة العجب ؛ وذكرت شعر أبي نواس الذى توافصفه الناس في هذا المعنى ، وهو قوله :

وردة جاء بها شادن في كفه اليمنى فحيانا

سبحت ربي حين أبصرتها ريحانة تحمل ريحانا

ويذكر أنه سأل بعض أعتام ^(٢) الأعجام عن حاله — وكانت النكبات قد توالى عليه — فكان جوابه : لم يبق عندى ارتياح لوقوع نائبة من التوائب .

وهو معنى قول الشاعر :

من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر

وقول المتنبي :

فصرت إذا أصابني سهام تكسرت النصال على النصال

وأنه سمع امرأة توفى ولدها البكر تقول : كيف لا أحزن لذهابه ،
وهو أول درهم وقع في الكيس !

ولا يستحي ابن الأثير أن يصرح : بأنه أخذ هذا المعنى وأودعه كتاب
تعزية إلى بعض الإخوان — وقد توفى ولده الأول — فقال : وهو أول
درهم ادخرته في كيس الادخار ، وأعددت له لحواذ الليل والنهار .
ويذكرون : أن أبا تمام حين قال صدر بيته المشهور :

وأحسن من نور نُفْتَقِه الصَّبَا

وقف يردده وإذا سائل يسأل على الباب ويقول : من بياض عطاياكم
في سواد مطالبنا .

فقال أبو تمام — متما البيت — :

بياض العطايا في سواد المطالب

وفي أخبار أبي نواس : أنه شاهد نصرانيا من العامة يرتكب بعض
الفواحش في خربة من الخربات ، فأخذ أبو نواس يلومه ويعنفه ، فقال له
الرجل : يا أبا نواس ، لا تلمني فإن لومك يجب لي أن أعود إلى مثلي .
فأخذ أبو نواس هذا المعنى وقال :

دع عنك لومي فإن اللوم إغرام وداوني بالتي كانت هي الداء

وفي أخبار المعتمد بن عباد أنه في بعض خروجه للتنزه رأى ثمرة تين قد
أدركت ، فسدد إليها عصا كانت في يده فأصابها وثبتت في أعلاها ، فأطربه
مارأى من حسننها وثباتها ، فقال لابن حاج — وكان صبغا — أجز :

كأنها فوق العصا

فأجابه مسرعا :

هامة زنجي عصا

فزاد طربه وسروره وأمر له بجائزة سنية (١) .

هذا قليل من كثير مما يسوقونه دليلا على أن المعارف قد تستفاد من غير أهلها ، وتستخرج من غير معدنها .

وقد كان ابن الحشاش البغدادي يتفقد طلبة العلم ، فيجدونه واقفا على حقائق القصص والمشعذين ، وقد ليم على ذلك — وهو من أئمة العلم — فقال : لو علمت ما أعلم لما لمت ، ولطالما استفدت من هؤلاء الجهال فوائد كثيرة ، ففي ضمن هديانهم تحرى معان غريبة لطيفة ، لو أردت أنا أو غيري أن نأق بمثلها لما استطعنا ذلك ، وقد بما قالوا : رب رمية من غير رام .

وصفوة القول : أن علماء البيان نظروا إلى التشبيه من جهة الصورة والشكل واللون والهيئة ، ومن جهة ما يدخل تحت الحواس ، ومن جهة الغريزة والطباع إلى غير ذلك ، وكان أساسهم في كل هذا هو الاسترشاد بما يعمل به العقل من انتزاع الصورة الجديدة من شيء واحد ، أو من عدة أشياء يجمع بعضها إلى بعض (١) .

وقد يكون الانتزاع من قصة دينية أو اجتماعية ، كقول المتنبي يرثي محمد بن إسحق التتوخي :

كفل الثناء له برد حياته لما انطوى فكأنه منشور
وكأنما عيسى بن مريم ذكره وكان عاذر شخصه المقبور
يشير إلى قصة إحياء المسيح — عليه السلام — لعاذر بعد موته
بإذن الله .

وقول ابن الحجاج الكاتب :

قد أذنب القوم وألزمته كأنهم أولاد يعقوب
إذ جعلوا يوسف في جبة وأوقعوا الذنب على الذيب

وذئب يوسف يضرب مثلاً لمن يرمى بذنب جناه غيره وهو يرى
الساحة منه .

ومثله قول أبي الشيص :

وقائلة وقد بصرت بدمع	على الخدين منهمر سكوب
أتكذب في البكاء وأنت خلو	قديماً ما جسرت على الذنوب
جفونك والدموع تجول فيها	وقلبك ليس بالقلب الكتيب
نظير قيص يوسف حين جاءوا	على لباته بدم كذوب
فقلت لها فداك أبي وأمي	رجعت لسوء ظنك بالغيوب

وقول بشار في أبي مخلد :

أبا مخلد ما زلت سباح غمرة	صغيراً فلما شبت خيمت بالشاطي
كسنور عبد الله بيع بدرهم	صغيراً فلما شب بيع بقيراط
وسنور عبد الله يضرب مثلاً لمن يكون مرجواً في صغره ، فإذا كبر	تراجع ولم يفلح .

وقبله قال الفرزدق في هذا المعنى :

رأيت الناس يزدادون يوماً	فيوماً في الجميل وأنت تنقص
كمثل الهر في صغر يُغالي	به حتى إذا ما شب ينقص
والعامة تقول عندنا : كالعبيد كلما كبروا صغروا .	

على أن ابن خلكان يقول : قد كشفت عن سنور عبد الله بالمظان ، وسألت
أهل المعرفة هذا الشأن فما عرف الخبر عن ذلك ولا عثرت له على أثر .
ويقول : ثم ظفرت بقول الفرزدق السابق ، ومن هنا أخذ بشار قوله

وليس المراد هراً بعينه بل هراً يكون له قيمة في صغره وينقص منها في كبره (١).

ويخيل إلى أن بشاراً لم ينسب السنور إلى من اسمه عبدالله ، اعتباراً ، بل لا بد أن يكون هناك هر له حكاية يعلمها بشار ولم يتوصل ابن خلكان إلى معرفتها ، وإلا فامعنى نسبته إلى عبدالله بالذات ، في حين أنه كان قادراً أن يأتي به خلواً من النسبة كما فعل الفرزدق ولا يقع في هذا الحشو المعيب ! وقول شاعر في قواد :

من ذم إدريس في قيادته فإني شاكر لإدريس
من بمستصعب فجاء به أطوع من آدم لإبليس
وكان في سرعة المجيء به آصف في إحمل عرش بلقيس
إشارة إلى قصة سليمان - عليه السلام - مع بلقيس ملكة سبأ ، وإحضار وزيره آصف لعرشها منكر آكاما جاء في القصص الديني .
وقول شوقي في الدستور :

يوم الخميس وراء جرك للهدى صبح وللحق المبين نهار
أقبلت بالدستور أبلج زاهرا يفتن في قسماته النظار
يحمي لفائفه ويحرس مهده شيخ يزود وفتية أنصار
فكأنه عيسى الهدى في مهده وكان سعداً يوسف النجار
إشارة إلى قصة مريم - عليها السلام - وميلاد عيسى من غير أب .
ويوسف النجار كان خطيب مريم قبل حملها بالمسيح .
وقوله من أندلسية :

بقنا فلم نخل من روح يراوحنا من بر مصر وربحان يغاديننا
كأن موسى على اسم الله تكفلنا وباسمه ذهب في اليم تلقيننا

إشارة إلى قصة موسى — عليه السلام — وهو طفل حين رُمته أمه
في اليم خوفاً عليه من بطش فرعون .
وقول محمود غنيم في وصف الراديو :
كما كل أذن أذن سارية وكل ناء ينادى نائياً عمر
إشارة إلى قصة عمر وسارية بن زُئيم وندائه له — وهو على منبر المدينة :
يا سارية الجبل .

وكان سارية بنهاوند بيلاد الفرس يغزو ، وقد اجتمع العدو بالجبل .
أو من مسائل دينية كقول بشار :

فؤادى فيك مجنون ولو أسطيع كَبَلْتَهُ
وأنت الحجر الأسود لو يَخْلُو لَقَبَلْتَهُ
وقول كشاجم :

فديت زائرة في العيد واصله
فلم يزل خدها ركناً ألوذ به
وقول سراقه الأندلسي :

وصاحب كالزلال يمحو
لم يحص إلا الجميل مني
وهو عكس ما قاله المنازى :

وصاحب خلته خليلاً وما جرى غدره يبالي

لم يحص إلا القبيح مني
إشارة إلى ملكي الحسنات والسيئات : « رقيب » و« عتيد » ،

وقول التنوخي في التلوفر :

فكأنه في الماء صاحب مُذْهَب أغراه وسواس بأن لم يَطْهَر^(١)

(١) المذهب بضم الميم وفتح الهاء وكسرهما : شيطان الوضوء .

وقول أبي تمام في مالك بن طوق — وقد حجه — :

مالي أرى القبة الفيحاء مقفلة دوني وقد طالما استفتحت مقفلها
كأنها جنة الفردوس معرضة وليس لي عمل زاك فأدخلها

وقول السري الرفاء :

عجب الناس كيف ضعت ومثلي بفناء الأمير ليس بضائع
قلت إذ أعوز الشفيح وأعيال الإذن م فيما أروم والإستماع
هذه جنة الخلود ومالي من حميم ولا شفيح يطاع
أو من حقائق التاريخ والسير كالذي أنشده أبو أحمد العسكري :
ليس له ما خلا اسمه نسب كأنه آدم أبو البشر

وقول الضرير القزويني :

وصاحب لي بطنه كالأوىة كأن في أمعائه معاوية

وكان معاوية — ض — رغب البطن منهوما بالطعام .

وقول ابن المعتز :

فكان الهوى امرؤ علوى ظن أني ولّيت قتل الحسين
وكأنني لديه نجل زياد فهو يختار أوجع القتلتين

إشارة إلى قتل الحسين — عليه السلام — في عهد تولية عبيد الله بن زياد على العراق .

ومثله قول شوقي :

ظمئت ومثلي يرى أحق كأنني حسين ودهري يزيد
وقول أبي مسهر الكاتب في بعض العراقيين :

حار في الكتابة يدعيها كدعوى آل حرب في زياد

فدع عنك الكتابة لست منها ولو أغرقت ثوبك في المداد
إشارة إلى استلحاق معاوية زياداً بأبيه أبي سفيان ، وإثبات نسبه
في بني أمية .

وقول ابن الرومي في صياد :

تستأنس الطير إلى قوسه كأنها محراب داود
وقد قيل : إن داود — عليه السلام — لحلاوة نغمته كانت الوحش
والطير تعكف عليه إذا قام في محرابه يقرأ الزبور .

وقول العرجي في وصف بنية :

كأنها غير أن الإنس ترفعها بما بنت سليمان الشياطين
وقول البحترى في بركة المتوكل :

كأن جن سليمان الذين ولوا إبداعها فأدقوا في معانيها
وقول صبرى في الأهرام :

كأنها والعوادي في جوانبها صرعى بناء شياطين لشيطان
وهو أبلغ من سابقه لأنه زاد عليهم بأنها تصرع الحوادث بقوة بنائها
وإحكامها .

وقول شاعر كوفي :

بكت دار بشر شجوها أن تبدلت هلال بن قعقاع يبشر بن غالب
وما هي إلا كالعروس تنقلت على رغما من هاشم في محارب
والتاريخ يحدثنا أن العرب كانت ترمي بالخسة بعض القبائل مثل محارب
وسلول وجرم وباهلة وعاملة .

وقول شاعر :

وتركتي نقي الخد ألمي بقدم ماس كالغصن الرطيب

له شعر حكى مجنون ليلي . يخط إذا مشى فوق الكتيب
وقد روى عن المجنون أنه في توحده بالقفار كان يخط بيده على الرمل .
وقول آخر بهجو :

مطبخ داود في نظافته أشبه شيء بعرش بلقيس
ثياب طباخه إذا اتسخت أنقى بياضا من القراطيس
يرميه بالبخل لأن نظافة المطبخ والطباخ دليل على عدم الطبخ وانقطاع
الضيوف .

أو من الاعتقادات الشائعة كقول بعضهم :

لقاؤك للبكر يوم سوء ووجهك أربعم لا تدور
والمراد بالأربعم : أربعم آخر الشهر وقد ورد أنها خمس .
وقول آخر :

كان كانوننا سماء والجر في وسطه نجوم
ونحن جن بحافتيه والشرر الطائر الرجوم
إشارة إلى الاعتقاد بأن الشهب المتطيرة ترجم بها الشياطين .
وقول ابن شرف في رأس أسود على رمح :

كان هامته والرمح يحملها غراب بين على بان النقا نعقا
والناس يتشاءمون بالغراب وبخاصة الأسود ويعدون له نذير الفراق .
أو من عادات الناس والحيوان كقول شاعر في وهب بن وهب
البخري :

لكل أخى فضل نصيب من العلا ورأس العلا طرا عقيد الندى وهب^(١)
وما ضر وهبا عيب من جحد الندى كما لا يضر البدر ينبحه الكلب

ومثله قوله المعري :

تعاطوا مكاني وقد فتهم فما أدركوا غير لمح البصر
وقد نبخوني فما هجمهم كما نبج الكلب ضوء القمر

يروون في معناه : أن الكلب إذا أصابه ألم البرد ورأى ضوء القمر ،
توهم أنه يدفيء كما تدفيء الشمس ، فإذا رقد فيه لم يجد دفيئا ، فينج كانه
يضره منه ويغضب ، كما ينبج السحاب إذا ضجر من كثرة مطره .

وقال آخرون : إنه كان لامرأة تدعى حومل كلبة كانت تجوعها ، وأن
كلبتها نظرت إلى القمر قد طلع فنبحت تنوهمه رغيفا أو شيئا يؤكل .

قال الخفاجي : وهذا شيء لا يصح له معنى ، والقول الأول أولى .
والتشبيه مثل تعاوره الناس قديما وحديثا ، وهو كعنز أشعب التي ظنت
قوس قزح علقا أخضر ، فرمت نفسها عليه فأت (١) .

وقول أحمد النسفي يهجو رجلا :

ينام إذا ما استيقظ الناس للعلا فإن جن ليل فهو يقظان حارس
كذلك كلب الناس ينعس يومه ويسهر طول الليل والليل دامس
ومن عادة الكلب أنه ينام نهاره ويسهر ليله .

وقول ابن لنكك في أبي رياش :

قل للوضيع أبي رياش لا تبَل ته كل تبهك بالولاية والعمل
ما ازددت حين وليت إلا خسة كالكلب أنجس ما يكون إذا اغتسل
وقول شوقي في الشمس :

فيالك هرة أكلت بنينا وما ولدوا وتنتظر الجنينا

ويقولون : إن من عادة القطّة أن تأكل أولادها إذا اشتد شغفها بهم
كما يقول الشاعر :

أما ترى القطّة من ودادها تأكل ما غز من أولادها
وقول ابن المعتز :

مر بنا تشرق الطريق به في قد غصن وحسن تمثال
تخلته والعيون تأخذه من كل فج هلال شوال
وقد جرت العادة أن تستجلى العيون هلال شوال ليتحققوا من يوم
العید الأصغر .

وقول الأرجاني :

تقصد أهل الفضل دون الوری مصائب الدنيا وآفاتها
كالطير لا يحبس من بينها إلا التي تطرب أصواتها
وقول ابن رشيق :

أحب أخي وإن أعرضت عنه وقلّ على مسامعه كلامي
ولي في وجهه تقطيب راض كما قطبت في وجه المدام
أو من النواميس الطبيعية كقول العبدري :

ثقلت زجاجات أنثنا فرغا حتى إذا ملثت بصرف الراح
خفت فكادت أن تطير بماحوت وكذا الجسم تحف بالأرواح
ويقولون : إن جسم الميت أثقل منه وهو حي :

وقول ملك بلنسية مروان بن عبد العزيز — وقد نظر إلى لحيته وقد
شابت — :

ولما رأيت الشيب أيقنت أنه نزيل جسمي بانهدام بنائه
إذا ابيض مخضر النبات فإنه دليل على استحصاده وفنائه

وقول الخطيب الإشبيلي :

وكل إلى طبعه عائد
كذا الماء من بعد إسخانه
وإن صده المنع عن قصده
يعود سريعاً إلى برده

وقول قوام الدين الواسطي :

باضطراب الزمان ترتفع الأنذال م فيه حتى يعم البلاء
وكذا الماء ساكناً فإذا حرك م ثارت من قعره الأقداء

وقول المعري :

والخل كلما يبدى لى ضمائره
مع الصفاء ويخفيها مع السكدر

وقول البغدادى النقاش :

إذا وجد الشيخ فى نفسه
ألمست ترى أن ضوء السرا
نشاطاً فذلك أمر خفى
ج له لهب قبل أن ينطقى

وقول ابن طباطبا العلوى :

بأبى الذى نفسى عليه حيس
لا تنكروا أبداً مقاربتى له
مالى سواه من الأنام أنيس
قلبي حديد وهو مغناطيس

ومثله قول صفي الدين الحلى :

إنما هذه القلوب حديد
ولنزيد الألفاظ مغناطيس

وقول طاهر الجزرى :

محاسنه هوى كل حسن
ومغناطيس أفئدة الرجال (١)

وقول أبى الفتح البستى :

لئن كسفونا بلا علة
فقد يكسف المرء من دونه
وفازت قداحهم بالظفر
كما يكسف الشمس جرم القمر

وقال شاعر :

أرى الأموال في اللؤماء تشوى وتجتنب الكرام من الرجال
كذاك الدر في ملح أجاج وليس يكون في عذب زلال
وقول آخر :

إن الجهول تضرني أخلاقه ضرر السعال لمن به استسقاء
وقول شوقي :

لا تحلى بجناها أو جنايتها الموت بالزهر مثل الموت بالفحم
أو من مصطلحات العلوم والفنون وأسماء الأشياء وما إليها كقول
أبي فراس الحمداني :

تناهض الناس للبعالي لما رأوا نحوها نهوضي
تكلّفوا المكرمات كدّاً تكلف الشعر للعروضي
وقول البردخت^(١) يهجو حفص بن أبي بردة — لعبه شعر المرقش
الأكبر — :

لقد كان في عينيك يا حفص شاغل وأنف كتيل العود عما تتبع^(٢)
فعينك إقواء وأنفك مكفأ ووجهك إبطاء فأنت المرقع
تتبع لحنا من كلام مرقش وخلقك مبنى على اللحن أجمع
وقول المتنبي :

ذكر الأنام لنا فكان قصيدة أنت البديع الفرد من أبياتها
وقول النفيس القطارسي :

وذى هيئة يزهو بوجه مهندس أموت به في كل يوم وأبعث

(١) البردخت : من بني ضبة ، ومعناه بالفارسية : الفارغ . الشعر والشعراء — ٤٤٧ .

(٢) الثيل بفتح الثاء وكسرهما : وعاء قضيب البعير أو القضيب نفسه ، والعود . الجمل

محيط بأشكال الملاحة وجهه
وقول أبي على المهندس :

كان فوادي مركز وهم له
وقول ابن نمّات في ثقل :

حكى نهرين مافي الأرض
حكى في خلقه « ثورا »
وقد أخذهما من قول بعضهم :

صامى ابن بشران مدينة جلق
ألفاظه « بردأ » وصورة خلقه
وقول أبي تمام في وصف الخمر :

خرقاء يلعب بالعقول حبابها
وقوله :

مودّة ذهب أثمارها شبه
وقول ابن الخطيب :

ونقطة قلب أصبحت منشأ الهوى
وقول ابن شرف في مدح أستاذه على بن أبي الرجال :

اسم حكاة المسمى في الفعال فقد
الماجد السيد الحر الكريم له
وقول أبي نصر المنازى :

ولى غلام طال في دقة
وقد تناهى عقله خفة
كخط إقليدس لا عرض له
فصار كالنقطة لا جزء له

وقول السلاوى :

وسطور خيلك إنما ألفاتها
وقول أبى بكر الإشبلى :

بدا الهلال فلما
كأن جسمى فعل
بدا تقصت وتما
وسجر عينه لما

وقول أبى إسحاق الكلبي :

من آلة الدست لم يعط الوزير سوى
إن الوزير ولا أزر يشد به
وقول آخر :

فلا أكون بينكم عطاردا
وقول ابن جابر يمدح الرسول :

أضفت إلى رحماك نفسى فأصبحت
وقول البستي :

عزلت ولم أذنب ولم أك جانبا
حذفت وغيرى مثبت فى مكانه
وقوله :

أدرجت فى أثناء نسيانكم
وقول الشواء :

وكنا خمس عشرة فى التثام
وقد أصبحت تنويننا وأضخى

وقول القاضى الفاضل :

لى عندكم دين ولكن هل له
من طالب وفؤادى المرهون

(١) عطاردا : كوكب سيار وهو أقرب الكواكب إلى الشمس .

فكأنني ألف ولام في الهوى وكأن موعد وصلك التنوين
وقول السراج الوراق :

كم أناديك مفردا علما أر فعه عالما بشرط المنادى
وجوابي ملغى يحاكي للولا خيرا لو أتى به ما أفادا
وقول الأسمر :

ولرب معنى مستكن م كالضمير إذا استتر
صدوا له حتى تجلى م عن صباح منتشر
وقوله :

ولا تقف في مهب الريح ملتويا كالواو والياء بل قف وقفة الألف

وقد عاب ابن سنان الخفاجي أمثال هذه الاستعالات ، فقال : ومن
وضع الألفاظ موضعها ألا يستعمل في الشعر المنظوم والكلام المشور من
الرسائل والخطب ، ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم ،
والألفاظ التي يختص بها أهل المهن والعلوم ؛ لأن الإنسان إذا خاض في علم
وتكلم في صناعة وجب عليه أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم ، وكلام أصحاب
تلك الصناعة ؛ وبهذا شرف كلام أبي عثمان الجاحظ ؛ وذلك أنه إذا كتب
لم يعدل عن ألفاظ الكتّاب ، وإذا صنف في الكلام لم يخرج عن عبارات
المتكلمين ، فكأنه في كل علم يخوض فيه لا يعرف سواه ولا يحسن غيره .
وقال عن شيخه المعري : إنه كثيراً ما يسلك هذه الطريقة في كلامه
وهي لائقة به ؛ لأنه لم تكن له يد في صناعة الكتابة ، ولا طريقة مجودة ،
ولأنما رسائله معدودة في كتب اللغة وديوان الأدب ، فاستعمال هذا وما يجري
مجراه فيها لائق .

ومن هذا النوع ما يحكى من أشعار أصحاب المهن واستعمالهم لألفاظ

صناعاتهم ومعانيها فيما ينظمونه أو ينثرونه ، وربما كان ذلك أو بعضه شيئاً يصنع وينسب إليهم ^(١) .

وقد رد عليه العلوى : بأن هذا فاسد لا وجه له ؛ فإن الشاعر والكاتب يخوضان في كل شيء ولا يقتصر خوضهما على فن دون فن ولا اصطلاح دون اصطلاح ؛ ولهذا فإنك تراهم إذا استعملوا شيئاً من السكيات المصطلح عليها في العلوم والصناعات في أشعارهم ورقائقهم وجدت له أحسن موقع ، وازداد جمالها وحسن رونقها ^(٢) .

ولا خلاف أننا لا نستطيع أن نضيق على الأديب ما وسع الله عليه ، ولا يمكن أن نجسده في دائرة محدودة لا يخرج منها ، فالأدب لا موضوع له وهو يندس في كل شيء ويستغل المجتمع على اختلاف أحواله ، ولا بد أن يستفيد الأدب من ألوان المعارف والعلوم وشئون الفسك حتى يكتسب العمق والخصب والسعة والتلون والشمول ، ويجارى الحضارة في تقدمها واستبحارها ، وإلا انزوى في منقطع العمران هز بلا كسيحاً متخلفاً عن ركب الإنسانية المغدِّ في السير .

ومع ذلك فيجب ألا تنكسر هذه الأشياء ، وألا تكون مقصود لذاتها .
ويزيد في حسنها ورونقها أن تمثل واقعة حال ، أو تصاغ في أبواب النظر والمفاكهات والهزل والخلاعة ، فمن الأول قول أبي الفتح البستي :

عزلت ولم أذنب ولم أك جانياً وهذا لإنصاف الوزير خلاف
حذفت وغيرى مثبت في مكانه كأنى نون الجمع حين تضاف
وقول البهاء زهير :

يقولون لى أنت الذى سار ذكره فمن صادر يثنى عليه ووارد

هبوني كما قد تزعمون أنا الذي
وقول مجير الدين بن تميم :

لو كنت حين علوت ظهر مطية
وتوسطت بحر السراب حسبتي
ومن الثاني قول محاسن الشواء :

لنا صديق له خلال تُعرب عن أصله الأخس
أضحت له مثل ، حيث ، كف
يريد أن يده مضمومة عن الإعطاء ، فكأنها « حيث ، المبنية على الضم ،
وهو لذلك يتمنى أن تكسر كما بنيت ، أمس ، على الكسر .
وقول أبي محمد الواسطي :

لنا صديق به انقباض ونحن بالبسط نستلذ
لا يعرف الفتح في يديه إلا إذا ما أتاه أخذ
فكفه « أين ، حين يعطى شيئاً وبعد العطاء ، منذ ،
أى لا تفتح كفه مثل « أين ، المبنية على الفتح إلا في حال أخذه من
الناس ، ثم هي بعد ذلك مضمومة ، كمنذ ، المبنية على الضم .
فمثل هذه الأمثال التي ذكرت لم تنظم اعتباطاً بل اقتضاها المقام ، زيادة
عما فيها من بيان الوصف وتقريره .
أو مما يقع تحت الخواص وهو أكثر الأنواع المنزعة .
فمن المبصرات قول أبي الحسن العقيلي :

وللأقاحي قصور كلها ذهب
وقول التنوخي :

أحسن بدجلة والدجي متصوب
والبدر في أفق السماء مغرب^(١)

فكأنها فيه بساط أزرق وكأنه فيها طراز مُذهب
وقول ابن المعتز :

له طرّة كجناح الغداف تلوح على غرة مقمرة^(١)
وفي عطفة الصدغ خال له كما استلب الصولجان السكره

وقول شاعر :

غطى على عينيه شعرية تُسعر في القلب لبيب الضرام
كأنه البدر بدا نصفه ونصفه الآخر تحت الغمام

ومثله قول الآخر :

لا تحسبوا شعرية أصبحت من رمد في وجهها مرسله
ولأنما وجنتها كعبة أسترها من فوقها مُسبله

والشعرية بفتح الشين نسبة إلى الشعر : غشاء أسود رقيق يكون على وجه
النساء والأرمد ، وأصله أن ينسج من الشعر ثم أطلق على كل ما شابهه .

وقول السَّمِيسِر الأندلسي :

بعوض جعلن دمي قهوة وغنّيني بضروب الأغان
كأن عروقي أوتارها وجسمي رباب وهن القيان

وقول أبي فراس :

وكأنما السيرك الملاء تحفها ألوان ذاك الروض والزهر

بسط من الديباج بيض فروزت أطرافها بفراوز خضر^(٢)

وفي هذين البيتين ما يعرب عن استخدام نفائس الفرس^(٣) .

(١) الغداف : غراب كبير ، أو غراب القيط .

(٢) الفراوز : التطاريف . (٣) يتيمة الدهر — ١ — ٢٤

وللطفرائي :

وكانما الشمس المنيرة إذ بدت
متحاربان لذا يحجن صاغة
ولشهاب الدين الوادى أشى :

مألاح فى درع يصول بسيفه
إلا حسبت البحر مدّ بجدول
قال الصفدى جمع هذا المقطوع بين قول ابن عباد (١) :

ولما اقتحمت الوغى دارعا
حسبنا حياك شمس الضحا
وبين قول أبى بكر الرصافى :

لو كنت شاهده وقد غشى الورى
لرأيت منه والقضيب بكفه
وقول بعضهم فى راقص :

عجبت من رجليه تتبعانه
يعلوهما طورا ويعلوانه
كأن أفعيين تلسعانه

وقول الحسن بن جبير الأندلسى :

لى صديق خسرت فيه ودادى
حسن القول سىء الفعل كالجزار
ومن لطائف ابن سكرة :

نزلتى بالله زولى
واتركى خلقى لحقى
وهو ينظر إلى قولهم : القبر دهليز الآخرة .

وقول القيسراني :

واقه لو أنصف العشاق أنفسهم
ما أنت حين تغنى في مجالسهم
وقول ابن طباطبا العلوي :

وكان الهلال لما تسدى
أو كقوس قد انحنت بانجذاب
وقول المتنبى في وصف الأسد :

بطأ الثرى مترققاً من تبه
وقول كُشاجم :

أرى وصالك لا يصفو لآمله
كالقوس أقرب سهمها إذا عطف
ومن المدبوسات قول البحترى :

وكالسيف أن لا يثته لان مثته
ومن المشمومات قول حسان :

كأن ريحهم في الناس إذ خرجوا
وقول آخر :

يزداد لؤما على المديح كما
ومن المسموعات قول ابن حَلْزَة :

وحسبت وقع سيوفنا برءوسهم
خص الطراف لكونه من الأدم ، فصوت القطر عليه أشد منه على
غيره من سائر البيوت .

فدوك منهم بما عزوا وما صانوا
إلا نسيم الصبا والقوم أغصان

شطر طوق المرأة ذى التهذيب
أو كنون في مهرق مكتوب^(١)

فكأنه آس يحسُّ عيلاً

والهجر يتبعه ركضا على الأثر
عليه أبعداها من منزع الوتر

وحداه إن خاشفته خشنان

ريح الكلاب إذا ما مسها المطر

يزداد نتن الكلاب بالمطر

وقع السحابة بالطراف المشرح^(٢)

فصوت القطر عليه أشد منه على

وقول سلمة بن عياش :

كَأَنَّ بَنِي ذَا لَانَ إِذَا جَاءَ جَمْعُهُمْ فَرَارِيحٌ يُلْقَى بَيْنَهُنَّ سَوِيْقٌ ^(١)
وَصَفَهُمْ بِهَذَا لِدَقَّةِ أَصْوَاتِهِمْ وَعَجَلَةِ كَلَامِهِمْ .

وقول ابن الرومي في « وحيد ، المغنية :

تَمَغْنِي كَأَنَّهَا لَا تَغْنِي مِنْ سَكُونِ الْأَوْصَالِ وَهِيَ تَجِيدُ
مَدِّ فِي شَأْنِ صَوْتِهَا نَفْسٌ كَأَنَّهَا فَكَأَنَّهَا عَاشِقُهَا مَدِيدُ
وقول آخر :

أَشْتَهَى فِي الْغَنَاءِ مُجَّةَ حَلَقٍ نَاعِمِ الصَّوْتِ مَتَعِبِ مَكْدُودِ
كَأَنَّيْنِ الْمَحَبِّ أَضْعَفُهُ الشَّوْ قِ فُضَاهِي بِهِ أَنْيْنَ الْعُودِ

(١) السويق : ما يصنم من الخنطة والشعير :

الفصل السادس عشر

شعراء التشبيه

قد يسبق إلى الظن أن التشبيه يقتضى للشعراء جميعاً بنفسه واحدة وأن حظهم منه متساو لا يقع فيه التفاوت والتباين ، وهذا خلاف الواقع قديماً وحديثاً ، وضد الطبيعة الإنسانية التى تأبى الاتحاد فى المزايا والهبات ، وتجنح دائماً إلى التخصيص والتمييز بين الأفراد .

وعلى هذا الأصل نجد جماعة من الشعراء رزقوا الإجابة فى التشبيه على الإطلاق ، فوق ما عرفوا به من السبق فى تشبيه أشياء خاصة .

ونجد جماعة أخرى انفردوا أو قل تخصصوا فى تشبيه أشياء بعينها طارت لهم فيها شهرة حتى عرفوا بها وعرفت بهم .

فمن القسم الأول امرؤ القيس من الجاهليين ، وذو الرمة من الإسلاميين وقد شهد لها بذلك حماد الراوية بقوله : امرؤ القيس أحسن الجاهلية تشبيهاً ، وذو الرمة أحسن الإسلام تشبيهاً ^(١) .

وكان ابن المعتز يفضل ذا الرمة كثيراً ويقدمه بحسن الاستعارة والتشبيه ^(٢) .

ويقول العسكرى : أجمعت العرب على أن ذا الرمة أحسنهم تشبيهاً ^(٣) .
ويقول الألبشهى : وليس لأحد من شعراء العرب فى نعت محاسن النساء

(١) طبقات الشعراء لابن سلام - ٢٦ - ٢٧ - خزنة الأدب للبغدادى - ١ - ١٠٦

(٢) العمدة - ١ - ١٨٥ (٣) ديوان الماتنى - ٢ - ١٤٧

من الأوصاف البارعة مع جودة السبك ، ورقة اللفظ ما لذي الرمة حتى كأنه حضري من أهل المدن لا من أهل الوب^(١).

وفي العصر العباسي الأول عرف بجودة التشبيه أبو نواس ، وفيه يقول المبرد : من أكثر المحدثين تشبيها لا تساعه في القول ، وكثرة تقننه ، واتساع مذاهبه : الحسن بن هاني^(٢).

وفي العصر العباسي الثاني نبت أكبر شاعر انتهى إليه هذا الفن وهو ابن المعتز ، وقد ظاهره على ذلك نشأته الملوكية وما أحاط به من مظاهر الترف وبلهنية العيش ، وألوان النعيم في قصور الخلافة الناعمة الحافلة بروائع الحضارة المادية .

وكان ابن المعتز يعرف ما وهبه الله من عبقرية التشبيه ، فأثر عنه قوله : إذا قلت : « كان » ، ولم آت بعدها بالتشبيه ففض الله فاي^(٣).

وقد أفاض النقاد في تفرد ابن المعتز بهذه الهبة بما لا يدع مجالا لمستزيد فيقول الباقلاني : وأنت تجد في شعر ابن المعتز من التشبيه البديع الذي يشبه السحر ، وقد تتبع في هذا ما لم يتبع غيره ، واتفق له ما لم يتفق لسواه من الشعراء^(٤).

ويقول الحصري : وليس بعد ذي الرمة أكثر افتنانا ، وأكبر تصرفا وإحسانا في التشبيه منه^(٥).

ويقول الثعالبي : تشبيهات ابن المعتز يضرب بها المثل في الحسن والجودة . ويقال : إذا رأيت كاف التشبيه في شعر ابن المعتز فقد جاءك الحسن والإحسان .

(١) المستطرف - ٢ - ٢٢

(٢) الكامل للمبرد « شرح المرسف » ٢٢ - ٧ - ٤٠

(٣) معاهد التنصيص - ١ - ١٤٦ (٤) إعجاز القرآن - ٢٠٧

(٥) زهر الآداب - ١ - ٢١٩

ولما كان غذى النعمة وريب الخلافة ومنقطع القرين في البراعة ، تها
له من حسن التشبيه ما لم يتها لغيره ممن لم يروا مارآه ولم يستحدثوا
ما استحدثه من نفائس الأشياء وطرائف الآلات ، وبهذا المعنى اعتذر ابن
الرومي في قصوره عن شأو ابن المعتز في الأوصاف والتشبيهات ^(١) .

ويقول ابن رشيق : إن الطريقة التي غلبت عليه وانقاد إليها طبعه ،
وسهل عليه تناولها : التشبيه ^(٢) .

ويقول العباسي : هو أشعر الناس في الأوصاف والتشبيهات ^(٣) .
على أنه يجب أن يعرف أن ابن المعتز برع في نوع خاص من التشبيهات
هو التشبيه المحسوس الذي ليس بتمثيل ولا يحتاج إلى تأويل .

وفى ذلك يذكر عبدالقاهر : نقول : ابن المعتز حسن التشبيهات بديعها ،
لأنك تعنى تشبيهه المبصرات بعضها ببعض ، وكل ما لا يوجد التشبيه فيه من
طريق التأويل ، كقوله :

كان عيون الزرجس الغض حولنا مدهن در حشوهن عقيق
وإحسانه في هذا النوع أكثر ، وهو به أشهر ، فلا يقال : إن ابن المعتز
حسن الأمثال : تريد به الآيات مثل :

اصبر على مضض الحسو د فإن صبرك قاتله
كالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

وإنما يقال : صالح بن عبد القدوس كثير الأمثال في شعره ^(٤) .
ومثل ابن المعتز في قلة أمثاله مروان بن أبي حفصة ، حتى قال بعض
النقاد : ليس في شعره إلا بيت واحد يتمثل به .

(٢) العمدة - ١ - ١٩٤

(١) ثمار القلوب - ١٨٣

(٤) أسرار البلاغة - ٧٠ - ٧٢

(٣) معاهد التنصيص - ١ - ١٤٦

ولا شك في قلة الأمثال في شعر مروان ، ولكن ليس إلى هذا الحد - كما يقول الشريف المرتضى - (١) .

وشهرة امرئ القيس وذى الرمة وابن المعتز بالتشبيه جعلت طائفة من المتعقبين يقولون : الشعراء ثلاثة : جاهلي وإسلامي ومولدي ، فالجاهلي : امرؤ القيس ، والإسلامي : ذو الرمة ، والمولدي : ابن المعتز .

وهذا قول من يفضل البديع وبخاصة التشبيه على جميع فنون الشعر (٢) .

وفي الأندلس اشتهر بالتشبيه أبو عامر بن شهيد ، وفيه يقول ابن بسام : هو من أقوى الشعراء استعارات وأصحهم تشبيهات (٣) .

ومن القسم الثاني - ويدخل فيه شعراء القسم الأول - جماعة كثيرة العدد .

فوصف الناقة عرف به طرفة بن العبد .

وصف الإبل وراعيها عرف به الراعي النيمري (٤) .

ووصف الصيد عرف به امرؤ القيس .

ووصف المطر عرف به امرؤ القيس وعبيد بن الأبرص وأوس بن حجر

وعبد بن الحساس وذو الرمة .

ونذب الأطلال وبكائها عرف به مسعود بن عمرو الأزدي .

ووصف النخل عرف به البطين التيمي .

وذم الأضياف عرف به اللعين المنقري .

ووصف الثور والظليم عرف به الطرمح .

ووصف الظباء عرف به عدي بن الرقاع .

(١) أمالي المرتضى - ٣ - ٣٤ (٢) العمدة - ١ - ٦٣

(٣) الذخيرة - ٢ - ٢٨٧

(٤) اختلف في سبب تسميته بذلك ، ويقول ابن سلام : لما سمي بذلك لسكثرة وصفه

الإبل وحسن نفعه لها . أمالي المرتضى - ٢ ص ٦

ووصف حجر الوحش والقوس^١ عرف به أوس بن حجر والشمخ .
 ووصف السلاح عرف به أوس بن حجر .
 ووصف الخمر عرف به الأعشى والأخطل وأبو الشيص وأبو نواس .
 ومدح الملوك عرف به الأخطل وأبو الشيص .
 ووصف النساء عرف به الأخطل وعمر بن أبي ربيعة .
 ووصف الشباب عرف به ابن أبي ربيعة .
 ووصف الأسد عرف به أبو زيد الطائي .
 ووصف أحوال الآخرة عرف به أمية بن أبي الصلت .
 ووصف الخيل عرف به امرؤ القيس وأبو داود الإيادي والنابعة
 الجعدى وسلامة بن جندل وطفيل الغنوى ، والنميرى وأبو تام
 والبحترى والمختنى .
 وكان طفيل الغنوى يلقب بطفيل الخيل لحسن وصفه لها ، وكان
 عبد الملك بن مروان يقول : من أراد أن يتعلم ركوب الخيل فليرو
 شعر طفيل^(١) .
 أما أبو الطيب فقد ذكر الخيل في كثير من شعره ؛ وكان يؤثرها على
 الإبل ؛ لما يقوم في نفسه من التهيّب بذكر الخيل وتعاطى الشجاعة^(٢) .
 ووصف المهامه والبوادى والجمال والأنساع والأزمّة والحرباء عرف
 به ذو الرمة .

ومن بدائع قوله في الحرباء .

يصلى بها الحرباء للشمس مائلا
 إذا حول الظلّ العشى رأيتـه
 على الجذل إلا أنه لا يكبر^(٣)
 حنيفا وفي قرن الضحا يتنصر

(١) الشعر والشعراء — ٢٧٥ (٢) العمدة — ١ — ١٥٣

(٣) الجذل بالكسر : أصل الشجرة .

وقوله :

ودَوِيَّة جرداء جرداء خِيَمَتْ بها هَبَوَاتُ الصَّيْفِ من كل جانب (١)
 كأن يَدِي حَرَبَاهُمَا مَتَمَسَكَا يدا مَذْنِبٍ يَسْتَغْفِرُ الله تَائِبٍ
 وقوله :

وقد جعل الحَرَبَاءُ يَصْفَرُّ لَوْنُهُ وَيَخْضَرُّ من حَرِّ الهَجِيرِ غِبَاغِيَّةٌ (٢)
 وَيَسْبِجُ بالسَّكْفِينِ سَبْحًا كَأَنَّهُ أَخُو فَجْرَةٍ أَوْفَى بِهِ الْجَذْعُ صَالِبُهُ
 وهذه التشبيهات - كما يقول العسكري - مصيدة عجيبة للإصابة ، دالة
 على شدة الحذق وثقوب الذهن (٣) .

ووصف مثالب الرجال عرف به ابن الرومي .

ووصف المعارك عرف به أبو الطيب .

ووصف النور والطير عرف به الصنوبري .

ووصف الطيف والقصور والبرك عرف به البحرى .

ووصف مظاهر الطبيعة عرف به ابن خفاجة الأندلسي وابن
 حمديس الصقلي .

ووصف شباك صيد السمك والحمامات وطير الخُطَّاف عرف به
 السرى الرفاء .

والقنجر والحامسة عرف به أبو فراس الحمداني والشطارة والمغازلة والخمر
 والخمار عرف به أبو نواس .

ووصف الأزمنة والنجوم عرف به محمد بن يزيد بن مسلمة .

(١) الدوية والداوية بالتشديد والتخفيف : القلاة ، والهبات جمع هوة القفرة .

(٢) الغباغب جمع غيبب : اللحم المتدلى تحت الحنك كالغيب .

(٣) ديوان المعاني - ٢ - ١٤٧

الفصل السابع عشر

الاشياء التي وردت في التشبيه كثيرا

من يتتبع الآثار الأدبية يعجب من أن الحظوظ لمست أشياء خاصة
يجرى ذكرها في التشبيه كثيرا ، حتى أصبحت متميزة المنزلة ملحوظة المكانة
فكان قانون السعود والنحوس يأبى إلا أن يجرى على مافى الوجود من
ناطق وصامت ، ونام وجامد .

الجوارح الإنسانية .

فمن الجوارح الإنسانية : العيون ، فقد استفاضت بها أشعار الغزل
والنسيب ، ويندر أن يتحدث شاعر عن محاسن المرأة وينسى عينها الفعولين
بالألبياب ما تفعل الخمر كما يقول الشاعر !

والعيون المحببة إليهم قبل الاختلاط بالأجانب هي العيون السود النجل
الوطف الأهداب ، الفاترة الأجفان ، الناعسة الألاحظ .

ومن ثم كانت العيون الكحيلة آثر لديهم من العيون الزرق والخضر
والعسلية وما إلى ذلك .

الحيوان الأهلى .

ومن الحيوان الأهلى النوق ، فقد أفاضوا في نعت أعضائها وسيرها ،
ووصفها بالنحول وتشبيهها بالقسي ، فمن بدائع ذلك قول الشماخ يصف
سيرها :

كَأَن ذُرَاعِيهَا ذُرَاعِي مُدَلَّةٌ بُعِيدَ السَّبَابِ حَاوَلَتْ أَنْ تَعْذُرَا
 مِنَ الْبَيْضِ أَعْطَافًا إِذَا اتَّصَلَتْ دَعَتْ فِرَاسَ بْنَ غَنَمٍ أَوْ لَقِيْطَ بْنَ يَعْصَمَ
 بِهَا شَرْقَ مِنْ زَعْفَرَانَ وَعَنْبِرَ أَطَارَتْ مِنَ الْحَسَنِ الرَّادِ الْمُحْبَرَا
 مُجَدَّةُ الْأَعْرَاقِ قَالَ ابْنُ ضَرَّةَ عَلَيْهَا كَلَامًا جَارَ فِيهِ وَأَهْجَرَا ^(١)
 تَقُولُ وَقَدْ بَلَ الدَّمُوعَ خَارَهَا أَبَتْ عَفْقَى وَمَنْصَبِي أَنْ أُعِيرَا
 شَبَهَ ذُرَاعِيهَا وَهِيَ تَنْدَرُعُ فِي سِيرِهَا بِذُرَاعِي امْرَأَةٍ مُدَلَّةٍ عَلَى أَهْلِهَا بِبِرَاءَةٍ
 سَاحَتِهَا ، وَقَدْ حَكَى عَنْهَا ابْنُ ضَرَّتِهَا كَلَامًا أَهْجَرَ فِيهِ : أَيْ أَحْفَشَ ، فَهِيَ تَرْفَعُ
 يَدَيْهَا وَتَضَعُهُمَا وَتَقْبِضُهُمَا وَتَبْسُطُهُمَا ، وَتَعْذُرُ وَتَحْلِفُ وَتَنْضَحُ عَنْ نَفْسِهَا
 مَا جَلَبَ لَهَا ابْنُ ضَرَّتِهَا مِنَ الْعَارِ .

أَوْ مَعْنَى مُدَلَّةٌ : أَنَّهَا تَدُلُّ بِحَسَنِ ذُرَاعِيهَا فَهِيَ تَذَمِّنُ إِظْهَارَهُمَا لِيَرَى
 حَسَنَهُمَا .

وَبُعِيدَ السَّبَابِ : أَيْ فِي عَقَبِ الْمَسَابَةِ قَامَتْ تَعْذُرُ إِلَى النَّاسِ .

وَقَوْمٌ يَرُونَهُ بِعِيدِ الشَّبَابِ ، وَمَعْنَى هَذِهِ الرِّوَايَةِ : أَنَّهَا نَصَفَ مِنَ النِّسَاءِ ،
 فَهِيَ أَقْوَمُ بِحُجَّتِهَا مِنَ الْحَدِثَةِ الْغَرَةِ .
 وَمِثْلُهُ قَوْلُ الْآخَرِ :

كَأَنَّ ذُرَاعِيَهَا ذُرَاعِي بُذِيَّةٍ مَفْجَعَةٌ لَاقَتْ ضُرَائِرَ عَنْ عَفْرٍ ^(٢)
 سَمِعْنَ لَهَا وَاسْتَعَجَلَتْ بِكَلَامِهَا فَلَا شَيْءَ يَفْرَى بِالْيَدَيْنِ كَمَا تَفْرَى ^(٣)
 قَالَ الْمُبَرِّدُ : أَنْشَدَنِيهِمَا عَبْدُ الصَّمَدِ بْنُ الْمُعَذَّلِ وَسَعِيدُ بْنُ سَلَمٍ ، وَلَوْ قِيلَ :
 إِنَّ هَذَا مِنْ أَبْلَغِ مَا قِيلَ فِي هَذَا الْوَصْفِ مَا كَانَ ذَاكَ بَعِيدًا .

(١) فِي السَّكَاكِتِ لِلْمُبَرِّدِ « شَرْحُ الْمَرْصُفِيِّ » ٦ - ٢٥٠ : مِثْرَاءُ الْأَخْلَاقِ .

(٢) الْبُذِيَّةُ : السَّلِيْطَةُ اللِّسَانُ ، وَعَنْ عَفْرٍ : بَضْمٌ فَسْكَوْنٌ وَضَمَّتَيْنِ . أَيْ بَعْدَ حِينَ .

(٣) الْفَرَى : الشَّقُّ .

وصفها بأنها بذية وقد فجعت بما أسمعت ونيل منها ، ولقيت خلائها بعد
زمان وتلك الشكوى كامنة فيها ، وأصغين لها يتسمعن ^(١) .

وقول بشامة بن الغدير :

كَانَ يَدِيهَا إِذَا أَرَقَلْتُ وَقَدْ جُرْنُ ثُمَّ اهْتَدَيْنِ السَّيْلَا
يَدَا سَابِجٍ خَرَّ فِي غَمْرَةٍ وَقَدْ شَارَفَ الْمَوْتَ إِلَّا قَلِيلَا

يقول : كأن يدي هذه الناقة وقت كلال غيرها من الإبل ولزومهن
المحجة يدا سابج ، فهو أشد لتحريك يده مخافة على نفسه ^(٢) .

والخيل .

وقد وصفت وصفاً مستفيضاً على السنة الشعراء والأدباء وبخاصة
في الزمن القديم فقد كانت من عدد الحرب التي لا يستغنى عنها ، كما كانت
من أدوات الترف والزينة لدى أرباب السلطان والمال ، وليس من
همنا استقصاء ما قيل .

فمن ذلك قول أعرابي في فرس أحمر :

وَأَحْمَرُ كَالِدِيَابِجٍ أَمَا سَمَاؤُهُ فَرِيًّا وَأَمَا أَرْضُهُ فَحَوْلُ ^(٣)

وقول الأمير مجير الدين بن تميم — وهو من مخترعاته — :

أَهْدَيْتَ لِي يَا مَالِكِي مَهْرَةً جَمِيلَةً الْخَالِقُ بِوَجْهِ جَمِيلِ
مُؤَخَّرَهَا وَالْعَقَقُ قَدْ أَوْقَعَا قَلْبَ الْأَعَادِي فِي الْعَرِيضِ الطَّوِيلِ
قَدْ لَبِستَ مِنْ شَفَقِ حَلَةٍ تَخْبِرُنَا أَنَّ أَبَاهَا أَصِيلِ

وقول آخر في أبلق أغر :

وَكَاثِمًا لَطَمَ الصَّبَاحُ جَيْدِنَهُ فَاقْتَصَ مِنْهُ نَخَاضَ فِي أَحْشَائِهِ

(١) الكامل للبهرد « شرح المصنف » ٢ - ٦ - ٣٥٣

(٢) سَمَاؤُهُ أَعَالِيهِ ، وَأَرْضُهُ : حَوَائِرُهُ .

(٣) أَمَالِي الْمُرْتَضَى - ٣ - ١٨

وقول العسكري في مثله :

يريك جبينه لمعان برق وسائر جسمه لمعان قار
فيشبه تحت جناح الليل ليلا ويحكى الخال في خد النهار
يلوح البدر منه في جبين وتتضح الثريا في عذار
وقول ابن طباطبا في أدهم أغر :

عجبا لشمس أشرقت في وجهه لم تمح منه دجى الظلام المطبق
وقول ابن المعتز في فرس أبيض :

ولقد وطئت الغيث يحملني طرف كلون الصبح حين وقد
يمشي فيعرض في العنان كما صدف المعشوق ذو الدلال وصد
فكانه موج يذوب إذا أطلقتها فإذا حبست جمد

وقال إسحاق النهرواني في فرس لأبي دلف أدهم كان يسميه غرابا :

كم كم تجرعه المنون ويسلم لو يستطيع شكا إليك الأدهم
من كل منبت شعرة من جلده خط ينمقه الحسام المخزم
رجعته أطراف الأسنه أشقرا واللون أدهم حين ضرَّجه الدم
وقول أبي تمام في فرس أسود أبيض :

صافي الأديم كأنما ألبسته من سندس برّداً ومن استبرق
مسود شطر مثلها اسود الدجى مبيض شطر كالبضاض المهرق
وقول البحتري في أغر محجل :

وأغر في الزمن البهيم محجل قد رحت منه على أغر محجل
يهوى كما هوت المقاب إذا رأت صيدا وينتصب انتصاب الأجدل^(١)
هزج الصهيل كأن في نبراته نغمت معبد في الثقل الأول^(٢)

(١) الأجدل : الصقر .

(٢) معبد : أمام الغناء بالمدينة في العصر الأموي ، والثقل الأول : صوت له .

(م ١٥ — فن التشبيه ج ٢)

وقول ابن هانيء في وصف فرس لجعفر بن علي بن حمدون بين السواد والحمرة :

من البهم ورد اللون شيب بكمة كما شيب بالمسك الفتيق خلوق^(١)
فلو ميز منه كل لون بذاته جرى سبج منه وذاب عقيق^(٢)
ومن النثر قول أعرابي : لما أرسلت الخيل جاءوا بشيطان في أشطان ،
فأرسلوه فلمع لمع البرق ، واستهل استهلال الودق ، فكان أقربهم إليه ،
الذي تقع عينه من بعد عليه .

ووصف أعرابي خيلا لبني يربوع فقال : خرجت علينا خيل من مستطير
نقع ، كأن هواديا^(٣) أعلام ، وآذانها أقلام ، وفرسانها أسود آجام .

الحيوان الوهمي .

ومن الحيوان الوحشي : الأسد ، وقد غصت به دواوين الشعر منذ
أن نظم الشعر ، لأنه عنوان الشجاعة التي يكبرها الإنسان .
والغزال والمهابة لما وصفتا به من جمال العين والجيد .

الطيور .

ومن الطيور : العقاب والصقر والطاووس .

الأزهار .

ومن الأزهار : الورد والنرجس وشقائق النعمان .

وكان أزدشير بن بابك يقول في الورد : هو در أبيض ، وياقوت
أحمر ، على كراسي زبرجد أخضر ، تتوسطه شذور من ذهب أصفر ، له رقة
الخر ، ونفحات العطر .

وقد أخذه محمد بن عبد الله بن طاهر فقال :

كأنهن يواقيت يطيف بها زمرد وسطه شذر من الذهب

(١) الخلوق بالفتح : الطيب .

(٢) السبج : الخرز الأسود .

(٣) الهوادي : الأعناق .

فاشرب على منظر مستظرف حسن من خمرة مزة كالجر في الذهب
وكان كسرى أنوشروان مستهترا بالرجس ، وكان يقول : هو يا قوت
أصفر ، بين در أبيض ، على زمرد أخضر .
وقد نقله بعض المحدثين فقال :

وياقوتة صفراء في رأس درة مركبة في قائم من زبرجد
كمثل بهي الدر ، عقد نظامها ثيرفريد قد أطاف بعسجد
كان بقايا الطل في جنباتها بقية دمع فوق خد مورد

وفي الشقائق^(١) يقول البحترى — وكان معجبا بما قال — :
شقائق يحملن الندى فسكانه دموع التصابي في حدود الخرائد
ويقول ابن الرومي :

تصوغ لنا كف الربيع حدائقا كعقد عقيق بين سمط لآلى
وفيهن نوار الشقائق قد حكى حدود غوان نُقطت بغوالى
الفواكه .

ومن الفواكه : التفاح والمان والتارنج .

الأجرام السماوية .

ومن الأجرام السماوية : الشمس والقمر ، ويشبه بهما : الزوجان .
وأول^(٢) من صنع ذلك عدى بن الرقاع العاملى ، ومنه أخذ الشعراء هذا
التشبيه وأكثروا .

(١) الشقائق وتسمى الشقيق والشقر بكسر الفاف ، سميت بذلك لحررتها تشبيها لها بشقيقة
البرق ، وقيل : النعمان : اسم الدم وشقائقه قطعه فشبهت حررتها بحمرة الدم ، ويقال :
لأنما أضيفت إلى النعمان بن المنذر لأنه حى أرضا أكثر فيها النبات .

(٢) ثمار القلوب — ٢٣٩ (٣) إعجاز القرآن — ١٤٠

وذلك أن الوليد بن عبد الملك زوج ابنة عبد العزيز بأم حكيم بنت يحيى بن الحكم، وكان يقال لها: الواصلة، لأنها وصلت الشرف بالجمال، وقد أمرها أربعين ألف دينار، فقال الوليد للشعراء: اغدوا على فقولوا في عبد العزيز وأم حكيم، فغدوا عليه وأنشده جرير قصيدة منها:

ضم الإمام إليه أكرم حرة في كل حالات من الأحوال
حكمة علت الحرائر كلها بمفاخر الأعمام والأخوال
ثم قام عدى وأنشد:

قمر السماء وشمسها اجتماعا بالسعد ما غابا وما طلعا
ماورات الأستار مثلها فيمن رأى منهم ومن سمعا
دام السرور له بها ولها وتهيأ طول الحياة معا
فقال له الوليد: لئن أقللت فقد أحسنت! وأمر له بضغف ما أمر لجرير.
ولا عيب في أبيات عدى إلا توالى حروف الربط وهي: له بها لها،
وتواليها عيب بلاغي.

وينظر إليها قول ابن الرومي:

بدر وشمس ولدا كوكبا أقسمت بالله لقد أنجبا
تبارك الله وسبحانه أي شهاب منهما أثقبا
ثلاثة تشرق أنوارها لا بدلت من مشرق مغربا
والثريا، وفيها يقول الباقلاني: وأنت تعلم أنه ليس للمتقدمين ولا
للمتأخرين في وصف شيء من النجوم مثل ما في وصف الثريا، وكل قد أبدع
فيه وأحسن (١).

فمن ذلك قول ذى الرمة:

وردت اعتسافا والثريا كأنها على قمة الرأس ابن ماء محلق

وقول ابن الطائرية :

إذا ما الثريا في السماء كأنها جمان وهى من سلكه فتبددا
وقال غيره :

كان الثريا راحة تشبُّ الدجى لتنظر طال الليل أم قد تعرضا
وقول الأشهب بن رميلة :

ولاحت لساريها الثريا كأنها لدى الأفق الغربى قُرط مسلسل
وأكثر من تشبيهها ابن المعتز ، فشبهها ببيضات الأدحى ، والنور المتفتح
واللجام المفضض إلى غير ذلك .
ومن رقائقه قوله :

فناولنيها والثريا كأنها جنى نرجس حيا الندامى به الساقى
وقد شبهت بغير ذلك وهى حقيقة بكل هذا وأكثر منه ، فهى من
عرائس السماء ، حسنة الاسم حسنة المنظر .

والهلال ، وهو عن رزق الحظوة فى التشبيه ، وقد ذكر الحموى : أنهم
وصلوا فى تشبيهه إلى السبعين . (١)

وشبهه (٢) محمد بن عبد القادر النبى بعدة أشياء فى قصيدة له ، أولها :
الأم هلال لاح أم نون حاجب بدا بجبين الأفق فى ليلة الفطر
ولكن القصيدة ليست جيدة وفيها تكلف .
وفى الرائية التى مدح بها ابن نباتة الملك المؤيد صاحب حماة ، وهنأه فيها
بعيد الفطر ، استطرد إلى تشبيه الهلال فى عشرة أبيات منها :

كان شكل هلال العيد فى يده قوس على مهج الأعداء موتور
أو مِخلب مدّة نَسر السماء لهم فكل طائر قلب منه مذعور
أو منجل لحصاد الصوم منعطف أو مخنجر مرهف الحدين مطرور

وهى من الشعر المتوسط .

وزاد على ذلك نثر الدين بن مكنس فى أرجوزته المشهورة التى سماها :
« عمدة الحرفا وقدوة الظرفا » ،

وقد أتى فيها للهلال بتشبيهات كثيرة جميلة .

ومن بدائع ما جاء فيه قول ابن المعتز — وقد أكثر من تشبيهه — :

وهلال شوال يلوح ضياؤه وبنات نعش وقف يازانه

كبنانة من مخلص لما رأى وجه الوزير دعا بطول بقائه

وقول السرى الرقاء :

وكان الهلال نون لجين غرقت فى صحيفة زرقاء

وقول بعض الوزراء :

قوموا إلى لذاتكم يا نيام ونهوا العود وصفوا المدام

هذا هلال الفطر قد جاءنا بتنجل يحصد شهر الصيام

ومن المباريات الشعرية الرائعة : أن ابن قلاقس وابن المنجم اجتمعا
فى منار بعض الجوامع — والشمس قد غربت وبدا الهلال فى حمرة
الشفق — فاقترح عليهما جماعة من الأدباء أن يصنعا على البديهة فى ذلك ،
فقال ابن قلاقس :

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربة وانظر لما بعدها من حمرة الشفق

غابت وأبقت شعاعا منه يخلفها كما احترقت بالماء فى الغرق

وللهلال ، فهل وافى لينقذها فى إثرها زورقا قد صيغ من ورق

وقال ابن المنجم :

يارب سامية فى الجوقت بها أمد طرقي فى أرض من الأفق (١)

حيث العشيّة في التمثيل معركة . إذا رآها جبان مات للفرق
شمس نهاريّة للغرب ذاهبة بالنيل مصفرة من هجمة الغسق
وللهلال انعطاف كالستان بدا من سورة الطعن ملقّ في دم الشفق

واجتمع ابن قلاقس وابن المنجم أيضا في آخر شهر رمضان مع جماعة
من الأدباء في سطح الجامع بمصر ، فلما غابت الشمس وظهر الهلال اقترح
الجماعة على الشاعرين أن يعملّا في صفة الحال ، فلم يكن إلا كرجع الطرف
حتى قال ابن المنجم :

وعشّي كأنما الأفق فيه لازورد مرصّع بنضار
قلت لما دنت لمغربها الشمس م ولاح الهلال للنظار
أقرض الشرق صنوه الغرب دينا را فأعطى الرّهين نصف سوار

وقال ابن قلاقس :

لا تظن الظلام قد أخذ الشمس م وأعطى النهار هذا الهللا
إنما الشرق أقرض الغرب دينا را فأعطاه رهنه خالخلا
وهو بما تواردت فيه الخواطر ، وقطعة ابن المنجم أحسن لتتصيفه
السوار .

الموات .

ومن الموات : البحر ، لأنه يمثل الكرم في خيال العربي ، وهو
والشجاعة يؤلفان خلق الفتوة التي عرف بها العرب .
والثائر وقد آمن الله بها على عباده في قوله — تعالى — : « أفرأيتم النار
التي تورون ، إلى قوله : « نحن جعلناها تذكرة ومثاعا للمُتَّقِينَ » .
فذكر منفعتها وحسن عائدتها في الدنيا والدين .

وكانت العرب إذا تحالفت ، تحالفت عليها ، ويدعون على من يغدر
وينقض العهد بالحرمان من منافعتها (١) .

ويذكر الجاحظ أنهم قالوا : ليس في العالم جسم صرف غير مزوج ،
ومرسل غير مركب ، ومطلق القوى غير محصور ولا مصور ، أحسن
من النار .

ويقولون : شراب كأنه النار ، وكأن لون وجهها النار .
وإذا وصفوا بالذكا قالوا : ما هو إلا نار ، وإذا وصفوا حمرة
العرض (٢) وحمرة الذهب قالوا : ما هو إلا نار (٣) .

ويشبه الفرس في عدوه بالنار ؛ كقول ابن المعتز :

طوى الشحم على متنيه مثلما يطوى القباطى تجر
فهو نار والتراب دخان مستطير وحصى الأرض جمر
ومن عجيب التشبيه فيها قول الأول :

كأن الريح تقطع من سناها بنائق جبة من أرجوان
وقول مروان بن أبي الحصال :

لابنة الزند في الكوانين جمر كالدرارى في دجى الظلمات (٤)

خبرونى عنها ولا تكتمونى ألدنيا صناعة الكيمياء ؟

سبكت فحمها صفائح تبر رصعتها بالفضة البيضاء

كلما رفرف النسيم عليها رقصت فى غلالة حراء

والبيت الأخير مأخوذ من قول الخفاجى :

وكانها والريح عابثة بها تزهى فترقص فى قيص أحمر

(١) ديوان المعاني - ١ - ٢٨٦ - ٢٨٧ (٢) العرض : المال .

(٣) الحيوان - ٥ - ٣٣ (٤) البنائق : جيوب القميص جمع بنيقة .

(١) ابنة الزند : كناية عن النار لأنها تقدر منه .

وقول سيف الدولة - وهو من الشعر الملوحي :

كأنما النار والرماد معا وضوءُها في ظلامه ^{يُحجِب} ^{عَوْدَ}
وجنة عذراء مسها خجل فاستترت تحت عنبر أشهب

والقلم

وقد فضله ابن الرومي على السيف فقال :

كذا قضى الله الأقلام مذبريت أن السيوف لها مذار هفت خدم
وقال فيه بعض الأعراب :

لعمرك ما السيف سيف الكمي له شاهد إن تأملتَه
أداة المنية في جانيه ألم تر في صدره كالسنان
ويقول العسكري :

انظر إلى قلم تنكس رأسه ليضم بين موصل ومفصل
تنظر إلى مخالب ليث ضيقم وغرار مسنون المضارب مقفل
يبدو لناظره بلون أصفر ومدامع سود وجسم منجل
فالدَّرج أبيض مثل خد واضح يثنيه أسود مثل طرف أكل (١)
وأنشد أبو أحمد عن الصولي :

ماضرَّ من أضنى بهجرانه قلب كئيب القلب حرَّانه
لوفرَج الكربة عن مدنف تشفَّه لوعة أحزانه

برقعة ينظمها كفه نظم لآليه ومرجانه
بمرهف الأحشاء ذى حلة موشية ترفع من شأنه
لعابه يسر وعسر إذا جاد به تفليج أسنانه
إذا امتطاه بشبهاته كشف أسراراً بإعلانه (٢)
يركض فى ميدان قرطاسه ركض جواد وسط ميدانه
والفعل .

وقد نالت نصيباً من التشبيه — على حطة قدرها — !
فقد وقع تشبيهها بالمطية والراحلة كثيراً فى شعر العرب من المتقدمين
والمتأخرين .

فمن قول بعض العرب :

رواحلنا ست ونحن ثلاثة نجبن الماء فى كل منزل

وقول أبى نواس :

إليك أبا العباس من دون من مشى عليها امتطينا الحضرمي الملسنا
قلائص لم تعرف حيننا على طلاً ولم تدر ما قرع الفنيق ولا الهنا
الطلا بفتح الطاء : ولد الظبية ساعة يولد ، والفنيق : الفحل المكرم
لا يؤذى ولا يركب ، والهناء بالكسر : القطران .
يشبه نعالهم بالنوق الشواب التى لم ترأى ولداً ، ولم يقربها الفحل ولم
تدهن بالقطران .

وقول المتنبي :

لا ناقتى تقبل الرديف ولا بالسوط يوم الرهان أجهدا
شراكها كورها ، ومشفرها زامها ، والشسوع مقودها

(١) شبيهاته : يريد أصابعه الدقيقة الجميلة .

الشراك : سير النعل ، والكور : الرحل ، والشسوع : السيور التي تكون خلال الأصابع .

جعل شراك نعله بمنزلة الرحل للناقة ، وزمامها بمنزلة المشفر ، والشسوع بمنزلة المقود .
وقوله أيضاً :

وحيت من خوص الركاب بأسود من دارش فغدوت أمشي راكبا الخوص : جمع أخوص وهو الغائر العينين من الجهد والإعياء ، والدارش : جلد أسود .

يقول : أعطيت بدلا من الإبل خفا أسود ؛ فأنا راكب كإش .
ويقول القاضي محمد الإحسائي المكي في نعل أهديت إليه :
وبعد فقد وصلت المطية التي هي حمراء الوبر ، المركوبة في السفر والحضر ، الكافية راكبا مثونة نفسها ، فلا تشرب ماء ولا ترعى الشجر ...
فشكر الله فضلكم ، ولا أعدم أجابكم طوالمكم والسلام (١) .

العروس .

ومن أكثر ما دارت عليه التشبيهات كلمة العروس .
فالإيا يضاف كل شيء يجمع المحاسن !
فيقال : سفينة العروس للسفينة الكبيرة التي تشتمل على نفائس الأمتعة للتجارة .

وخزانة العروس للخزانة الخاصة من خزائن الملوك .
وسوق العروس لأحسن الأسواق وأجمعها لأحسن الطرائف ؛ لأن العادة الجارية بتبخر العرائس بالطرائف والنفائس .
وبسوق العروس يضرب المثل في الحسن ؛ فيقال : أحسن من سوق

العروس ، وهو مجمع الطرائف ببغداد ، قديماً ، وما ظنك بأحسن الأسواق
في أحسن البلاد !

وسوداء العروس : جارية سوداء تبرز أمام العروس الحسنة ، وتقف
بإزائها ؛ لتسكون أظهر لمحاسنها كما يقول البحترى :

وحسن درارى الكواكب أن ترى طوالع في داج من الليل غيب
وكما يقول الآخر :

ضدان لما استجمعا حسناً والضد يظهر حسنه الضد
ولتسكون كالعوذة للجملها وكالها .

وفي ذلك يقول الصابي في وصف جارية حسنة بيدها كأس من
النبيذ الأسود :

بنفسى مقبل يُهدى فتونا إلى الشرب الكرام بحسن قدّه

وفي يده من التمرى كأس كسوداء العروس أمام خده (١)

والطاووس — وهو عروس الطير — يشبه في حسنه بعروس الإنس .
وفي ذلك يقول الشاعر :

طير على أشكاله رئيس كأنه في حسنه طاووس

وليلة العرس يشبه بها ما يوصف بالحسن كما قال صاحب :

وشادن في الحسن كالتاووس أخلاقه كليلة العروس

والقصيدة الرائعة تشبه بالعروس كقول السرى الرفاء :

زفقت إليه من مدحى عروسا معرسة الهوى في كل ناد (٢)

وقول شوقي :

لى في مديحك يارسول عرائس تيمن فيك وشاقهن جلاء

(١) التمرى : الشراب المصنوع من التمر . (٢) معرسة : مقبلة .

الفصل الثامن عشر

التجديد في التشبيه

من القواعد المقررة أن صور التشبيه وغيرها من صور البيان لا يمكن أن تجمد على هيئة واحدة ، بل لا بد أن تتجدد على مر الزمان تبعاً لسنة التغير السارية في كل شيء .

وليس بمعقول أن تتطور الأخلاق والعادات والنظم والقوانين والعقول والأفكار ، وأحوال المعيشة ، وتبقى الأداة المعبرة عن كل أولئك واقفة حيث هي تعرب عن آمال عصرها وآلامه ومعتك حوادثه ، واصطراع أهله بأساليب غريبة أو بالية .

والصور البيانية بحكم طبيعتها المرنة اللينة معرض واسع للتجديد ، وحقل خصيب للإبداع والاختراع ، ومن يتبعها في مختلف عصورها يتبين له ذلك جلياً .

فمثلاً طرفة بن العبد يصف السفينة في عهده فيقول :

يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم التراب المفايل باليد
المفايل : الذى يلعب المفايلة ؛ وهو أن يجمع التراب فيدفن فيه شيء ثم يقسم التراب نصفين ويسأل عن الدفين في أيهما هو ، فمن أصاب غلب ، ومن أخطأ غلب .

شبه شق السفينة بصدرها الماء ، بشق المفايل بيده التراب المجموع . وهذا الوصف يدلنا على أن هذه السفينة صغيرة الحجم ، هيئة السير ساذجة الصنعة ، ضعيفة القوى ، حتى إن شقها الماء كشق المفايل التراب .

ثم تكرر الأعوام ويتغير الزمن ، وتقبل دولة البخار ، وتستحيل السفن
مدنا عائمة على اليم تختال فوقه اختيالا ، فتقطع المسافات الشاسعة بسرعة كبيرة
غير مبالية بغضب الهواء ولا الماء ، فتسمع الشيخ حزة فتح الله يقول :

تجسر في اليم أذيالا مصبغة كالخود تختال في أذيال جلباب
ثم يأتي شوقي فيصف ما أمدتها به الحضارة والعلم من أسباب الراحة والترف
فيقول :

والفلك مشرقة الجوانب في الدجى يبدو لها ذيل من الأنوار
بيننا تخطر في لجين مانج إذ تنثنى في عسجد زخار
ثم يأتي حافظ فيصف قوة مراسها وشدة جلادها للبحر الهائج المائج
وصف عيان لا خيال فيقول :

تترامى بجوؤ لا يسالى أمياه تحوطه أم صخور^(١)

أزعج البحر جانبيها من الشد م فجنب يعلو وجنب يغور

وهو أنا ينحط من علو كالسيل م وأنا يحوطها منه سور^(٢)

وهي تزور كالجواد إذا ما ساقه للطعان ندب جسور^(٣)

فسفينة طرفة التي احتفي بذكرها في معلقته الخالدة لا تعد شيئا بجانب هذه
السفن الضخمة التي وصفها شعراؤنا الثلاثة .

وكانت العرب تسكره زرقة العين وتسكرها ، لأنها لم تكن معهودة في
عيونهم ، ولأنهم كانوا يرونها في عيون الروم أعدائهم ، فكانوا يعيرون
الرجل : بأنه أزرق ، ويصفون العدو : بأنه أزرق .
ومن ذلك قول الحماسي :

فمرا على إهل الغضا إن بالغضا رقارق لازرق العيون ولا رمدا

ومن رسالة المفاخرة بين السيف والقلم قول القلم للسيف : أين عينك

الزرقاء من عيني الكحيلة^(٤)

(٢) علو مثله الواو : من أعلى .

(١) الجوؤجؤ : الصدر .

(٤) خزانة الأدب للحموي - ١٣٣

(٣) الندب : الماضي الخفيف في الحاجة .

ويقول بشار في تقييح علل البخيل :

وللبخيل على أمواله علل زرق العيون عليها أوجه سود
وقد اضطر بعض الشعراء أن ينضح عن عيون محبوبه الزرق بقوله :
وعابوه أن قالوا بعينه زرقة كذاك عتاق الطير زرق عيونها
ويقول السري الرفاء في هذا المعنى :

وقالوا بمقلته زرقة تشين يظل لها مطرقا
وهل يقطع السيف يوم الوغى إذا لم يكن منته أزرقا
ولكن لما امتدت الفتوحات العربية ، ورأى العرب الجركسيات
والصقلييات والروميات بوجوههن الشقر وشعورهن الذهبية ، وعيونهن
الزرق ، أنسوا بكل ذلك ، وفتنوا به ، ولهجوا بذكره ، فمن ذلك قول عبد المحسن
الصوري :

يامن هو الماء في تكوين رفته ومن هو الخمر في أفعال مقلته
ومن بزرقه سيف اللحظ طل دمي والسيف ما غره إلا بزرقته
وتبعاً لذلك أحبوا الشعور الصفر والخر فقال بعضهم :

وفرع يزين المتن يحكى اصفراره سنابل قمح لم يتم نضوجها
وانبرى بعضهم للدفاع عنها كالشباب الظريف في قوله :
عبتم من المحبوب حمرة شعره وأظنكم بدليله لم تشعروا
لا تنكروا ما احمر منه فإنه بدماء أرباب الغرام مضفر
بعد أن كان أحسن الشعر عندهم هو الفاحم كما يقول المتنبي :

وما خضب الناس البياض لأنه قبيح ولكن أحسن الشعر فاحمه

ويظهر ذلك بخاصة في أهل الأندلس لكثرة امتزاجهم بسكانها ، حتى
ليقول ابن حزم : أما جماعة خلفاء بني مروان ولا سيما ولد الناصر منهم

فكلهم مجبولون على تفضيل الشقرة ، ولقد رأيناهم ورأينا من رأيهم من لدن
دولة الناصر إلى الآن ، فما منهم إلا الأشقر بزاعا إلى أمهاتهم حتى قد صار
ذلك فيهم خلقة حاشا سليمان الظافر فإني رأيته أسود اللثة واللحية .
ثم يقول ، وعني أخبرك : أني أحبيت في صباى جارية لى شقراء الشعر ،
فما استحسنت من ذلك الوقت سواد الشعر ، ولو أنه على الشمس أو على
صورة الحسن نفسه ^(١) .

وكانوا قديما يحبون السمن في النساء ويعدونه آية الجمال والملاحه ، وسمة
النعمة والغنى ، وشارة الترف والرفاهية ، وأكثروا من وصف ذلك كقول
عمرو بن كلثوم :

تريك إذا دخلت على خلاء وقد أمنت عيون الكاشحيننا
ذراعى عيطل أدماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنيننا
ومأكمة بضيق الباب عنها وكشحا قد جنت به جنونا
وساريتى بلنط أو رخام يرن خشاش حليهما رنيننا
يقول : تريك إذا دخلت عليها وقت خلوة أمنت فيها عيون الرقباء
والأعداء ذراعين تمتلئين لحما كذراعى ناقة طويلة بيضاء العنق لم تلب بعد .
وتريك وركا لا يتسع الباب لدخولها لعظمها وضخامتها وامتلائها باللحم
والشحم ، وكشحا جنت بحسنه ، وتريك ساقين كأسطوانتين من عاج أو رخام
بياضا وضخامة تصوت خلاخيلها .
ويقول آخر :

وماجت كموج البحر بين ثيابها يميل بها شطر ويعدها شطر
ويقول المؤمل :

من رأى مثل حبتى تشبه البدر إذ بدا

تدخل اليوم ثم تدخل أردافها غدا
والنمोज اليوم للمرأة العصرية أن تكون قليلة اللحم ، مجدولة رشيقة ،
خفيفة الحركة ، كثيرة النشاط ، غير نشوم الضحا ولا مكسال ، ولا تثقلها
أردافها عند المشي ، حتى تصاب بالبهر والإعياء والربو إذا خطت قدر الباع ،
كما يصورها عمر بن أبي ربيعة :

قطوف من الحور الأوانس بالضحا متى تمس قيس الباع من بهرها ترَبو
ولكن كما يصورها شوقي في قصيدته « أثر البال في البال » (١) :

فالقُدود بان رُباً	يُسَدُّ أنها تُثَبِّ
يلعب العناق بها	وهو مشفق حِدْب
فهي مرة صُعد	وهي مرة صَبَب
وهي ههنا وهنا	تلتقي وتضطجِب
مثلاً التقت أسل	أو تعانقت قُضِب

إلى أن يقول :

والخصور واهية	بالبنان تنجذب
سالت الأكف بها	فهي أغصن نُهَب

ويقول بعض العرب - يصف تقدم الناقة على قطار الإبل - :

تسلّ منها إذا تدانين مثل انسلال الماء من جفن العين
أوجاء أبو نواس فقال :

تذر المطي وراءها وكأنها
وقال بعده ابن المعتز :

فهي إمام الركب في ذهابها كسطر بسم الله في كتابها

(١) الشوقيات - ٢ - ٨

ولا ريب أن الأخيرين استلهما في تجديدهما البيئة الإسلامية .

وعمر بن كثوم شبه النهدي بحق العاج في قوله :

وثديا مثل حق العاج رخصا حصانا من أكف اللامسينا
واتبعه الشعراء في ذلك فقال ابن الرومي :

صدور فوقهن حقائق عاج وحلى زانه حسن اتساق
يقول الناظرون إذا رأوها أهذا الحلى من هذى الحقائق
وما تلك الحقائق سوى ثدى قددن من الحقائق على وفاق
نواهد لا يعدّ لهن عيب سوى منع المحب من العناق
وقال محمد بن مناذر :

ولها ثديان ما عدّوا من حقائق العاج أن كعبا
وقال السري الرفاء :

ومن وراء يحوف الحلى شمس ضحا تجول في جنح ليل مظلم داجي
مقدودة خرّطت أيدي الشباب لها حقين دون مجال العقد من عاج
وقال عبد الله بن أبي السَّمط :

كان الثدي إذا ما بدت وزان العقودُ بهن النحورا
حقاق من العاج مكنونة يسعن من الدر شيئا كثيرا
وفي رواية :

حقاق من الدر مخروطة يسعن من المسك شيئا يسيرا
وعلى كلا الروايتين نرى سمة التجديد واضحة ، فقد اتسع الوصف وشمل
أشياء أخرى وأصبح طريقا دقيقا ، فبعد أن كانت الثدي حقائق عاج
أصبحت حقائق عاج مملوءة بالدر ، أو حقائق عاج تتسع لشيء قليل من المسك .
— يريد حلة الثدي — وهو تفصيل مستوعب جميل .

وجاء تشبيه النهدي بالرمان كقول البحتري :

ولقد تبيت أنا ملي يحنين رمان الصدور

وقال ابن الرومي في وصف القيان يحتضن العيدان :
 ملقحات أطفالهن ثديا ناهدات كأحسن الرمان (١)
 مُفَعَّمات كأنها حافلات وهي صفر من درة الألبان
 ثم جاء ابن المعتز أو الوزير المهلب فبلغ الغاية في التجديد ، وقال أحسن ما قيل
 حتى اليوم :

قيح بمثلك أن تهجري وأقبح من ذاك أن تهجري
 أقاتلتي بفتور الجفون ورماتين على مرمر
 كحقين من لب كافورة برأسيهما نقطتا عنبر
 ولا شك أن هذا تصوير خالد للثدي .
 والناس من قديم يشبهون العيون في فعلها بالخنر والسيوف والنبال
 والسهام ، لا يكادون يخرجون عن ذلك .
 يقول ذو الرمة :

وعينان قال الله كونا فكانتا
 ويقول أبو نواس :

تسقيك من لحظها خمرًا ومن يدها
 ويقول المتنبي :

رأيت التي للسحر في لحظاتها
 ويقول شاعر :

ينظرن من خلل السجوف كأنما
 ويقول أعرابي :

نبارز أبطال الوغى فنبيدها ويقتلنا في السلم لحظ الكواعب

(١) الدرة بالسكر : اللبن وكثرته وسيلانه .

ولست سيوف الهند تقي نفوسنا ولكن مهام فوقت بالحواجب^(١)
وجاء حفي ناصف فخرج من هذه الطريقة في بعض ما نظم وكان مجددا
حقا حين قال :

فهي كالسكرباء تومي بلحظ فتدق الأجراس في الأكباد
وقد يخدع الشاعر عن نفسه فيأتي بمعنى من المعاني في غرض ربما كان
غير مطروق ، فيخيل إليه أنه سبق الشعراء بذلك وهو في الحقيقة مسبوق
لأن أكثر المعاني تراث شائع مركز في عقول الناس ، ولا سيما المتشابهون
منهم في البيئة والثقافة والحالة الاجتماعية ، وإنما يأتي الشاعر ذلك الوهم من
ناحية قصور ثقافته وعدم اطلاعه على آثار غيره .

من ذلك ما قصه عبد الله بن جعفر بن درستويه ، قال : قال لي
البحترى — وقد اجتمعنا على خلوة عند المبرد وسلكننا مسلكا من
المذاكرة — : أشعرت أنى سبقت الناس كلهم إلى قولي :

شقائق يحملن الندى فكأنه دموع التصابي في حدود الخرائد
كأن يد الفتح بن خاقان أقبلت تليها بتلك البارقات الرواعد
فاستحسن ذلك المبرد استحسانا أسرف فيه ، وقال : ماسمعت مثل هذه
الألفاظ الرطبة والعبارة العذبة لأحد تقدمك ولا تأخر عنك !

فاعترت البحترى أريحية جر بها رداء العجب !
فكأنه أعجبني ما يعجب الناس من مراجعة القول ، فقلت : يا أبا عبادة
لم تسبق إلى هذا !

بل سبقك سعيد بن حميد الكاتب إلى البيت الأول بقوله :
عذب الفراق لنا قبيل وداعنا ثم اجترعناه كسم نافع
وكأنما أثر الدموع بخدها طل تساقط فوق ورد يانع

(١) فوق السهم : جعل الوتر في فوقه عند الرمي .

وشرِّك فيه صديقنا أبو العباس الناشئ بما أنشدنيه آنفا :
بكت للفراق وقد راغى بكاء الحبيب لبعْد الديار
كأن الدموع على خدها بقية طَلَّ على جُلنَّار
وما أساء على بن جُريج ، الرومي ، بل أحسن في زيادته عليك :

لو كنت يوم الوداع شاهداً وهن يطفئن غلَّة الوجد
لم تر إلا دموع باكية تسفح من مقلة على خد
كأن تلك الدموع قطر ندى يقطر من نرجس على ورد
وسبقك أبو تمام إلى معنى اليتين معا بقوله :

من كل زاهرة ترقق بالندى فكأنها عين إليك تُحدر
تبدو ويحجبها الجهم كأنها عذراء تبدو تارة وتُخفر^(١)
خلق أطل من الربيع كأنه خلق الإمام وهدية المتنشر
في الأرض من عدل الإمام وجوده ومن الربيع الغض سرح يُزهر
يُنسى الربيع ، وما يروض جوده أبداً على مر الليالي يذكر
قال : فشق ذلك عليه ! وحل جبوته ونهض .

فكان آخر عهدي بمؤانسته ، وغلظ ذلك على محمد بن يزيد ، المبرد ،
وقدح ذلك في حالي عنده^(٢) .

وليس من الضروري أن يكون التجديد اختراعاً محضاً لم يسبق إليه
الشاعر ، فيمكن أن يكون توليداً وهو يأتي في المنزلة الثانية بعد التجديد .
والتوليد^(٣) : أن يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدمه ، أو يزيد
فيه زيادة ، فلذلك يسمى التوليد .

(٢) زهر الآداب — ٢ — ٢١٦

(١) الجيم : التبت الغزير .

(٣) العمدة — ١ — ١٧٧

وهو ليس باختراع لما فيه من الاقتداء بغيره ، ولا يقال له أيضاً :
سرقة ؛ إذ كان ليس آخذاً على وجهه .

مثال استخراج معنى من معنى متقدم قول ابن أبي ربيعة أو وضاح البين :
فاسقط علينا كسقوط الندى ليلة لا ناه ولا زاجر

ولده من قول امرئ القيس :

سموت إليها بعد ما نام أهلها سمو حباب الماء حالاً على حال
فولّد معنى مليحاً اقتدى فيه بمعنى امرئ القيس دون أن يشركه في شيء
من لفظه ، أو ينحو نحوه إلا في المحصول ، وهو لطف الوصول إلى حاجته
في خفية .

والمعنى الذى يريده امرؤ القيس : إخفاء شخصه .^(١)

ومثال ما زيد فيه زيادة قول عدى بن الرقاع :

تزجى أغن كأن إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها
نظر فيه إلى قول جرير :

يخرجن من مستطير النقع دامية كأن آذانها أطراف أقلام
فولّد بعد ذكر القلم إصابته مداد الدواة بما يقتضيه المعنى إذ كان القرن
أسود .

ولا شك أن التوليد أكثر من الاختراع وأسهل ، وعليه المعول
في تسمية صور البيان .

ولو أنك تصفحت دواوين الشعراء المعاصرين وبخاصة المطلعين منهم
على آداب الغرب ، لرأيت ألواناً من التجديد فى التشبيه أمدتهم بها المدنية
الحديثة التى انبسط ظلها على كل شيء ، والمعارف الحديثة التى امتد سلطانها
حتى على الذر فى مكانه السحيقة .

فمن ذلك قول البارودي يصف القطن :

والقطن بين ملوّز ومنور
كالفادة ازدانت بأنواع الحلي
وقوله يصف الثريا :

وترى الثريا في السماء كأنها
وكانها أكرّ توقّد نورها
وقوله في المصورة الشمسية :

ألا يا لقومي من غزال مُربّب
تعرض لي يومافصورت حسنه
تجول وشاحاه على قنّ رطب
يلوّرق عينيّ في صفحة القلب

وقوله من قصيدة يهنيء بها الخديو إسماعيل بولاية مصر :

فاستجلبها تلحّ خلالها بينها
كزجاجة التصوير شفقت فاجتلت
وقول شوقي في السفينة والبدر :

وكانها والموج منتظم وقد
غيداء لاهية تخط لأغيد
وقوله في أنس الوجود :

قف بتلك القصور في اليم غرق
كعذارى أبدين في الماء بضاً
وقوله من رثاء الزعيم مصطفى كامل :

دقات قلب المرء قاتلة له
إن الحياة دقائق وثوان

وقوله من أندلسية :

نَفْسِي مِرْجَلٌ وَقَلْبِي شَرَّاعُ بهما في الدموع سيرى وأرسي
وقوله في الطيارة :

حَمَلُ الْفُؤَادِ رِيْشَاءٌ وَجَرَى في عنانين له نار وماء
وقوله في الغزل :

نَاقُوسُ الْقَلْبِ يَدُقُّ لَهُ وحنايا الأضلع معبده
وقوله :

كُرَّةُ الْأَرْضِ كَمْ رَمَتْ صَوْلُجَانَا وطوت من ملاعب وجياد
وقول حافظ في القطار :

يَا حديدًا ينساب فوق حديد كأنسياب الرقطاء فوق الرغام
وقوله في الشركات :

وما الشركات السود في كل بلدة سوى شَرَكٍ يُلْقِي به من تصيدًا
وقوله :

فَمرت بأرواحنا هزة هي الكهرباء بتيارها
وقوله :

إِذَا مَا أَهَابُوا أَجَابَ الْحَدِيدُ وقام البخار له مسعدًا
وطارت إليهم من الكهربا بروق على السلك تطوى المدى
وقوله في النيل :

كَأَنَّهُ وَرِجَالُ الرِّى تَحْرُسُهُ مملك سار في جند وأعوان
وقوله في مدح الأستاذ الإمام :

كَأَن فُؤَادِي إِبْرَةَ قَدْ تَمْغُطُستُ بحبك أني حرّفت عنك تعطف
كَأَن يَرَاعِي فِي مَدِيحِكَ سَاجِدُ مدامعه من خشية الله تذرف

وقوله في الشكوى :

ودائي كداه الدين عز دواؤه وحظي كخط الشرق نحس كواكبه
وقوله :

رجائي في قومي ضعيف كأنه جنان وزير سودته مناصبه
وقوله في بعض الصحف :

يخلو بها الكذب لأربابها كأنه أول إبريل (١)
وقول الأسمر — يصف الأنوار الكشافة والمدافع المضادة — :

كأن شعاع الكاشفات سواعد يقلبها في الليل من ليس يبصر
كأن أسوداً أبصرت فوق غابها نسوراً فقامت في نواحيه تزار
وقول غنيم في سيقان الحسان السابحات في الماء :

ولذا مارأيت رأى العين منظر السوق غصن في الأمواج
قلت واد أديمه من لجين نبتت فيه غابة من عاج
ولبعض العصريين في السيقان أيضا :

قال قوم لي صفها قلت نثراً قيل شعراً
قلت أكوأب من البلور م قد أترعن خمرأ
وقوله في وصف قلب الإنجليز :

عمالهم ومحافظوهم طينة فيها تساوى البغي والتغير
في كل يوم تستجد طبيعة لهم كأن أباهم ، إمشير ،
وقول محمود حسن إسماعيل من قصيدة عنوانها ، سواقي إبريل ،

الطير مبهور الجنا ح كجفون المدمن
والعشب منضور الصبا ح كجبن المؤمن

(١) أول إبريل يستباح فيه الكذب ، ومى بدعة غريبة .

والأفق أبكار عذا رى فى رحيق الوسن
والنحل مزمار شقى م يمين أرعن
والنخل فى بحر الضيا م كسوارى سفن
والنهر خلد تائه لم يدر أى وطن
والموج ذكرى شاعر مر غريب الشجن

والتجديد من الأشياء المعشقة المحبة بالفطرة إلى النفوس ، والآثيرة
بالجيلة لدى القلوب ، تبعاً للقاعدة البلاغية النفسية : وهى أن تجدد الصورة
عند النفس أحب إليها وألذ عندها من مشاهدة معاد ^(١) ؛ لأن هذا التجديد
يَهَب لها رَوْحاً ونشوة ، ويدخل عليها بسطاً وأنساً ، وينقلها من الضيق
والسآمة والركود إلى ساحة فسيحة ندية خضراء موهنة !

وقد عرف أسلافنا قيمته فكانوا يغرون به ويحثون عليه ويجزلون
الصلة لأهله .

فهذا الأخطل يدخل يوماً إلى الخليفة عبد الملك ، فيقول : يا أمير
المؤمنين ، قد امتدحتك فاستمع منى .

فقال : إن كنت شبهتني بالصقر والأسد فلا حاجة لى بمدحك ، وإن

كنت قلت كما قالت أخت بنى الشر يد الخنساء ، لأخيها صخر ، فهات .

فقال الأخطل : وما قالت يا أمير المؤمنين ؟

قال : هى التى تقول :

وما بلغت كف امرئ متناول بها المجد إلا حيثما نلت أطول

وما بلغ المهدون فى القول مدحة ولو أطنبوا إلا الذى فىك أفضل

فقال الأخطل : والله لقد أحسنت القول ! ولقد قلت فىك بيتين ماهما

بدون قولها ! قال : هات .

فأنشد :

إذا مت مات العُرف وانقطع الندى من الناس إلا في قليلٍ مصرّد (١)
ورُدت أكف الراغبين وأمسكوا من الدين والدنيا بخلافٍ مجدّد (٢)
فأحسن صلته (٣) !

وليس في شعر الأخطل عيب سوى مواجهة الخليفة بذكر الموت فذلك
يجافي الذوق السليم ؛ فإنه - كما يقول العسكري - : ليس بحسن أن يقال
للممدوح : إذامت ! فإن استماع ذلك مكروه ، وإن كانت الشعراء قد استعملته
في كثير من مقاماتها (٤) .

وعن ابن عائشة عن أبيه : قال عبد الملك يوما - وقد اجتمع الشعراء
عنده - : تشبهوننا بالأسد والأسد أبخر ، وبالبحر والبحر أجاج ، وبالجلبل
والجلبل أوعر !

ألا قلت كما قال أمين بن خريم بن فاتك في بني هاشم :
نهاركم مكابدة وصوم وليلكم صلاة واقتراء
أأجعلكم وأقواما سواءً وبينكم وبينهم الهواء
وهم أرض لا رجلكم وأتم لأعينهم وأرؤسهم سماء
وقال الربيع حاجب المنصور : قلت له يوما : إن الشعراء يبابك وهم
كثيرون طالت أيامهم ونفدت نفقاتهم !

فقال : اخرج إليهم فاقرأ عليهم السلام ، وقل لهم : من مدحني منكم
فلا يصفني بالأسد فإنما هو كلب من الكلاب ، ولا بالحية فإنما هي دويبة متنتة
تأكل التراب ، ولا بالجلبل فإنما هو حجر أصم ، ولا بالبحر فإنما هو

(١) المصرد : القليل . (٢) الخلف المحدد : ضرع الناقة المقطوع .

(٣) في أمالي المرتضى - ٣ - ١١٣ : أن الخليفة « معاوية » وهو غير صواب .

(٤) ديوان المعاني - ٢ - ٢٧

عُظَامُطُ لُجْبُ (١) اومن ليس في شعره هذا فليدخل ، ومن كان في شعره
فليصرف !

فانصرفوا كلهم إلا إبراهيم بن هرمة فإنه قال : أنا له ياربيع ، فأدخلني
فأدخلته ، فلما مثل بين يديه ، قال المنصور : ياربيع ، قد علمت أنه
لا يحبك أحد غيره ! هات يابن هرمة !
فأنشد قصيدته التي يقول فيها :

له لحظات عن حفاني سريره إذا كرها فيها عقاب وتائل
هو الطينة البيضاء من آل هاشم إذا اسودَّ من لؤم التراب القبائل
إذا ما أتى شيئا مضى كالذي أتى وإن قال إني فاعل فهو فاعل
فقال : حسبك ! هنا بلغت ! هذا عين الشعر ! قد أمرت لك بخمسة
آلاف درهم .

فقمتم إليه فقبلت رأسه وأطرافه !
ثم خرجت فلما كدت أخفي عن عينيه ، سمعته يقول : يا إبراهيم !
فأقبلت إليه فرعا ، فقلت : ليك ! فذاك أبي وأمي !
قال : احتفظ بها فليس لك عندنا غيرها ! فقلت : بأبي وأمي أنت !
سأحفظها حتى أوافيك بها على الصراط بخاتم الجهبذ (٢) .

وقال أبو هفان : اجتمع الشعراء بياب المعتصم ، فقعد لهم محمد
ابن عبد الملك الزيات ، فقال : إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ،
ويقول لكم : من كان يحسن أن يقول مثل قول النمرى في الرشيد :
خليفة الله إن الجود أودية أحلك الله منها حيث تجتمع
إن أخلف القطر لم تخلف مخايله أوضاع أمر ذكرناه فيتسع

فقال محمد بن وهيب : فينا من يقول مثله ثم أنشد :
ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحا وأبو إسحق والقمر (١)
تحكى أفاعيله في كل نائبة الغيث والليث والصمصامة الذكر
قال : فأجازهم وفضل ابن وهيب (٢) .
ومن كلام أبي الوليد الشقندي يفاخر ابن المعلم الطنجي من بر العدو
بيلده الأندلس (٣) :

وهل منكم شاعر رأى الناس قد ضجوا من سماع تشبيه الثغر بالآقاحي ،
وتشبيه الزهر بالنجوم ، وتشبيه الخد بالشقائق ، فتلطف لذلك في أن يأتي به
في منزع يصير خلقه في الأسماع جديداً ، وكيله في الأفكار حديداً ،
فأعرب أحسن إعراب ، وأعرب عن فهمه بحسن تخيله أنبل إعراب ، وهو
ابن الزقاق حيث يقول :

وأغيد طاف بالكتوس ضحا وحشاً والصبح قد وضحا
والروض أهدى لنا شقائقه وآسه العنبري قد نفحا
قلت وأين الآقاح قال لنا أودعته ثغر من سقى القدحا
فضل ساقى المدام يجحد ما قال فلبا تبسم افتضحا
وقوله :

ورياض من الشقائق أضحت يتهادى بها نسيم الرياح
زرتها والغمام يجلد منها زهرات تفوق لون الراح
قلت ما ذنبها فقال مجيباً سرقت حمرة الحدود الملاح
وفي مصر قامت دعوة لتجديد الشعر تتمثل في الشعراء الثلاثة : شكرى
والمازني والعقاد .

(١) أبو إسحاق : كنية المعتصم . (٢) ديوان المعاني - ١ - ٢٨ .

(٣) نفح الطيب - ٢ - ١٤٤ .

وهى دعوة معتدلة لا تعقّ الشعر العربى ولا تمسخه ولا تنكر ما يجب أن يتوافر له من جمال الصياغة وعذوبة الموسيقى ، ولكن تنكر على الشعراء أن يتشبهوا بالأساليب القديمة ، والأغراض القديمة ، ويحافظوا على سلفية الشعر فى أوزانه وقوافيه وأخيلته .

ونرى لحافظ صيحة فى هذا المعنى يقول فيها — يخاطب الشعر — :

ضعت بين النهى وبين الخيال يا حكيم النفوس يا بنى المعالى
ضعت فى الشرق بين قوم هجود لم يفيقوا وأمة مكسال

.....

عشت ما بينهم مذلا مضاعا وكذا كنت فى العصور الخوالى (٢)

.....

إلى أن يقول :

آن يا شعر أن نفك قيودا قيدتنا بها دعاة المحال
فارفعوا هذه الكأثم عنا ودعونا نشمّ ربح الشمال

ويقول مخاطبا شوقى فى حفلة مبايعته أميراً للشعراء :

وقفنا على النهج القويم فإننا سلكنا طريقا للهدى غير مهيم
ملأنا طباق الأرض وجدأ ولوعة بهند ودعد والرباب وبوزع
وملّت بنات الشعر منا مواقفنا بسقط اللوى والرقتين ولعلع
وأقوامنا فى الشرق قد طال نومهم وما كان نوم الشعر بالمتوقع
ونحن كما غنىّ الأوائل لم نزل نُغنىّ بأرماع وبيض وأدرع
عرفنا مدى الشئ القديم فهل مدى لشيء جديد حاضر النفع تمتع

إلى أن يقول :

فإن كنتَ قوَّالاً كريماً مقالُهُ فقل في سبيل النيل والشرق أودع
على أنه يجب أن نلزم جانب الاعتدال والاتزان في التجديد ، فلا ننطلق
كلهم الأرين نحطم بنية الشعر ، ونطمس ألفاظه ، ونؤثر الأساليب المهلهلة
والموسيقى الشاحبة ، ونهيم في أودية من الخيال الجاحم الأرعن الذي لا تحده
حدود ولا تمسكه شكائهم .

ونرفض كل تعبير قديم ، ونعرض عن كل أسلوب تاريخي غابت عن
بيئتنا حقيقته وخفى علينا أصله ، فإن هناك نوعاً من التعبيرات والمجازات
تبين عن تاريخ الأمة وحياتها في طور من أطوارها ، فيشيع استعماله ويشهر
معناه حتى يفهمه السامع من غير حاجة إلى تفكير وتدبر أو بحث وتمعن ،
وإنما هي تعابير أصبحت تقاليد سارت في الأمة أو «كليشيات» اصطلاح
عليها ، فلا عيب إذن في استعمالها ، ولم يتخرج أى أديب من الاستعانة بها .
ولغات الأمم الأخرى حفظت كثيراً من عاداتها القديمة وتاريخها في
تعابيرها ولم تغيرها ولم تجدها .

يقال في الإنجليزية لمن يبالغ في كلامه : ينزع في القوس الطويلة .

وفي تقدير المسافة : على رمية سهم .

ويقال في الفرنسية — لمن يتوسل إلى غاية بكل وسيلة — : يبرى سهاماً

من كل خشب (١) .

ولا تزال الكلمة المأثورة «ألقى بدلوه في الدلاء» حية ناضرة في
تعبيراتنا الحديثة .

وقد استعملها الدكتور صلاح الدين باشا وزير الخارجية المصرية في

(١) التجديد في الأدب المصرى الحديث — ٧٨ — ٧٩ للاستاذ عبد الوهاب حمودة .

خطابه العظيم الذى ألقاه فى الدورة السادسة للأمم المتحدة بباريس فوقعت موقعها غير نائية ولا قافلة^(١).

إن التاريخ يبين أن الفن يتغير من حين إلى حين ، وأن تغيراته تقابل تغيرات الأخلاق والحالة الاجتماعية واللغات وحتى أشكال الحكم والسياسة ، ولكن هيهات أن يبرهن التاريخ على أن هذه التغيرات تنطوى حتما على شيء من الانحطاط فى الحاضر أو فى المستقبل ، بل نذهب إلى أبعد من ذلك ونسأل : ماهى علامة التقدم فى كائن شاعر ؟

هى أن يستطيع بوصوله إلى درجة أرقى أن يشعر بإحساسات وانفعالات جديدة دون أن يفقد قدرته على الشعور بما فى انفعالاته القديمة من جميل أو عظيم .

وهذا بعينه ما يتم للإنسان الحديث فيما يتعلق بالانفعالات الفنية ؛ فنحن على تذوقنا فى العصر الذى نعيش فيه والوسط الذى نضطرب فيه نطل قادرين على الإعجاب بأفكار وآثار عصر مضى .

صحيح أن كل فن لا يمكن أن يعيش مرة أخرى فى وسط جديد على نحو ما عاش فى الوسط القديم ولكن ليس معنى هذا أنه سيموت .

إن روائع الآثار الفنية ينهض بعضها إلى جانب بعض كذرا عالية لا يستطيع جديدها أن يسحق قديمها^(٢) .

فالتجديد إذن شيء واجب ، لأنه أمانة الحياة وعنوان سير القافلة إلى الأمام ولكن لا يصح أن يكون من هذا النوع :

تُشع بك الخواطر عن نفوذ أشعة إكس فى معنى ومبنى

* * *

(١) انظر الصحف الصادرة فى ١٧ / ١١ / ١٩٥١

(٢) مسائل فلسفة الفن المعاصرة - ٩٢ - ٩٣

وابسِمْ للقلوب تعبدك جهرا إنما أنت كالإله الوديع

* * *

شأنها كالعنصر الرد يوم في بأس وسحر

* * *

مثل وحى مجنح مر غنو جا من الريش في مقلتين حيا
ساكبا فيهما من الليلة القمراء م أم تاركا من الريش شيئا

* * *

أنا ثروة كالكا بة عمقا وكالغيب

* * *

تسكى رحمة العلا بين جفنيه م انكاه السنن بحضن البرية (١)

* * *

أما حبيبي فهو ذاك الشذا كأنه طيف الهنا الأزرق

والدكتور ناجي من المجددين المعتدلين ، ولكنني قرأت له وصفا غريبا
لطيف ابتسامة الراقصة « سامية جمال » عجبت كيف يصدر منه ، وهو : ألا
تعجبك هذه الثنايا التي تشبه أقداما صغيرة جميلة في حلبة مضيقه (٢) !

أى علاقة بين الثنايا والأقدام الصغيرة ؟ وكيف تشبه الثنايا بالأقدام
وإن كانت أقدام ملائكة لا أقدام خيل !

(٢) مجلة الكواكب عدد - ٣١ ص - ٤٤

(١) الضمير للمسيح عليه السلام .

(١٧م - فن التشبيه - ج ٢)

الفصل التاسع عشر

التشبيه المؤكد والاستعارة

يلاحظ المتبع لما أورده البلغاء القدامى من أمثلة التشبيه المحذوفة الأداة والاستعارة أن كثيراً منهم يخلط بينهما .

فالعسكري (١) جعل من باب الاستعارة قوله - تعالى - «هَنَ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ» .

حقيقته : تَمَسَّ المرأة زوجها وزوجها يماسها .
والاستعارة أبلغ من الحقيقة ، لأنها أدل على اللصوق وشدة الماسة .
ثم يقول : ويحتمل أن يقال : إنهما يتجردان ويجتمعان في ثوب واحد ويتضامان ، فيكون كل واحد منهما للآخر بمنزلة اللباس ، فيجعل ذلك تشبيهاً بغير أداة .

وكذلك عدَّ من الاستعارة قوله - تعالى - : «وَقَدْ مَنَّا عَلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْءَ مُشْورٍ» .

حقيقته : أبطلناه حتى لم يحصل منه على شيء .
وقوله - تعالى - : «وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَاءَ مِنْ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا» .

حقيقته : ذا سرور .
والاستعارة أبلغ لأن العادة جرت في الأعياد بتوفير السرور عند

الصغير والكبير ، فتضمن من معنى السرور ما لا تتضمنه الحقيقة .
وقول على — ض — : السفر ميزان القوم ، والعلم قتل ، ومفتاحه
المسألة ، والحلم والأناة تويمان نتيجهما علو الهمة .

وقول معاوية — ض — : العيال أرضة المال ^(١) .

وفي بعض الروايات : العيال سوس المال .

وقول أكنم بن صيفي : الحلم دعمة العقل .

وقول العرب : هذا رأس الأمر ووجهه ، وهذا جناح الحرب وقلبها ،
وهؤلاء رموس القوم وجماجهم وعيونهم ، وفلان ظهر فلان ، وهم لسان
قومهم وناهبهم وعضدهم .

وهذه سرّة الوادى ، وبابل عين الأقاليم ، وهذا أنف الجبل وبطن
الوادى .

وقول العلماء : هذا ميزان القياس .

حقيقته : تعديل القياس .

والعروض : ميزان الشعر .

حقيقته : تقويمه .

وعد من الاستعارة أيضاً قول أبى تمام :

صفت مثلما تصفو المدامُ خلاله ورقت كما رق النسيم شمائله
ويقول ابن رشيق فى قول ذى الرمة :

أقامت به حتى ذوى العود والتوى وساق الثريا فى ملامته الفجر

وفى بعض الروايات : حتى ذى العود فى الثرى

استعار للفجر ملامة وأخرج لفظه مخرج التشبيه ^(٢) .

(١) الأرضة : دويبة قارضة . (٢) العمدة — ١ — ١٨١ .

وهو استعارة عند ابن سنان الخفاجي ، ونص قوله : لأن الفجر لما غطى الليل بياضه وشمل الأرض عند طلوعه حسنت استعارة الملاءة له لتضمنها هذا المعنى ، وعبر بطلوع الثريا وقت الفجر : بأنه لفها في ملامته ، وتلك أحسن عبارة وأوضح استعارة ^(١) .

ويقول ابن رشيق في بيت أبي تمام :

والله مفتاح باب المعقل الأشب

جعل اسم الله — تعالى — مفتاحا !

وأى طائل في هذه الاستعارة مع ما فيها من البشاعة والشناعة ! وإن كنا نعلم إنما أراد أمر الله وقضائه ^(٢) .

ويقول : واسترذل قول بعض المولدين :

اسفرى لى النقاب يا ضرة الشمس

أترأه ظن : أن الضرة لا تكون إلا حسنة ، وإلا فأى وجه لاختياره هذه الاستعارة ؟

وعد من الاستعارة قول المتنبي :

صدمتهم بخميس أنت غرته وسمهرته في وجهه غم ^(٣)

وقد فطن القاضى الجرجاني إلى اضطرابهم بين التشبيه المؤكد والاستعارة فنسّمعه يقول : وربما جاء من هذا الباب ما يظنه الناس استعارة وهو تشبيه أو مثل ؛ فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعا من الاستعارة عدّ فيها قول أبي نواس :

والحب ظهر أنت راكبه فإذا صرفت عنانه انصرفا

ولست أرى هذا وما أشبهه استعارة . وإنما معنى البيت : أن الحب مثل

(١) سر الفصاحة — ١١٣ . (٢) العمدة — ١ — ١٨٣

(٣) المصدر المتقدم — ١ — ١٨٦ .

ظهر ، أو الحب كظهر تديره كيف شئت إذا ملكك عنانه ، فهو إما ضرب مثل أو تشبيه شيء بشيء ، وإنما الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل ونقلت العبارة في مكان غيرها ^(١) .

ويقول ابن الأثير : رأيت أبا محمد عبد الله بن سنان الخفاجي — رحمه الله تعالى — قد خلط الاستعارة بالتشبيه المضمر أداة ولم يفرق بينهما ، أو تأسّى في ذلك بغيره من علماء البيان : كأبي هلال العسكري والغامدي والآمدي ، على أن الآمدي كان أثبت القوم قدما في فن الفصاحة والبلاغة . وما أعلم كيف خفي عليه الفرق بين الاستعارة والتشبيه المضمر الأداة . ثم يقول : وقد أورد ابن سنان من الاستعارة في كتابه الموسوم بسر الفصاحة قول امرئ القيس في صفة الليل :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناءً بكلكل
وهذا البيت من التشبيه المضمر الأداة ، لأن المستعار له مذكور وهو الليل ^(٢) .

ونحن نوافق على أن الخفاجي لم يفرق كمن سبقوه بين الاستعارة والتشبيه المضمر الأداة ، ولكن نخالفه في أن هذا البيت من التشبيه . فالحق أنه استعارة ، وهو — فيما زعم ابن وكيع — : أول استعارة وقعت .

فاستعار ليل سدولا يرخيها — وهي الستور — وصلباً يتمطى به ، وأعجازاً يردفها ، وكلسكلا ينوء به ^(٣) .

وكذلك عده من الاستعارة العسكري والآمدي والباقلاني ^(٤) .

(١) الوساطة — ٤٠ . (٢) المثل السائر — ١٥٢ .

(٣) العمدة — ١ — ١٧٦ .

(٤) الصناعتين — ٢٧٢ — الموازنة بين الطائيين — ٢٣٥ — إعجاز القرآن — ٧٤ — ٧٥ .

فابن الأثير وقع فيما أخذه على غيره ، وإن كان خطؤه يرجع إلى الوهم لا إلى الخلط والاضطراب .

على أن الخفاجي وإن خلط حيناً بين أمثلة التشبيه المؤكد والاستعارة كقول الوأواء الدمشقي :

فأسبلت لؤلؤاً آمن نرجس وسقت ورداً وعضت على العنّاب بالبرد
فقد عده من التشبيه .

إلا أن قوله صريح في أن التشبيه المضمر الأداة عنده غير الاستعارة ؛ فقد أورد هذا السؤال حين عرض لهذا الموضوع : فإن قال قائل : ما الفرق بين الاستعارة والتشبيه ؟

قيل : الفرق بينهما ما ذكره أبو الحسن الرماني ، وهو أن التشبيه على أصله لم يغير عنه في الاستعمال ، وليس كذلك الاستعارة ، لأن مخرج الاستعارة مخرج ما ليست العبارة له في أصل اللغة . ثم يقول على أن الرماني قال في كلامه : إن التشبيه في الكلام ، بأداة التشبيه .

وهو يعني : كأن والكاف وما جرى مجراهما . وقد اعترض الخفاجي عليه في ذلك بقوله : وليس يقع الفرق عندى بين التشبيه والاستعارة بأداة الشبه فقط ، لأن التشبيه قد يرد بغير الألفاظ الموضوعه له ويكون حسناً مختاراً ، ولا يعده أحد في جملة الاستعارة لخلوه من آلة التشبيه .

ومن هذا قول الشاعر :

سفرن بدوراً وانتقبن أهلةً ومن غصوناً والتفتن جاذراً^(١)
فالخفاجي كما ترى يفرق تفريقاً واضحاً بينهما .

ويعتق هذا الرأى جمهرة البلغاء ، ويقتضينا إشباع البحث أن نسوق آراءهم فيما يلي :

يقول عبد القاهر : إن الاسم إذا قصد إجراؤه على غير ما هو له لمشابهة بينهما كان ذلك على وجهين :

١ - أن يسقط ذكر المشبه حتى لا يعلم من ظاهر الحال أنك أردته نحو : عنت لنا ظبية ، وأنت تريد امرأة .

٢ - أن يذكر كل واحد من المشبه والمشبه به ، فنقول : زيد أسد ، وهند بر .

والوجه الذى يقتضيه القياس ، ويدل عليه كلام القاضى الجرجاني فى الوساطة ألا تطلق عليه الاستعارة ، ولكن نقول : هو تشبيه ، ونقول فى الأول : استعارة .

والفرق بينهما : أنك عزلت فى القسم الأول ، عنت لنا ظبية ، الاسم الأصيل عنه واطرحته وجعلت كأن ليس باسم له ، وجعلت الثانى ، المشبه به ، هو الواقع عليه والمتناول له ، فصار قصدك التشبيه أمراً مطوباً فى نفسك مكنوناً فى ضميرك .

وليس كذلك القسم الثانى « زيد أسد » ؛ لأنك قد صرحت فيه بالمشبه ، وذكرك له صريحاً بأبى أن تتوهم كونه من جنس المشبه به ، وإذا سمع السامع قولك : « زيد أسد » ، وهذا الرجل سيف صارم على الأعداء ، استحال أن يظن - وقد صرحت له بذكر زيد - أنك قصدت أسداً وسيفاً .

وإذا كان الأمر كذلك وجب أن يفصل بين القسمين ، فيسمى الأول : استعارة على الإطلاق ، ويقال فى الثانى : إنه تشبيه .

وقد عَقَّب على ذلك بمثال بارع يتصل بالمعانى النفسية ؛ فذكر أن مثل الاسم مثل الهيئة التى يستدل بها على الأجناس كزى الملوك وزى السوق ،

فكما أنك لو خلعت عن الرجل أثواب السوقية ، ونفقت عنه كل شيء يختص بالسوقية ، وألبسته زى الملوك فأبديته للناس في صورة الملوك حتى يتوهموه ملكا ، وحتى لا يصلوا إلى معرفة حاله إلا بإخبار واختبار ، واستدلال من غير الظاهر ، كنت قد أعرت هبة الملك وزيه على الحقيقة ، ولو أنك أقيت عليه بعض ما يلبسه الملك من غير أن تعريه من المعاني التي تدل على كونه سوقية لم تكن قد أعرت به بالحقيقة هبة الملك ، لأن المقصود من هبة الملك أن تحصل بها المهابة في النفس وأن يتوهم العظمة ، ولا يحصل ذلك مع وجود الأوصاف الدالة على أن الرجل سوقية .

فإذا كان السامع قولك « زيد أسد » لا يتوهم أنك قصدت أسداً على الحقيقة ، لم يكن الاسم قد لحقه ، ولم تكن قد أعرت إياه إعاره صحيحة ، كما أنك لم تعر الرجل هبة الملك حين لم تزل عنه ما يعلم به أنه ليس بملك .

هذه خلاصة ^(١) ما قاله الإمام عبد القاهر في هذا الموضوع ، على أنه لا يمنع أن يسمى القسم الأول تشبيها بحسب مضمون الحال لا بحسب ما يوجبه ظاهره ^(٢) ، ويزيد على ذلك بأنه يعترف في أن إطلاق الاستعارة على مثل : زيد أسد لا يخلو من الشبهة ^(٣) .

ويقول الزمخشري ^(٤) في قوله — تعالى — : « صم بكم عمي » : فإن قلت : هل يسمى ما في الآية استعارة ؟

قلت : مختلف فيه ، والمحققون على تسميته تشبيها بليغا لاستعارة ؛ لأن المستعار له مذكور وهم المنافقون ، والاستعارة إنما تطلق حيث يطوى ذكر

(١) انظر أسرار البلاغة « فصل في الفرق بين الاستعارة والتشبيه » — ١٩٢ و « فصل

في الفرق بين الاستعارة والتشبيه » — ٢٦٠

(٢) المصدر المتقدم — ٩٧ (٣) المصدر المتقدم — ٢٦٢

(٤) الكشف — ١ — ٣٢ .

المستعار له ، ويجعل الكلام خلوا عنه صالحا لأن يراد به المنقول عنه والمنقول إليه لولا دلالة الحال أو فحوى الكلام .

وليس لقائل أن يقول : طوى ذكرهم عن الجملة بحذف المبتدأ ، فأتساق بذلك إلى تسميته استعارة ، لأنه في حكم المنطوق به نظيره ، قول من يخاطب الحجاج :

أسد على وفي الحروب نعمة فتخاء تنفر من صفيير الصافر (١)
وفصل الرازي تفصيلا جميلا مستوعبا ؛ فجعل الاسم إذا قصد إجراؤه على غير ما هو له لمشابهة بينهما على ثلاثة أقسام :

١ - إذا سقط ذكره فهو استعارة بالاتفاق كقولك : وردت بحرا ،
٢ - إذا لم يسقط وذكرت الصيغة الدالة على المشابهة ، فهو ليس من الاستعارة بالاتفاق كقولهم : زيد كالأسد .

٣ - إذا لم تذكر الصيغة الدالة على المشابهة مثل قولهم : هند بدر ، فقد اختلفوا فيه ، والحق أنه ليس من الاستعارة .

والدليل على ذلك أن الاستعارة لتام المبالغة ، ووجود المشبه يقدح في هذا التام ، لأنك قد تركت شيئا يدل على أنه ليس بأسد في قولك : زيد أسد .

ثم قف على ذلك بتعليل نفسي من جنس ما قاله عبد القاهر وهو : أن شرط المستعار أن يحصل للمستعير منافعه على الحد الذي يحصل للمالك ، فإن كان ثوبا لبسه كما يلبس المالك ، حتى إن الرائي إذا رآه معه لم يميز بينه وبين المالك .

فإذا قلت : رأيت أسدا يفيد بإطلاقه أنك قصدت الجنس المعلوم ، فقد وقع الاسم من الشجاعة موقعه من الحيوان المخصوص ، وانتفع المستعار له بالمستعار مثل المستعار منه .

(١) الفتخاء : البينة الجناح .

وقولك : زيد أسد لم يقع ذلك الموقع من حيث أن ذكره باسمه يمنع من أن يصير الاسم متناولا له ، فكان بمنزلة أن يعير المالك الرجل شيئا ويمنعه من الانتفاع به .

ولأن الإثبات والنفي في الخبر يتوجهان إلى الخبر لا إلى المبتدأ ، فإذا قلت : زيد أسد فالإثبات يتوجه إلى إثبات الأسدية ، والتصريح بذكر زيد يمنع من أن المقصود إثبات حقيقة الأسدية له ، فينبذ يتعين أن يكون المراد منه إثبات صفة من صفات الأسدية .

فإذا لم تجعله خبرا لكن فاعلا كقولك : لقيني أسد ، أو مفعولا كرايت أسدا ، أو مضافا إليه أو مجرورا كرايت جبهة الأسد ، ومررت بأسد لم يتوجه الإثبات في هذه المواضع إلى كونه أسدا بل إلى إسناد غيره له .^(١) ويقول في موضع آخر : في مثل زيد أسد : إنك ما ذكرت زيدا باسم الأسد ، بل ذكرته باسمه الخاص ، فلا جرم ليس ذلك باستعارة^(٢) .
ويقول ابن الأثير : التشبيه تشبيهان :

١ — تشبيه مظهر الأداة كقولنا : زيد كالأسد .

٢ — تشبيه مضمرة الأداة كقولنا : زيد أسد .

وهذا التشبيه المضمرة الأداة قد خطه قوم بالاستعارة ولم يفرقوا بينهما ، وهذا خطأ محض .

ثم أخذ في توضيح المضمرة الأداة فقال : إذا ذكر المنقول والمنقول إليه على أنه تشبيه مضمرة الأداة ، قيل فيه : زيد أسد : أي كالأسد ، فأداة التشبيه فيه مضمرة .

وإذا أظهرت حسن ظهورها ولم تقدح في الكلام الذي أظهرت فيه ، ولا تزيل عنه فصاحة ولا بلاغة ، وهذا بخلاف ما إذا ذكر المنقول إليه

دون المنقول ، فإنه لا يحسن فيه ظهور أداة التشبيه ، ومتى أظهرت أزيلت عن ذلك الكلام ما كان متصفاً به من جنس فصاحة وبلاغة ، وهذا هو الاستعارة .

وقد مثل لذلك بقول بعض الشعراء :

فرعاه إن نهضت لحاجتها عجل القضيبي وأبطأ الدّعص^(١)
فهذا قد ذكر فيه المنقول إليه دون المنقول ، لأن تقديره : عجل قد كالعقبي ، وأبطأ ردف كالدعص .

وبين إيراديه على هذا التقدير ، وبين إيراديه على هيئته في البيت بون بعيد في الحسن والملاحظة .

والفرق إذن بين التشبيه المضمّر الأداة والاستعارة بحسن إظهار أداة التشبيه فيه ، والاستعارة لا يحسن ذلك فيها .

وعلى هذا فإن الاستعارة لا تكون إلا بحيث يطوى ذكر المستعار له الذي هو المنقول إليه ، ويكتفى بذكر المستعار الذي هو المنقول .

وقد أورد ابن الأثير اعتراضات على هذا الموضوع تكفل بالجواب عنها ، وهذه خلاصتها :

١ - يقال : إن الفرق بين التشبيه والاستعارة يكون بذكر أداة التشبيه لا بما ذكرت ، فإذا ذكرت الأداة نحو زيد كالأسد كان تشبيهاً ، وإن لم تذكر كنحو زيد أسد كان استعارة .

والجواب : إذا لم نجعل قولنا : زيد أسد ، تشبيهاً مضمراً الأداة استحالة المعنى ، لأن زيدا ليس أسداً وإنما هو كالأسد في شجاعته ، فأداة التشبيه تقدر هنا ضرورة كي لا يستحيل المعنى .

٢ - يقال كذلك : عدم تقدير أداة التشبيه في مثل :

عجل القضيبي وأبطأ الدّعص

(١) الدّعص : قطعة من الرمل مستديرة .

يستحيل به المعنى ، لأن القد ليس بقضيب ولا الردف بدعص على الحقيقة ، وإنما الشبه في التثني والكبر .

والجواب : أن تقدير أداة التشبيه لا بد منه في الموضعين ، وإنما حسن إظهارها في موضع دون موضع ، فعلمنا أن الموضع الذي حسن إظهارها فيه غير الموضع الذي لم يحسن فيه إظهارها ، فسمينا الأول : تشبيها مضمرا الأداة والآخر استعارة ، وهي تسمية لائقة بهما .

٣ — يقال : إذا أجزت إضمار أداة التشبيه وقدرت إظهارها في قولك : زيد أسد : أى كالأسد ، فنحن نضمر أيضا المستعار له ونقدر إظهاره ، فإن الشاعر لما قال :

عجل القضيب وأبطأ الدعص

أضمر المستعار له وهو القد والردف ، وإذا أظهر قيل : عجل قد كالقضيب وأبطأ ردف كالدعص ، ولا فرق بين الإضمارين ، فكما يسعك إضمار أداة التشبيه في قولك : زيد أسد ، فكذلك يسعنا نحن إضمار المستعار له في قول الشاعر .

والجواب : أننا واقفون مع الاستحسان لا مع الجواز في إظهار أداة التشبيه وإضمارها ، وقد علم وتحقق أن من الواجب في حكم الفصاحة والبلاغة ألا يظهر المستعار له في الاستعارة ، وإذا أظهر ذهب ما للكلام من حسن ورونق ، فقول الشاعر :

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت وردا وعضت على الغناب بالبرد

لأخفاء ما به من حسن ورونق وهو من باب الاستعارة ، فإذا أظهرنا المستعار له قلنا : فأمطرت دمعاً كاللؤلؤ من عين كالنرجس ، وسقت خذا كالورد ، وعضت على أنامل مخضوبة كالغناب بأسنان كالبرد ، صرنا إلى كلام غث ، وفرق واسع بين هذين الكلامين للمتأمل ، وليس كذلك التشبيه

المضمر الآداة ، فإننا إذا أظهرنا أداة التشبيه وأضمرناها كان ذلك سواء ،
إذ لا فرق بين قولنا : زيد أسد ، وزيد كالأسد ، والمعول عليه في تأليف
الكلام من المشور والمنظوم وإنما هو حسنه وطلاوته ، فإذا ذهب ذلك عنه
فليس بشيء .

هذا إلى أن ما رآه المعترض لا يستقيم له ولو نزلنا عن درجة الحسن
الواجبة إلى درجة الجواز ، وذلك أن التشبيه في مثل : زيد أسد فيه إضمار
واحد وهو الآداة ، ولكن في مثل بيت الشاعر المتقدم :

فرعاه إن نهضت

لا تضر فيه أداة التشبيه إلا بعد أن يظهر المستعار له وهو القد
والردف ، وحينئذ يكون فيه إضماران وهما المستعار له وأداة التشبيه ، وإضمار
واحد أسر من إضمارين أحدهما معلق على الآخر .
وإذا كان الأمر كذلك فالفرق بينهما أن الاستعارة لا تكون إلا بحيث
يطوى ذكر المستعار له ^(١) .

ويقول السكاكي : وأعلم أن ليس من الواجب في التشبيه ذكر كلمة
التشبيه ، الآداة ، بل إذا قلت : زيد أسد واكتفيت بذكر الطرفين عد
تشبيها ، مثله إذا قلت : كأن زيدا الأسد اللهم إلا في كونه أبلغ ، ولا يلزم
ذكر المشبه لفظا بل إذا كان محذوفا ، مثله إذا قلت : أسد وأى أسد جاعلا
المشبه به خبرا مفتقرا إلى المبتدأ كفي ، لقصر المسافة بين الملفوظ به في الكلام
والمحذوف منه بشرائطه في قوة الإفادة ، وإنما الواجب في التشبيه إذا ترك
المشبه ألا يكون مضروبا عنه صفحا ، مثله إذا قلت : عندى أسد أو رأيت
أسدا أو نظرت إلى أسد ، فإنه لا يعد تشبيها .

وإنما عد نحو زيد أسد وقرينه المحذوف المبتدأ : تشبيها ، لأنك حين

أوقعت أسدا — وهو مفرد غير جملة — خبرا لزيد ، استدعى أن يكون هو إياه ، مثله في زيد منطلق ، في أن الذى هو زيد بعينه منطلق ، وإلا كان زيد أسد مجرد تعديد نحو خيل ، فرس لا إسنادا ، لكن العقل يأبى أن يكون الذى هو إنسان ، هو بعينه أسدا ، فيلزم لامتناع جعل اسم الجنس وصفا للإنسان — حتى يصح إسناده إلى المبتدا — المصير إلى التشبيه بحذف كلمته قصدا إلى المبالغة .

وإذا عرفت أن وجود طرفى التشبيه يمنع من حمل الكلام على غير التشبيه ، عرفت أن فقد كلمة التشبيه لا تؤثر إلا فى الظاهر ، وعرفت أن نحو رأيت بفلان أسدا ، ولقيني منه أسد ، وهو أسد فى صورة إنسان ، وإذا نظرت إليه لم تر إلا أسدا ، وإن رأيته عرفت جهة الأسد ، ولئن لقيناه ليلقينا منه الأسد ، وإن أردت أسدا فعليك بفلان ، وإنما هو أسد ، وليس هو آدميا بل هو أسد ، كل ذلك تشبيهات لا فرق إلا فى شأن المبالغة (١) .

هذا كلام السكاكى وتعبيره ملتو معقد لجريانه فيه على أساليب المنطق والفلسفة ، والمعنى ليس له ولكننه أخذه من عبد القاهر قطيفة فرده كتابنا ومثله إبريزا فأحاله بهرجا ، وإن كان له شيء فيه فهو اللبس والغموض .

وخلاصة كلام عبد القاهر : أن الحالة التى يُخْتَلَفُ فى الاسم إذا وقع فيها أيسمى استعارة أو لا يسمى ؟ هى التى يقع فيها خبر مبتدا أو خبر كان وإن أو مفعولا ثانيا لباب علمت أو حالا .

والاسم إذا وقع فى هذه المواضع ، فأنت واضح كلامك لإثبات معناه ، وإن أدخلت النفى على كلامك تعلق النفى بمعناه .

وإذا كان الأمر كذلك فانت إذا قلت : زيد أسد ورأيت زيدا أسدا ،
فقد جعلت اسم المشبه به خبرا عن المشبه .

والاسم يقع خبرا عن الشيء إما لإثبات وصف هو مشتق منه لذلك
الشيء كالانطلاق في قولك : زيد منطلق ، أو إثبات جنسية هو موضوع لها
كقولك : هذا رجل .

فإذا امتنع في قولنا : « زيد أسد » أن تثبت الجنسية لزيد على الحقيقة ،
كان لإثبات شبه من الجنس له ، وإذا كنا إنما ثبتت شبه الجنس فقد اجتلبنا
الاسم لنحدث به التشبيه الآن ونقرره وندخله في حيز الحصول والثبوت ،
وإذا كان كذلك كان خليقا بأن نسميه تشبيها إذ كان إنما جاء ليفيده ويوجهه ^(١) .

هذه آراء من ذهبوا إلى أن التشبيه المضمحل الأداة ليس من الاستعارة
— وهم أكثرية البلغاء ورؤسهم — وقد أوردنا ما ذكره من الفروق بينهما .
وتقابلهم أقلية تعد هذا التشبيه استعارة كالتنوخى وعبد اللطيف
البغدادى ^(٢) وغيرهما ، ولهم في ذلك حجتان :

الأولى : أن الاستعارة ليس لها آلة والتشبيه له آلة ، فما كانت فيه آلة
التشبيه ظاهرة فهو تشبيه ، وما لم تكن فيه ظاهرة فهو استعارة .
فمثل قولهم : زيد الأسد لا آلة فيه فوجب كونه استعارة .

الثانية : أن المفهوم من قولنا : زيد الأسد مثل المفهوم من قولنا :
لقيت الأسد وأتاني أسد .

فإذا كان مفهوما واحداً في المبالغة والمجاز وقضينا بكون أحدهما
استعارة وجب أن يكون الآخر كذلك من غير تفرقة بينهما ^(٣) .
وهناك موقف وسط بين الطرفين ، وهو موقف الخطيب وابن السبكي
والعلوى : فالخطيب يقول : فالأصح أنه يسمى تشبيها .

(١) أسرار البلاغة — ٢٦٦ (٢) عروس الأفراح — ٣ — ٣٠٠

(٣) الطراز — ١ — ٢٠٦ — ٢٠٧

وساق لذلك تعليلا اتكأ فيه على كلام عبد القاهر المتقدم .
ثم عاد فقال : ومن الناس من ذهب إلى أنه استعارة .
وعنده أن الخلاف لفظي راجع إلى الكشف عن معنى الاستعارة
والتشبيه في الاصطلاح ، وما اختاره هو الأقرب لما أوضحه من المناسبة (١) .
أما ابن السبكي فقد ساق في ذلك كلاما كثيرا وعرض لأقوال العلماء في
هذا الشأن فأقر بعضها وفند الآخر .

وزبدة رأيه أن مثل قولنا : زيد أسد يقع على قسمين : تارة يقصد به
التشبيه ، فتكون أداته مقدرة ، وتارة يقصد به الاستعارة فلا تكون مقدرة
ويكون الأسد مستعملا في غير حقيقته ، ويكون ذكر زيد والإخبار عنه
بما لا يصلح له حقيقة ، قرينة صارفة إلى الاستعارة دالة عليها .
فإن قامت قرينة على حذف الأداة صرنا إليه ، وإن لم تقم فنحن بين
إضمار واستعارة ، والاستعارة أولى فليصر إليها .

وهذا الذي ذكرته من تجويز الاستعارة لا يحتاج فيه إلى دليل لأنه
بجاز سائغ ، وكما يجوز أن تقول : جاءني أسد : تريد الاستعارة ، يجوز أن
تقول : زيد أسد .

وهذا قياس جلي .

وقد زد على من قال : بأنه تشبيه لا استعارة بقوله : وحاصل كلام
الزحشرى والسكاكي والمصنف ومن تبعهم : أن نحو زيد أسد إنما لم يكن
استعارة ، لامتناع حمل الكلام على الحقيقة ، وأن من شروط الاستعارة
إمكان حمل الكلام على الحقيقة في الظاهر وتناسي التشبيه .

ولا حاصل لما قالوه لأننا نقول : ليس من شروط الاستعارة صلاحية
الكلام لصرفه إلى الحقيقة في الظاهر ، بل لو عكس ذلك وقيل : لا بد من

عدم صلاحيته لكان أقرب ، لأن الاستعارة مجاز لا بد له من قرينة ، وإن لم تكن قرينة امتنع صرفه إلى الاستعارة وصرفناه إلى حقيقة .

وإنما نصرفه إلى الاستعارة بقرينة ، غير أن تلك القرينة تارة تكون معنوية حالية مثل : رأيت أسدا ، وتارة تكون لفظية مثل : زيد مخبرا عنه بالأسد ، فإنه قرينة تصرف الأسد عن إرادة حقيقة .

واستدل السبكي على رأيه بقول ابن مالك في شرح الكافية : إذا قلت : هذا أسد ففيه ثلاثة أوجه :

أحدهما : تنزيه منزلة الأسد مبالغة دون أداة تشبيه وأنشد :

لسان الفتى سبع عليه سداه فإن لم يزع من غربه فهو آكله

والثاني : أن ينوى أداة التشبيه : أى زيد مثل الأسد .

وفى هذين الوجهين لا ضمير فى أسد .

والثالث : أن يتأول « أسد » بصفة وافية بمعنى الأسدية ، ويجرى مجرى

ما أولته به فيتحمل الضمير ، أما إذا أشرت إلى حيوان مفترس فلا يتحمل ضمير آ .

ثم يقول ابن السبكي : وهذا الذى قاله — أى ابن مالك — هو الحق الذى لا محيص عنه ، فظهر بذلك صحة ما قلناه : من أن « زيدا أسدا » يصح أن يكون تشبيها وأن يكون استعارة بحسب المقام (١) .

ويقول العلوى : التشبيه المضممر لا يخلو حاله من قسمين :

١ — أن يكون الكلام مسوقا على جهة الاستعارة ، فلو قدرنا ظهور

آلة التشبيه لنزل قدره ولخرج من ديباجة بلاغته ، فما هذا حاله يكون من باب الاستعارة نحو قول الشاعر :

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت وردا وعضت على العناب بالبرد

(١) عروس الأفراح — ٣ — ٢٩٨ — ٢٩٩ — ٣٠٠ — ٣٠١

(م ١٨ — فن التشبيه — ج ٢)

فلو أظهرت الشبه فيه وقلت : فأمطرت دمعا كاللؤلؤ من عين كالنرجس
وسقت خدا كالورد ... لكان غثا من الكلام فضلا عن أن يكون بليغا .
٢ — أن يكون الكلام متسقا مع ظهور أداة التشبيه ، وهذا كقولنا :
زيد الأسد ، فإنك لو قلت : كالأسد كان الكلام سيديدا .

ومن هذا قيل : إن قولنا : زيد أسد هو الأحق أن يكون من باب
الاستعارة ، وأن يكون قولنا : زيد الاسد من باب التشبيه ، لأن الكاف
يحسن إظهارها في المعرف باللام دون المنكر .

والفرقة بينهما : أن اللام في الأسد للجنس فكأنك قلت : زيد يشبه
هذه الحقيقة المخصوصة من الحيوان بخلاف المنكر ، فإنها دالة على واحد
من هذه الحقيقة ، فإذا قلت : زيد يشبه واحدا من هذه الحقيقة فلا مبالغة
فيه فافترقا .

وقد قرر الزمخشري في تفسيره : أن قوله — تعالى — : «ختم الله على
قلوبهم ، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة» ، يمكن جعله من باب الاستعارة
ويمكن جعله من باب التشبيه (١) .

ويلاحظ أن العلوى لم يأت بشيء من عنده بل أخذ كلام ابن الأثير
المتقدم في الحجة الأولى وكلاما لعبدالقاهر «في تعريف المشبه به وتنكيره»
في الحجة الثانية ، ولفق بينهما ونسبهما لنفسه كما يفعل كثير آ .
والخلاصة : أن التشبيه المضمّر الأداة لا يعد من الاستعارة عند جمهرة
البلغاء وكبرائهم .

ما يحفل بالاستعارة والتشبيه .

وقد يرد من الكلام ما يجوز حمله على الاستعارة وعلى التشبيه المضمّر
الأداة معا باختلاف القرينة .

وذاك أن يرد الكلام محمولا على ضمير من تقدم ذكره ؛ فينتقل عن ذلك إلى غيره ويرتجل ارتجالا .

فما جاء منه قول البحترى :

إذا سمرت أضاءت شمس دجن ومالت في التعطف غصن بان^(١)
فلما قال : أضاءت شمس دجن بنصب الشمس ، كان ذلك محمولا على الضمير في قوله : أضاءت .

كأنه قال : أضاءت هي ، وهذا تشبيه لأن المشبه مذكور وهو الضمير في أضاءت الذي نابت عنه التاء .

ويجوز حمله على الاستعارة بأن يقال : أضاءت شمس دجن برفع الشمس ولا يعود الضمير حينئذ إلى من تقدم ذكره ، وإنما يكون الكلام مرتجلا .

وهذا الموضع فيه دقة وغموض ، وحرف التشبيه يحسن في الأول دون الثاني^(٢) .

ومن ذلك أيضاً قول ميار يمدح صاحب أبا القاسم بن عبد الرحيم :
إذا صاحب استقبلت غرة وجهه بدا قر وافٍ وماس قضيب
فقمر وقضيب : استعارة لعدم الحمل على ضمير متقدم .

ويجوز جعلها تشبيها إذا قلت في غير البيت : بدا قرأ وافياً وماس قضيباً فيكونان حالين من الضمير في بدا وماس .

وهو طرفا التشبيه لا يمنع من الاستعارة .

وبما يجب أن يعلم أن ذكر الطرفين في التشبيه المضرر الأداة لا يمنع دائماً من الاستعارة ، وإنما يوجد المنع إذا ذكر الطرفان على وجه يراد منه التشبيه^(٣) .

(٢) المثل السائر — ١٤٣ — ١٤٤

عروس الأفراح — ٣ — ٣٠٣

(١) الدجن : إظلال القيم .

(٣) طراز المجالس — ٩

وفي ظل ذلك عدوا من الاستعارة قول ذى الرمة :
فلما رأيت الليل والشمس حية حياة الذى يقضى مُحشاشة نازع
وقول الخنساء :

ترعى إذا نسيت حتى إذا أدكرت فإنما هى إقبال وإدبار
وجعل السكاكى والخطيب وغيرهما قول الشاعر :
وخيل قد دلفت لها بخيل تحية بينهم ضرب وجيع
وعتابك السيف .

وجعل الخطيب منها : الحديث الشريف « ... وهم يد على من سواهم » ،
وصار زيد أسدا .

وجعل الخطيب وغيره منها قوله — تعالى — : « فجعلناها حصيداً
كأن لم تغن بالأمس » ، « فأصبح هشياً تذروه الرياح » .
وجعل الرماني وغيره منها قوله — تعالى — : « وآتينا ثمود الناقة
مُبصرة » ، وهى حال .

وجعل الرماني منها قوله — تعالى — : « سراجاً منيراً » ،
وهو حال كذلك .

وجعل صاحب مواد البيان منها قوله — تعالى — : « أزواجه أمهاتهم ،
« نساؤكم حرث لكم » .

والحديث الشريف : « النساء جبايل الشيطان » ، « الشباب شُعبة من
الجنون » ، « المسلم مرآة أخيه » ،

وقول على — ض — : « السفر ميزان القوم » .

وكذلك يستثنى من كلامهم — ما إذا كان المشبه به المذكور خبراً عن المشبه —

أن يكون التشبيه تمثيلاً كقوله — تعالى — : « والأرضُ جميعاً قبضته يومَ
القيامة والسمواتُ مطوياتٌ مِمينه » ،

فإنه استعارة مع ذكر طرفي التشبيه والمشبّه به خبر .
وقد اعترض الرازي على ذلك بقوله : لفظ المستعار لا يمكن وقوعه
موقع الخبر ولا ما يجري مجراه كالحال في قوله - تعالى - : « ربنا أنزل علينا
مائدة من السماء تكون لنا عيداً ،

فعيداً ليس بمستعار على ما ظنه بعضهم لوقوعه موقع الخبر .
وقوله - تعالى - : « سراجاً منيراً ،

فالسراج ليس بمستعار لسكونه حالاً جاء بعد تمام الكلام .
فالمستعار إما أن يكون فاعلاً أو مفعولاً أو مجروراً أو مبتدأ ؛
كقولك : الأسد مقدم .

وبالجملة يجب أن يكون أصلاً في الحديث عنه ^(١) .

وقد سرى الخلاف إلى قوله - تعالى - : « قالوا أضغاث أحلام ، » .
قال الزمخشري : أضغاث الأحلام : تخاليطها وأباطيلها ، وما يكون
منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان .

وأصل الأضغاث : ما جمع من أخلاط النبات وحُزَمه ، الواحد ضغث
فاستعيرت لذلك .

والإضافة بمعنى من : أي أضغاث من أحلام ، والمعنى : هي أضغاث
أحلام .

وقد أوردوا عليه : أن استعارة الأضغاث للأحلام الباطلة مع ذكر
الأحلام في الكلام ، وتقدير لفظ « هي ، التي تفيد التعبير عن رؤيا مخصوصة
يحصل معه ذكر المستعار له وهو مانع من الاستعارة التصريحية .

وقد أجيب عن ذلك بكلام كثير اختلط فيه الخطأ بالصواب ، وأصحّه
ما قاله الحفاجي وقد قرره في وجهين .

١ — أن حقيقة الأضغاث : أخلاط النبات ، وقد شبه بها التخاليط والأباطيل مطلقا سواء أكانت أحلاما أو غيرها .

ثم أريد هنا بواسطة الإضافة : أباطيل مخصوصة ، فطرفا الاستعارة : أخلاط النبات والأباطيل الملفقات .

والأحلام ورؤيا الملك خارجان عنهما ، فلا يضر ذكرهما بالاستعارة كما إذا قلت : رأيت أسد قریش ؛ فهو قرينة أو تجريد .

٢ — أن الأضغاث استعيرت للتخاليط الواقعة في الرؤيا الواحدة ، فهي أجزاءها لا عينها .

فالمستعار منه حُزَم النبات والمستعار له أجزاءها ، كما إذا استعرت الورد للخد ، ثم قلت رأيت ورد هند مثلا ، فإنه لا يقال فيه : إنه ذكر الطرفان .

وقال الفاضل التحرير في حواشيه : إن ذكر المشبه يمنع الاستعارة ، لأن شرطها ألا يكون مذكورا ولا في حكم المذكور ، ولا داعي إلى جعلها استعارة بل الظاهر أنه من قبيل لجين الماء^(١) .

ومغزى ما تقدم : أن وقوع الاستعارة مع ذكر طرفي التشبيه المضمحل الأداة موضع خلاف بين البلغاء .

ولعل هذا يلقى ضوءا على سبب الخلط بين التشبيه والاستعارة في بعض أمثال القدماء .

وبما يتصل بهذه الشُّبْهَة شيان :

١ — أحدهما أن ينزل ما يقع في موقع شيء بدلا عنه منزله بدون

تشبيه ولا استعارة ؛ وهو في الاستثناء المنقطع وما يضاهيه سواء أكان بطريق الحمل كقول الشاعر المتقدم :

تحية بينهم ضرب وجيع

أوبدونه كما في قوله : أعتبوا بالصيلم^(١) .

وهو نوع مما يسمونه « التنويع » ، وحيث أطلق التنويع ؛ فالمراد به هذا كما تراهم يقولون : من باب « تحية بينهم ضرب وجيع » ، فيجعلون المشال أساساً وقاعدة له .

وليس هذا من المجاز لأن طرفيه مستعملان في حقيقتهما ، ولا تشبيها كما طرحوا به بل التشبيه يعكس معناه ويفسده .

قال الخليل : جعل الضرب تحيتهم كما تقول العرب : كلامك القتل وعتابك السيف .

فليس المعنى : تحية بينهم كضرب وجيع ، بل إن الضرب نوع من التحية غير متعارف قصداً إلى التهمك .

فلم يرد التشبيه وإنما هو حقيقة يجعل بدل الشيء القائم مقامه فرداً منه ادعاء ، ألا تراك لو قلت : — إن كان الضرب تحية فهو تحيتهم — كان حقيقة قطعاً ، فجعل الفرض المقدر كالظاهر ، وهو نوع على حدة من خلاف مقتضى الظاهر^(٢) .

وأيضاً فإن المقصود منه نفي ما صدر به : يعني لا تحية بينهم .

والتشبيه لا يفيد هذا المعنى .

وفي هذا يقول عبد القاهر : واعلم أنه لا يجوز أن يكون سبيل قوله :

لعاب الأفاعي القاتلات لعابه

(١) الصيلم : الأمر الشديد والداهية والسيف .

(٢) طراز المجالس — ٢٨ — ٢٩ — ٣٠ .

سبيل قولهم : عتابك السيف :

وذلك أن المعنى في بيت أبي تمام على أنك تشبه شيئاً بشيء جامع بينهما في وصف ، وليس المعنى في عتابك السيف : على أنك تشبه عتابه بالسيف ، ولكن على أن تزعم : أنه يجعل السيف بدلا من العتاب .

أفلا ترى أنه يصح أن تقول : مداد قلعه قاتل كسم الأفاعي ، ولا يصح أن تقول : عتابك كالسيف ، اللهم إلا أن تخرج إلى باب آخر وشيء ليس هو غرضهم بهذا الكلام ، فتريد أنه قد عاتب عتاباً خشناً مؤلماً .

ثم إنك إن قلت : السيف عتابك ، خرجت به إلى معنى ثالث ؛ وهو أن تزعم أن عتابه قد بلغ في إيلاؤه وشدة تأثيره مبلغاً صار له السيف كأنه ليس بسيف^(٢) .

ويقول الشهاب الحفاجي^(٢) : وليس الشيخ « عبد القاهر » أبا عذرة هذا كما قد يتوهمه بعض من لم يطلع على كلامهم ، بل صرح به النحاة من المتقدمين والمتأخرين ، ونقله ابن عصفور وابن الطراوة كما في شرح التسهيل لناظر الجيش .

قالوا : إذا كان المبتدأ والخبر معرفتين ؛ إما أن تكون إحداهما قائمة بمقام الأخرى أو مشبهة بها أو هي نفسها .

فإن كانت قائمة مقامها كان الخبر ما تريد إثباته نحو قول عبد الملك

ابن مروان : كانت عقوبتك عز لك ، وكأن زيداً زهير .

فالعزل ثابت لا العقوبة ، والتشبيه زهير ثابت .

ولو قلت : كان عز لك عقوبتك : كان معاقباً معزولاً .

ولو قلت : كأن زهيراً زيد : أثبت التشبيه لزهير بزيد .

وقد غلظ ابن الطراوة في هذا جملة من الشعراء منهم المتنبي في قوله
يمدح سيف الدولة - وقد أهدى إليه ثياب ديباج وورعاً وفرساً معها مهرها
وكان المهر أحسن - :

ثياب كريم ما يصون حسانها إذا نُشرت كان الهبات صوانها
الصَّوان : ما يصان فيه الشيء .

والمعنى الذى يريده الشاعر : أنه لا يصون الثياب النفيسة ، بل إذا نُشرت
خلعها على الناس هبات لهم ، بدل أن يحفظها فى الصوان .

ولكن جرياً على القاعدة المتقدمة يعد البيت ذماً لا مدحاً ، لأنه أثبت
فيه صون الثياب ونفى الهبات ، كأنه قال : الذى يقوم لها مقام الهبات : الصوان .
ولم يعد المتنبي من يدافع عنه بما يقتضى المقام عدم ذكره .

٢ - أن يكون فى الصفات والصلات التى توصل بها ما يختل به تقدير
التشبيه ، فيقرب حينئذ من القبيل الذى نطلق عليه الاستعارة من بعض
الوجوه .

وذلك كقوله (١) :

أسد دم الأسد الهزبر خضابه موت فريض الموت منه يرعد
لا سبيل لك أن تقول : هو كالأسد أو هو كالموت ، لما يكون فى
ذلك من التناقض ؛ لأنك إذا قلت : هو كالأسد فقد شبهته بجنس السبع
المعروف .

ومحال أن تجعله محمولاً فى الشبه على هذا الجنس أولاً ، ثم تجعل دم
الهزبر الذى هو أقوى الجنس خضاب يده ، لأن حملك له عليه فى الشبه
دليل على أنه دونه ، وقولك بعد : « دم الهزبر من الأسود خضابه » دليل
على أنه فوقها .

(١) البيت : للمتنبي يمدح محمد بن شجاع الطائي .

وكذلك محال أن تشبهه بالموت المعروف ، ثم تجعل الموت يخافه وترتعد منه أكتافه .

وكذا قوله ^(١) :

سحاب عداني سيله وهو مُسبل وبحر عداني فيضُه وهو مفعم
وبدر أضاء الأرض شرقاً ومغرباً وموضع رحلي منه أسود مظلم ^(٢)
إن رجعت فيه إلى التشبيه الساذج فقلت : هو كالبدر ، ثم جئت تقول :
أضاء الأرض شرقاً وغرباً وموضع رحلي ، مظلم لم يضيء به ، كنت كأنك
تجعل البدر المعروف يلبس الأرض الضياء ويمنعه رحلك ، وذلك محال .
وإنما أردت أن تثبت من الممدوح بدرأ مفرداً ، له هذه الخاصّة
العجيبة التي لم تعرف للبدر .

وهذا إنما يأتي بكلام بعيد من هذا النظم ، وهو أن يقال : هل سمعت
أن البدر يطلع في أفق ، ثم يمنع ضوءه موضعاً من المواضع التي هي معرضة
له وكائنة في مقابله ، حتى ترى الأرض الفضاء قد أضاءت بنوره وفيما بينها
قدر رحل مظلم يتجافى عنه ضوءه ! ومعلوم مُبعد هذا من طريقة البيت .
فهذا النحو موضوع على تخيل أنه زاد في جنس البدر واحداً له حكم
وخاصة لم تعرف .

وإذا كان الأمر كذلك صار كلامك موضوعاً لإثبات انشبه بينه وبين
البدر ، ولكن لإثبات الصفة في واحد متجدد حادث من جنس البدر
لم تعرف تلك الصفة فيه للبدر .

وكما يمتنع دخول السكاف في هذا النحو ، يمتنع دخول كأن وحسب
وخال وظن .

والسر : أن هذه الأدوات تدخل إذا كان الخبر والمفعول الثاني أمراً

(١) البيت للبحرئ يعاتب الفتح بن خاقان .

(٢) الرجل : السكن ومتاع المسافر ، ورواية الديوان : رجلى .

معقولا ثابتاً في الجملة ، إلا أنه في كونه متعلقاً بما هو اسم كان أو المفعول الأول من حسب مشكوك فيه كقولنا : كان زيداً منطلق ، أو مجازاً بقصد به خلاف ظاهره ، نحو كان زيداً أسد .

فالأسد على الجملة ثابت معروف ، والغريب كون زيد إياه ومن جنسه . والنكرة في نحو هذه الآيات موصوفة بأوصاف تدل على أنك تخبر بظهور شيء لا يعرف ولا يتصور .

وإذا كان كذلك كان إدخاله كأن وحسبت عليه كالقياس على المجهول^(١) . هذا ما قاله عبد القاهر في هذا الشأن ، ولا مرية أنه فلسف البحث وركب فيه سبيل العقل حتى الغاية ، ولا يظن أن الشاعرين : المتنبي والبحتري جال بخاطرهما شيء مما ذكره .

وقد اعترض عليه فعلاً ف قيل في بيت المتنبي : يجوز أن يقال ذلك بعد التصريح بالأداة في الموضعين على أنه إضراب عما يفيد التشبيه من أنه أنقص من المشبه به .

وفي بيت البحتري بأن كل هذا لا يمنع أن يقال : هو كبد بهذه الصفة على نحو ما سبق في تشبيه قم فيه جمر موقد يجر من المسك موجه الذهب تشبيهاً خيالياً .

ويمكن أن يجاب عن ذلك : بأن عبد القاهر لا يدعى الاستحالة العقلية حتى يمتنع هذا التقدير أو نحوه^(٢) .

الفصل العاشر بلاغة التشبيه وقوته

قدمنا أن أركان التشبيه أربعة : المشبه ، والمشبه به ، وأداة التشبيه ،
ووجه الشبه .

والمذكور الأداة يسمى : مرسلًا ، لأنه أرسل من التأكيد المستفاد من
الأداة .

والمحذوف الأداة لفظًا يسمى : مؤكدًا ، سواء أكانت الأداة مقدرة
في نظم الكلام كقوله — تعالى — : وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر
مر السحاب ، ..

أو لم تكن مقدرة في نظم الكلام بل محذوفة معنوية ، بأن جعل المشبه
به محمولًا على المشبه مبالغة نحو : محمد أسد .

ووجه المبالغة فيه : أنه يشبه الاستعارة ظاهراً ، بل قد عده بعضهم
استعارة كما تقدم والجمهور على خلافه .

والفرق بين المحذوف المنوي والمحذوف المقدر : أن المتروك إذا
اقتضاه إعراب الكلام يسمى : محذوفاً مقدرًا في نظم الكلام ، وإن اقتضاه
جانب المعنى دون اللفظ يسمى : محذوفاً منوياً ، فينبذ إن صلح تقديره في
النظم قدر في الكلام وإلا فلا ، لئلا يحتل نظم الكلام (١) .

والمذكور الوجه يسمى : مفصلاً ، وما حذف وجهه يسمى : بجملاً كما
سبق ، والسبب في ذلك واضح .

وعندهم أن التشبيه يتفاوت في المبالغة قوة وضعفاً باعتبار ذكر هذه الأركان كلها أو بعضها .

فما ذكرت فيه الأركان جميعاً — وهو المرسل المفصل — يعد خالياً من القوة .

وما حذف وجهه — وهو المجمل — يحتوى على بعض القوة ، من حيث تعميم المشابهة بحسب الظاهر .

وما حذفت أدواته — وهو المؤكد — يحتوى على قوة أكثر ، من حيث جعل المشبه كأنه نفس المشبه به ، وما حذف فيه الوجه والأداة — وهو المجمل المؤكد — يعد أقواهما لاجتماع القوتين فيه ، وهو المشهور عندهم باسم « البليغ » .

وليس المراد بالبليغ هنا ما كان مطابقاً لمقتضى الحال ، فإن المبتدل قد يطابق مقتضى الحال لسوء فهم السامع ، ولكن المراد ما يتخاطب به أذكىاء البلقاء ويستحسنونه فيما بينهم ^(١) .

صور البليغ .

ويأتى البليغ عندهم على الصور الآتية :

- ١ — أن يقع خبراً سواء أكان مع ذكر المشبه نحو : محمد أسد . أو مع حذفه ، كقوله — تعالى — : « صم بكم عيى فهم لا يبصرون » أى هم : صم بكم عيى ، أو المنافقون : صم ويجوز أن يجعل المشبه به مبتداً نحو الأسد زيد ، لأن المبالغة في التشبيه تدور على دعوى الاتحاد ، وجعل المشبه به مبتداً مثل : زيد أسد ، وجعله خبراً ، سيان فى ذلك ^(٢) .

(١) مواهب الفتاح — ٣ — ٤٥٦

(٢) تقرير الأنبانى على حاشية البنائى ج ٤ — ص ٩

- ٢ - أن يقع مفعولا ثانيا في باب « علمت ، نحو : علمتك أسداً .
 ٣ - أن يقع صفة ، نحو : مررت برجل أسد .
 ٤ - أن يقع مصدراً مبيناً للنوع كقول الحسن بن مطير :
 يَمِينُنَا حَتَّى تَرِفَ قُلُوبُنَا رَيفُ الْخُزَامِيَّاتِ طَلَّ يَجُودُهَا
 ٥ - أن يقع حالاً نحو : غرد تغريد البلب .
 ٦ - أن يقع مبيناً للمشبه ، كقوله - تعالى - : « فكلوا واشربوا حتى
 يتبين لكم الخط الأبيض من الخط الأسود من الفجر » .
 ٧ - أن يقع مضافاً إلى المشبه ، نحو : عقيق الشفق ، وسندس الخضرة
 وثوب العافية ، وما إلى ذلك .

قيمة التشبيه البليغ .

وقد احتفل النقاد بالتشبيه البليغ وأفاضوا في بيان مزاياه . فعبد القاهر
 يقول في بيت المتنبي :

بدت قمرًا ومالت خوط بان وفاحت عنبرا ورنت غزالا
 فمن يزعم مثلاً أنه في تقدير محذوف ، وأن معناه الآن كالمعنى إذا قلت
 بدت مثل قمر ، ومالت مثل خوط بان إلخ ، أفسد الشعر وخرج إلى شيء
 مغسول ، وإلى كلام عامي مرذول ، وخرج إلى الغثاء وإلى شيء يعزل
 البلاغة عن سلطانها ، ويخفض من شأنها ، ويصد أوجها عن محاسنها ، ويسد
 باب المعرفة بها وبلطائفها علينا^(١) .

ويقول في قول المتنبي أيضاً :

غضب الدهر والملوك عليها فبناها في وجنة الدهر خلا
 قد ترى في أول الأمر أن حسنه أجمع في أن جعل للدهر وجنة ،

وجعل البنية خلا ، وليس الأمر على ذلك ، فإن موضع الإعجوبة في أن أخرج الكلام مخرجه الذي ترى ، وأن أتى بالحال منصوبا على الحال من قوله : « فبناها » .

أفلا ترى أنك لو قلت : وهى خال في وجنة الدهر لو وجدت الصورة غير ما ترى (٣) ؟

ويقول عز الدين بن عبد السلام : وإنما كان هنا التشبيه بليغا ، لأنك قد تشبه شيئا بشيء لا اشتراكهما في وصف واحد ، فإذا أردت المشابهة في جميع الوجوه والصفات أسقطت أداة التشبيه ، حتى كأنه هو من غير فرق بينهما .

وكذلك قد يكون المشبه دون المشبه به في الصفة ، كقولك : زيد كالأسد ، وعمر كالبحر ، فإذا أردت المبالغة في وصف الشجاعة والكرم قلت : زيد الأسد وعمر البحر .

ومثله قوله — تعالى — : « كلوا رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل » .

وقوله — سبحانه — : « فهل ينظرون إلا سنة الأولين » .

ويقول : والعرب إذا شبهوا جرما بجرم أو معنى بجرم ، فإن أتوا بأداة التشبيه كان ذلك تشبيها حقيقيا ، وإن أسقطوا أداة التشبيه كان ذلك تشبيها مجازيا ، ولذلك أمثلة منها قوله — تعالى — : « وما جعل أديعائكم أبناءكم ، أى مثل أبنائكم في تحريم حلائلكم » .

وقوله — عز وجل — : « أو تتخذوه ولدا ، أى مثل ولد » .

ومثله قول الناس في مخاطبتهم : أنا عبدك ومملوكك . أنت سمعى وبصرى

ومثله قوله - صلى الله عليه وسلم : - « أنت ومالك لأبيك » .

وفي هذا الحديث مجاز من وجهين :

أحدهما : تشبيهما بما يملكه الأب .

والثاني : أنه أمر بلفظ الخبر ومعناه : نزل نفسك ومالك من أبيك

منزلة المملوك من المالك ، وهذا كله يسمى : التشبيه البليغ ^(١) ! .

ويرجع أهل الرمز حذف أحرف التشبيه إلى قانون الصفاء في الشعر ،

بحيث يمتزج المشبه بالمشبه به ويتحدان ، فيستحيل كل منهما إلى الآخر ، ويتاح

للقسم الثاني من التشبيه أن يأتي أشهر من الأول بما يثيره في النفس ، ولما

كان المشبه به أجل وأدق وكان مشتملا على مزايا شعرية أرحب من مزايا

المشبه ببلغ الشعر بذلك غايته ، أي بإسقاط أحرف التشبيه ، وجعل

المشبه نفس المشبه به ، فالشئ يصبح شيئا شبيها بنفسه ولكنه غير نفسه ،

إذ يتحول إلى رمز يثيره ويؤمى إليه ويوحى له إجماع

وأدوات التشبيه : كأن والكاف ومثل وسواها تترك قسمي المعادلة

التشبيبية متفرقين بينما يوحدهما حذفها ^(٢) .

رأينا في التشبيه البليغ .

هذه آراؤهم في التشبيه المحذوف الأداة والوجه ، وإن كان أكثر كلامهم

في المحذوف الأداة .

ونحن لا نسكر قيمة هذا التشبيه ولا نحدد ميزته ، ولكن يجب أن

نحترس في قبول هذه الآراء ، فليس كل ما ورد من هذا النوع يعد بليغا

في نظرنا .

وليس يكفي أن يقع التشبيه محذوف الأداة أو محذوف الأداة والوجه

(١) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز - ٦٤

(٢) الرمزية والأدب العربي الحديث - ١٦٠ - ١٦١ .

معا ليستحق أن يوصف بأنه بليغ ، فالحق أن البلاغة شيء وراء ذلك كله .
والحق أن كثيراً من التشبيهات المرسلة المفصلة أجمل وألطف وأبرع من
بعض هذه التشبيهات التي يسمونها بليغة مجرد أنها مؤكدة بجملة .

ولسنا مع هذا نتعاضد عما يفيد هذا التشبيه من التوكيد والتعميم ،
وإسباغ معنى الاتحاد على طرفيه ، ولكن ذلك وحده لا يجعله جدير أبهذا
الوصف السامى الرفيع ، فهناك اعتبارات أخرى كثيرة تعلو على هذه النظرة
الضيقة ، وهى التي يجب أن ينظر فيها إلى التشبيه ، ويوزن حسنه بها ، فإن
توافرت له مع خصيصه لتقرير والشمول كان جامعاً بين الحسنين ، وكان
رجحانه فى ميزان النقد راجعاً أكثر إلى المزية الأولى .

وقد فطن المتأخرون من البلغاء — مع انسياقهم وراء التقليد — إلى أن
بلاغة التشبيه غير التوكيد والإجمال ، فنسمع الدسوقي يقول : بلاغة التشبيه
منظور فيها إلى كونه بعيداً غريباً سواء أكان وجه الشبه تركب من أمور
كثيرة أولاً ، وسواء ذكرت الأداة أو حذفت .

وإطلاق البليغ على التشبيه الذى حذفت أدواته إطلاقاً شائعاً ، طريقة
لبعضهم وإلا فهو يسمى مؤكداً (١) .

هذا هو الحق الناصع ! ومن الممكن أن نعتبر التشبيهات كالحلل
والمعارض التي يراعى فى اختيارها ألوان الحسان ، وتفصل على مقادير
أجسامهن ، فهذه حسناء يناسب لونها الأزرق أو الأحمر مثلاً .

وهذه بدينة أو نحيفة أو طويلة أو قصيرة يشاكل قدها تفصيل خاص
والغرض من ذلك تجلية المحاسن وإبراز المفاتن ، ومواراة ما عسى أن يكون
من عيوب .

وكذلك التشبيهات يجب أن تحاط على قدود المعانى ، فلا توصف

(١) حاشية الدسوقي — ٣ — ٤٥٧ .

بالبلاغة لتأكيدها وإجمالها ، ولكن لأنها أفادت الغرض وأحسن الأداء عنه ، ووقعت فيها الصورة على المعنى الذى يناسبها أيا كان لون التشبيه .
والفنون الجميلة — كما يقول تشارلتن — كلها وسائل للتمثيل والتصوير .
وهى تكون فى غاية كمالها ، إن تشابهت وسيلة التمثيل والشيء الممثل : أى إذا كان الشيء ووسيلة تصويره فى ظروف متماثلة متشابهة ، ومن ثم كان لكل فن مجال خاص به يحكم خامته ، وإنما يبلغ كل فن درجة كماله الفنى إذا ما أحسن القيام بمهمته ^(١) .

ونحن نرى كثيراً من التشبيهات البليغة فى عرفهم مغسولة من هذه الصفة ، ولم ينفعها أنها جاءت على صورة البليغ ، وإلا فأى جمال بلاغى فى قول القائل مثلاً :

أنت شمس أنت بدر أنت نور فوق نور

وفى مقابل ذلك نجد أنواعاً منها حلت الذروة العليا من البلاغة لمعنى آخر غير الذى أرادوه .

فن نثر البحترى : الشكر : نسيم النعم ^(٢) .

فهذه البلاغة التى تعبق من الكلمات حتى لنكاد نفشقها كما نشق نسيم النعم العطر ، لا ترجع إلى تأكيد ولا إجمال ، ولكن مرجعها إلى إصابة المحزن وتطبيق المفصل فى المعنى .

فالصنعة غرس كريم كالروضة النظرة ، وكما تأرجح أزهار الروضة ويفوح شذاها ، فكذلك لا بد للصنعة أن تربو وتزكو فى نفس الحر النبل فتفتق رياحينها عن هذا الشكر السائر النافع بالعبير !

وشىء آخر يعود إلى اللفظ ، وهو أنك لو جئت بكاف التشبيه فقلت :

(١) فنون الأدب — ١١٤ .

(٢) كان صاحب يقول فيه : إنى أستحسن قول البحترى ذلك .

الشكر كنسيم النعم ، لكنت هذه الكاف فضلة نائية في موضعها ، ولطال بها
الخبر عن مبتدئه طولاً فاحشاً يُخل من انسجام الصياغة .

هذا إلى أننا لا نمانع أن يكون من قصده حذف الأداة للتوكيد ، فهو
لا ينافي ما أوضحناه .

وكذلك قول المتنبي :

وما الموت إلا سارق دق شخصه يصل بلا كف ويسعى بلا رجل
فليست البلاغة إلا في إصابة تشبيه الموت بالسارق وترشيحه هذا
الترشيح البليغ الواقع موقعه .

ونحن لم نر الموت وإن كنا نرى آثاره بيننا ، ولكننا لا تمارى في أن
هذه الصورة التي ابتدعها له المتنبي هي أدنى الصور إليه وأكثرها انطباقاً
عليه ، وأن جمالها جاء من ناحية دقة التشبيه وطرافته لا تأكيده .

وقول علي بن جبلة في ابن حميد الطوسي :

دجلة تسقى وأبو غانم يطعم من تسقى من الناس
يرتق ما يفتق أعداؤه وليس بأسو فتقه آسى
والناس جسم وإمام الهدى رأس وأنت العين في الرأس

فالجمال هنا يرجع إلى جمع البيت بين ثلاثة أشياء مترابطة في ثلاثة تشبيهات ،
ثم وضع كل مدح في التشبيه الذي يلائم منزلته ؛ فالناس كالجسم ، وأئمن
ما في الجسم الرأس ، وأئمن ما في الرأس العين .

وعلى بن جبلة أخذه من قول أبي العتاهية في الرشيد :

تسأس من السماء بكل فضل وأنت به تسوس كما تسأس
كأن الكون ركب فيه روح له جسد وأنت عليه رأس
ولكنه زاد في الشرح والترتيب .

وجاء العسكري فزاد عليهما في قوله :

أبشر فإنك رأس والعلا جسد والمجد وجه وأنت السمع والبصر
ويؤيد ما نقول أن كثيراً من التشبيهات المرسلة أو المرسلة المفصلة تأتي
آية في البلاغة ولا يغض منها هذا الإرسال والتفصيل .
وحسبنا أن أكثر تشبيهات القرآن الكريم مذكورة الأداة .

فقوله — تعالى — : « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون
القديم » لو حذفت منه الكاف وقيل في غير القرآن : حتى عاد عرجوناً قديماً
لفقد الكلام كثيراً من بهائه ورونقه ، وذهب منه هذا التنعيم الساحر .
فالكاف معقود بوجودها هنا جمال الصياغة وحسن الإيقاع .
وقول العباس الصولي : الأصدقاء كالنار ، قليلها متاع ، وكثيرها
بوار ، يشعر بأن وجود الكاف متعين فيه ، ويكفي أن تقول : الأصدقاء
نار لتحكم بصواب ما قلناه ، ذلك لأن التأكيد والتعميم هنا غير مراد للقائل .
فليس غرضه أن يقرر أنهم نار في الإحراق والالتهاب إلى غير ذلك مما
يتصل بالماهية ، وإنما غرضه أنهم كالنار في شئ خاص ، وهو نفع القليل
منها وضرر الكثير .
وقول تميم بن المعز :

يوم لنا بالنيل مختصر ولكل يوم مسرة قصر
والسفن تصعد كالخيول بنا في موجه والماء ينحدر
فكأنما أمواجه عكَن وكأنما داراته سُرَر
لا يزرى وجود أداة التشبيه بما اشتمل عليه من تصوير طريف بهيج ،
ونظر لطيف نافذ في مقارنة الأشياء بعضها ببعض وانتزاع أوجه الشبه منها ،

وخاصة إذا كان الانتزاع من الجوارح الإنسانية البعيدة الخطور بالبال
كالعكن والسرر .

وقول شوقي :

وبين الهوى والعذل للقلب موقف كخالك بين السيف والنار ثاويا
وبين المنى واليأس للصبر هزة كخصرك بين التهد والردف واهيا
يخيل إليك من وقوع التشبيه المرسل في مكانه الذى لا يحيد عنه ، أن
حذف الأداة لا يستقيم معه التشبيه .

وتأكيد مثل هذا التشبيه لا يضيف إليه حسنا ، لأن حسنه كله مستمد
من غرابة تشبيه موقف القلب بالخال ، وهزة الصبر بهزة الخصر .

وكذلك قول الشاعر يصف الفستق :

والقلب ما بين قشريه يلوح لنا كألسن الطير من بين المناقير
لا حاجة به إلى التأكيد والإجمال ، لأن بلاغته جملة وتفصيلا هي في
ابتكار التشبيه ، وحسن التأتى في الوقوع على الوجه المناسب الذى يعتنق
الطرفان في ظله .

نعم إن ذكر الأداة — كما يقول عبد القاهر — يقبح حيناً ، ولكن لشيء
يتعلق بحسن الصياغة والسبك لا للخلو من التأكيد .

فالاسم المنكر خرج بالتنكير عن أن يحسن إدخال حرف التشبيه عليه ،
فلو قلت : هو كأسد وهو كبحر كان كلاماً نازلاً غير مقبول ، كما يكون
قولك : هو كالأسد .

إلا أنه وإن كان لا تحسن فيه « الكاف » فإنه تحسن فيه « كـ » ، كقولك :
كأنه أسد أو ما يجري مجرى كأن في نحو : تحسبه أسداً أو تخاله أسداً^(١) .

ولإليك بعض التشبيهات المرسلة التي يجمع بين جمال اللفظ وحسن الصياغة وجودة المعنى ، ودقة الإصاغة ، بحيث تحل الصدارة في مجال التشبيه البليغ ، وإن لم تكن مؤكدة بجملة .
فمن ذلك قول بشار :

جَفَّتْ عَيْنِي عَنِ التَّغْمِيضِ حَتَّى كَأَنَّ جَفَوْنَهَا عَنْهَا قِصَارُ
وقول إسحاق بن خلف في صفة السيف :

أَلْقَى بِجَانِبِ خَصْرِهِ أَمْضَى مِنَ الْأَجْلِ الْمَتَاحِ
فَكَأَنَّمَا ذَرَّ الْهَبَاءَ عَلَيْهِ أَنْفَاسُ الرِّيحِ (١)
وقول أبي نواس يصف السفينة :

بُنِيَتْ عَلَى قَدَرٍ وَلَآمَ بَيْنَهَا طَبَقَانِ مِنْ قَيْرٍ وَمِنْ أَلْوَاكِ
فَكَأَنَّمَا وَالْمَاءُ يَنْطَحُ صَدْرَهَا وَالْخِزْرَانَةُ فِي يَدِ الْمَلَّاحِ (٢)
جَوْنٌ مِنَ الْعَقْبَانِ يَتَدَرَّدُ الدَّجَى يَهْوِي بِصَوْتٍ وَاصْطَفَاقِ جَنَاحِ
وقوله يمدح الفضل البرمكي :

وَكُنَّا إِذَا مَا الْخَائِنُ الْجَدُّ غَرَّهَ سَنَا بَرَقَ غَاوٍ أَوْ ضَجَّيجِ رَقَادِ
تَرَدَّى لَهُ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى بْنِ خَالِدِ بِمَاضِ الظُّبَا أَزْهَاهُ طَوْلُ نَجَادِ (٣)
أَمَامَ خَمِيسٍ أَرْجَوَانٍ كَأَنَّهُ قَيْصُ مَحُوكٍ مِنْ قَنَاءِ وَجِيَادِ
وقول البحتري يمدح الفتح بن خاقان :

بَلُونَا ضَرَائِبَ مِنْ قَدْ مَضَى فَمَا إِنَّ رَأَيْنَا لَفَتْحِ ضَرِيَا
هُوَ الْمَرْءُ أَبَدَتْ لَهُ الْخَادِنَا تَعَزَّوْا وَشَيْكََا وَرَأْيَا صِلِيَا
تَنْقَلُ فِي خُلُقِي سَوُودَ سَمَاحًا مُرَجَّى وَبَاسًا مَهِيَا

(١) الهباء : ما يرى شبيهاً بالغبار في ضوء الشمس .
(٢) الخيزرانة : السكان . (٣) أزهاه : رفعه .

فكأسيف إن جثته صارخاً وقاله يهجو إنساناً في لسانه حبسة :

كأن في فيه لقمة عقلت لسانه فالتوى على حنْف (٢)

محرَّك رأسه توهمه قد قام من عطسة على شرف (٣)

وقول صالح بن عبد القدوس :

يشقى رجال ويشقى آخرون بهم ويسعد الله أقواماً بأقوام

وليس رزقُ الفتى من لطف حيلته لكنْ جدود بأرزاق وأقسام

كالصيد يُحرِّمه الراى المجيدُ وقد يرمى فيرزقه من ليس بالراى

وقول سعيد بن حميد :

وإنك كالدينيا ندمُ صروفها وتوسعها سباً ونحن عبيدها

وقول المعز الفاطمي :

أطلع الحسن من جبينك شمساً فوق ورد من وجنتيك أطلا

وكان العذار خاف على الور د ذبولاً فمد بالشعر ظلا

وقول المتنبي :

وهبت السلو لمن لامنى وبتُّ من الشوق في شاغل

كان الجفون على مقلتي ثياب شُققن على ناكل

وقول المعري :

وهواك عندي كالغشاء لأنه حسن لدى خفيفه وثقله

وقول ميار :

وغيرك من سكنت إليه كرها كما سكن العذار إلى المشيب

(٢) الحنف : الاعوجاج .

(١) الصارخ : المستغيث .

(٣) الشرف : المرتفع .

وقول أبي الفتح البستي :

كأنني فرس الشطرنج ليس له في ظل رابطة ماء ولا علف
وقول ابن بليطة :

صبح يلوح وشخص الليل منغمس فيه كما غرق الزنجي في النهر
وقول ابن رشيق :

يا رَبِّ هَتَّانِ تنوء بثقلها تسقى البلاد بوابل غَيْدَاق^(١)
مرت فوق الأرض تسحب ذيلها والريح تحمله على الأعناق
ودنت فكاد الأرض تهض نحوها كنهوض مشتاق إلى مشتاق
وقد أخذه الصفدى فقال :

سحابة قد تدلَّت إلى الثرى باشتياق
لو أن للأرض ثِقْلا تلازما للعنــــــــــــــــــــــــاق
وقول ابن منقذ :

صديق لنا كالليل للنار يستر الدخان ويُبدى النور المتشور
يوارى إساماتي ويبدى محاسني ويحفظ غيبي في مغيبى ومحضرى
وقول ابن حجلة المغربي :

كان ضباب الأفق قد سرت به نسيم الصبا من نحو أرض الأحبة^(٢)
كان الصدا بين الجبال متم ولم يبق منه غير صوت وأنة
وقول شاعر في وصف العقق :

إذا بارك الله في طائر فلا بارك الله في العقق^(٣)

(١) الفيداق : الغزير المطر . (٢) الند : الطيب أو العنبر .

(٣) العقق : طائر أبيض يشبه صوته العين والقاف .

طويل الذنابى قصير الجناح متى ما يجد غفلة يسرق

يقلب عينيه فى رأسه كأنهما قطرتا زئبق

وقول مجير الدين بن تميم :

وكانما النار التى قد أوقدت ما بيننا ولهيها المتضرم

سوداء أحرقت قلبها فلسانها بسفاهة للحاضرين يكلم

وقول ابن عطية :

بتنا نذير الراح فى شاهر ليل على نغمة عودين

والنار فى الأرض التى دوننا مثل نجوم الجو فى العين

فياله من منظر موزق كأننا بين سمامين

وقول شاعر :

أخى قم فعاوننى على نتف شديدة فإنى منها فى عذاب وفى حرب

إذا ماضى المنقاش يأتى بها أتت وقد أخذت من دونها جارة الجنب

كجان على السلطان يجزى بذنبه تعلق بالجيران من شدة الرعب

وقول آخر يصف البرق :

وتارة ينبض باستحياء كلبحة من ذى هوى مرأى

أسرها خوفا من الأعداء

وقول آخر :

كان الشقائق والأقحوان خدود تقبلن الثغور

فهايتك أخجلها الحياء وهاتيك أضحكهن السرور

وقول البارودي يصف النهر :

كَأَنَّ الصَّبَا تُلْقِي عَلَيْهِ إِذَا انْبَرَتْ مسائل في الأرقام أو تلعب النرد

وهو مأخوذ من قول ابن السَّيِّد :

كَأَنَّمَا جَائِلُ الْحِسَابِ بِهِ يلعب في جانيه بالنرد

أو من قول البحترى :

كَأَنَّمَا غَدْرَانِهَا فِي الْوَهْدِ يلعبن من أجابها بالنرد



فهرس الكتاب

الفصل الأول

١٠ — ٥

التشابه

ما تفيد صيغة التشبيه . دلالة ذلك من أقوال الشعراء العدول
عن صيغة التشبيه إلى التشابه والسر في ذلك . صيغة التشابه تتحقق
بالأفعال اللازمة دون المتعدية . أمثال طريفة للتشابه . جواز قصد
التشبيه مع التشابه وشرح ذلك . اجتماع التشبيه والتشابه في بعض
الأشعار . مذهب ابن السبكي في التشابه ومخالفته للخطيب وغيره .
منزلة التشابه بين التشبيه المتعارف والتشبيه المقلوب . ما يشترط في
التشابه . بدائع التشابه الصريح والمطوى .

الفصل الثاني

٢١ — ١١

تشبيه التمثيل

تعريف التمثيل وبيان صيغته . تحقق التمثيل بتركيب الوجه
وحده . تصوير طريف للفرق بينه وبين التشبيه الصريح . مذاهب
العلماء في التمثيل . مذهب الجمهور . مذهب الزمخشري وابن الأثير .
مذهب عبد القاهر . مذهب السكاكي وتمثيله له من القرآن والشعر .
عدم تقيده بما اشترطه فيما أورده من الأمثلة واعتراض الخطيب عليه
في ذلك . تفسير المغربي لرأى السكاكي ورفعه التناقض عنه . التباس
الوصف غير الحقيقي بالعقلي الحقيقي والحاجة فيه إلى التأمل الصادق .
أقسام الوجه المركب والتمثيل لها ، وبيان التهج القويم في انتزاع
الوجه منها . متى أمكن حمل التشبيه على التركيب فلا يعدل عنه إلى
الأفراد . التشبيه المركب هو المقصود عند البديعيين . تهتم وقوع

وجه الشبه عقلياً في بعض الأحيان والتشيل له . الحاجة إلى الجملة
كلما أوغل التشبيه في محض العقلية . الاحتراس في انتزاع الوجه
المركب وبخاصة في العقليات . التمثيل لما يظن خطأ أنه منترج من
بعض الأمور المتعددة لا كلها . إيراد أمثال طريفة لذلك من
النثر والشعر .

الفصل الثالث

فصل التمثيل وتأثيره ٢٢ — ٣٧

تحريك التمثيل للمشاعر يقوم على أسس نفسية . نفور الطبايع
من الغموض واللبس وميلها إلى الجلاء والوضوح . خلو النفوس
في الأصل من المعارف . استفادتها المعارف الأولى من الحواس
ووحى الطبايع . ارتياحها إلى عرض المعاني العقلية في صور حسية
واستطرافها لما يخرج من غير معدنه . قيمة التمثيل في التقريب بين
الاشياء المختلفة وبث الوحدة بين الاشياء المتفرقة . الصور البيانية
صور تعبيرية تلقائية وليست زخرفاً محضاً . التمثيل وتأليفه بين
المتباينين . التمثيل وتجسيم المعاني وتشخيصها . التمثيل بين الورد
والترجس . بحج المعاني في نسق التمثيل وبحجته رادفاً لها والتمثيل لكل
منهما . أثر ذلك في قوة الكلام وحصبه وخلابته . التمثيل يلبس
بمختلف الصور الأدبية : الوصف . الغزل وما يتصل به . المدح .
الهجاء . الرثاء . الفخر . الحث على الجود والكمال . الاستعطاف .
التحسر والتوجع . العتاب . الشكوى . العزاء والتسليم . الاحتجاج
الاعتذار . الحكم والعظات وهي أوسع أبوابه .

الفصل الرابع

التشبيه الحسي ٣٨ — ٥٧

تعريف التشبيه الحسي . التشبيه الخيالي ودخوله في الحسي .
وصف طريق التشبيه الحسي . التشبيه العقلي ومقابلته للحسي .

عندهم . التشبيه الوهمي ودخوله في العقل . الفرق بين الخيالي والوهمي . طرفا التشبيه هما الحسيان دون التشبيه نفسه . مذهب الحكماء والمتكلمين في إدراك الحواس وثمره الخلاف بينهما التشبيه عند ابن رشيق يقع على الأعراض لا الجواهر . رأى ابن الأثير وعبد القاهر في ذلك . التشبيه المحسوس طرفين ووجهها أسهل أنواع التشبيه . حاجة التشبيه المركب إلى أعمال الذهن في فهمه . قيمة الحواس في تغذية العقل بالمعارف . إدراك الحواس للأشياء عند الجاحظ . رأى حكماء العجم في تضامن القلب والحواس . تدرج مراحل الإدراك بحسب السن . اعتماد العقل على الملكات الذهنية في صوغ القضايا العامة . أثر البصر في بناء الصور التشبيهية . الفرق بين وصف المشاهدة ووصف السماع . إحساسات البصر لإحساسات تمثيلية عميقة الجذور . الانسجام الخفي بين الإدراك البصري والأفكار . الصور البصرية لدى المكفوفين . حاسة السمع خلقت الفنون الرفيعة . قيمة الصوت الاجتماعية . اللهجة تعبير مباشر عن العاطفة . أثر الصوت الرخيم في الانفعال العاطفي . ارتباط السمع بالعقل وفصله على البصر بدلالة الآيات . السمع والبصر والإحساسات الجمالية . رأى أفلاطون في قيمة السمع والبصر . الحواس يكمل بعضها نقص بعض . اعتماد الشعراء كثيراً على غير الإحساسات البصرية . النعوت المستعملة كثيراً في الشعر . حاسة اللمس تقوم مقام البصر . اللمس أكثر الحواس إمدادا لنا بالنعوت التعبيرية . أثر الشم في إدراك المناظر ووصفها . إدراك العرب لقيمة هذه الحاسة والتمثيل لذلك من النثر والشعر . الذوق والمتع الجمالية . البلاغة عند أفلاطون . الانفعالات الجمالية ومتع الطعام والشراب . قصور إدراكات الذوق والشم بالنسبة لغيرها . أمثال طريقة في وصف المدركات الحسية المختلفة .

الفصل الخامس

٧٠ — ٥٨

المركب الحسى

التشبيهات الحسية المركبة مظهر لروعة الفن . شعراء الترف
والأوصاف المادية . تألق الخيال الشعري في تجلية مفاتن الطبيعة
والباسها جمالا أروع من جمالها . أمثال طريفة في ذلك من النثر
والشعر . مقياس عبد القاهر في الحكم على الجمال الفنى فى التشبيهات .
قصور هذا المقياس وجوده وتأثره بالظواهر . الحذر من الانخداع
بالزخارف والمبارج ولعب الخيال فى الحكم على الأوصاف المحسوسة .
المقياس الحق اتصال الفن بالحياة واندماج الفنان فى الطبيعة .
تأييد ذلك بأمثال تقارنية . لا يغتفر الخيال الوهمى المحض فى الفن
إلا إذا كان رمزاً عقلياً أو خلقياً . الفن صورة وعاطفة . فضل التشبيه
أن يزيد إحساسنا بالصورة لا أن يرسمها لنا . موازنة بين تشبيه
امرى القبس للشحم وتشبيه ابن المعتز لللال . التشبيهات القرآنية
والنبوية متحققة الوجود فى الخارج . إيراد بعض الصور البيانية
النابضة بروح الفن . وصف زورة المحبوبة ليلا . وصف البرق .
وصف السفن . تصوير عواطف الأزهار . وصف الموز وصفاً
مستوعباً زائراً بالحياة .

الفصل السادس

الهيمات والحركات فى المركب الحسى ٧١ — ٨١

أبدع أنواع المركب الحسى . المعانى المحسوسة بطبيعتها غير
قابلة للإغراق والتحويل . حسية المعانى تحد من الخيال وتقيده اللفظ .
تبين المعانى العاطفية فى قوتها وضعفها وخمودها واضطرابها . عدم
القدرة على قياس حدتها وتحديد درجتها . صلاحية الألفاظ الضخمة
والكلمات الطنانة والمقاطع الصارخة لها أكثر من غيرها . ملائمة

الحركات للألفاظ في تعاقبها وانطلاقها أكثر من الأجسام الجامدة .
ليس للألفاظ شيء من خصائص المسكان وإنما تشغل جزءا من
الزمان . الأفعال خير مجال تتجلى فيه قدرة الشاعر على التعبير .
اختلاف الشعر والتصوير في وصف الأجسام وتمثيل الأفعال .
وصف الأشياء المتحركة أيسر من وصفها وهي راكدة . وصف
ابن خفاجة للجبل ووصف شاعر عسري لصخرة جبل طارق وتحليل
ذلك . وصف طريقة للناقة وسر حسنه . بيان هيئة الحركة في
المركب الحسى مع التمثيل والتحليل . اختلاف حركات الجسم من
تركيب وغيره . الاكتفاء من الحركات المركبة بالأوصاف المهمة .
جمال الحركات المركبة في الجمع بين الاتفاق التام والاختلاف التام .
زيادة جمال المركبات الحسية بكثرة التفصيل والتركيب . اعتبار
هيئة السكون في التركيب مع التمثيل لذلك .

الفصل السابع

٨٢ — ٩٥

تشبيهه المحسوس بالمعقول

عناية العرب بالمعاني المحسوسة وصور البيان المادية . سر
براعتهم في الشعر دون القصص . مبالغتهم في التوضيح إلى درجة
التجسيم والتشخيص . تشخيص النجوم والليل والوادي والجبل
والحرب والبرد واللوم والرحل والضغن والقلب في أشعار المهمل
وامرى القيس والفابغة والاعشى وليبد وعمرو بن كلثوم وطفيل
الغنوى ومعن بن أوس وأبو ذؤيب وأوس بن مغراء وزهير والخطبة .
مدرسة زهير وتلاميذه وخصائصها . صورة البيان العربي عامة إلى
انقضاء العهد الإسلامي . وضوح البيان العربي يلائم النفس العربية
وتعليل ذلك . تبدل صور البيان في العصر العباسي وسبب ذلك .
نشأة الشعر الصوفي والشعر الفاسفي والحكمي . ظهور التجريد

والوهم والخفاء في الشعر . الظن بأن مسلم بن الوليد أسبق الشعراء إلى هذه الطريقة رأى ابن قتيبة فيه . أمثال من شعره وتحليلها . إيفال أبي تمام في هذه الصناعة وسر ذلك . اختلاف النقاد في شعره بين مفرط ومفرط ومتوسط . نماذج من تجسيمه وتشخيصه . أسبقيته لعصره حجبته محاسنه عن النقاد . تفتن الشباب الخفاجي إلى هذا اللون من الشعر وانصافه له نموذج من التشخيص الجميل في شعر المتنبي وغيره . إشارة عبد القاهر إلى هذا المذهب الجديد ورأيه فيه .

الفصل الثامن

مذاهب البلغاء في تشبيه المحسوس بالمعقول ٩٦—١١٢

إنكار العسكري له وحجته في ذلك . حكم جهمرة المتأخرين بعدم تجويزه أصالة وتعليل ذلك ، وتأويل ما جاء منه بأنه من قلب التشبيه . تجويز الرماي له مع استقباحه وشرح ذلك واعتراضه على شعراء عصره . رد ابن رشيق على الرماي ودفاعه عن هؤلاء الشعراء واستحسناته لما قالوه واستدلالة على جوازه بما جاء منه في القرآن الكريم والشعر الفصيح . تجويز ابن السبكي له دون أن يعده من قلب التشبيه وردة على السكاكي والخطيب وغيرهما فيما ذهبوا إليه . رأى ابن الأثير والعلوي في أنه أطف التشبيهات وسر ذلك . جواز بعض ألوانه عند المغربي مع الشرح والتدليل . رأى غريب للتوخي في تجويز تشبيه المحسوس بالمعقول وعكسه معا أو منهما معا . سر بيان الخلاف بين البلغاء إلى وقوعه في التنزيل الحكيم تفصيل أقوالهم في تفسير رموز الشياطين . رأى أبي عبيدة . رأى الجاحظ وردة على أهل الطعن والخلاف . رأى المبرد وتفسيره للآية وردة على الملاحدة . رأى الاصمعي . رأى ابن رشيق واستدلالة من الشعر . رأى ابن قتيبة . خلاصة مذاهبهم وبيان الراجح

منها مع التذليل بالأمثلة . شواهد طريقة لهذا النوع من شعر المولدين . إيراد أمثلة لما يوصف بالبياض والسواد كيد موسى وليالى الوصال ووجه الناصبي وقلب فرعون إلخ . وقوعه في شعر العصريين . أمثلة لما جاء منه في نثر الغربيين وشعرهم . دلالة هذا النوع من التشبيه واتصاله بالتفكير الفلسفي والتفنن في طرق الأداء . رأى المؤلف فيه .

الفصل التاسع

التشبيه الرمزي

١١٣ — ١٢٦

الصلة بين الرمزية وتشبيه الصورة بالمعنى . الرمزية دخيلة على البيان العربي . الرمزية المقبولة والمردودة . حاجتنا لاستعارة صور المراتب . ألوان من التشبيهات الرمزية وتحليلها . مذهب الرمزيين في اصطلاح الغموض . الطريقة البرناسية . احتجاج الرمزيين لمذهبهم . تحطيم بعض الأخيلة لحدود الالفاظ . الابتداعيون والاتباعيون . إهمال الرمزية لأدوات التشبيه . إحساس الرمزيين بالعلاقة بين الألوان والاصوات والعمور . ما توحى به الحروف عندهم من الألوان وما ترمز إليه من الأشياء . اختلاط الخواص في التعبير معروف في الشعر العربي . التدوق بالأذن والسمع بالعين في شعر المتنبي وصردر . رؤية ما لا يرى وسماع ما لا يسمع في شعر البهتري . الرؤية بعين الفطنة في شعر تميم بن المعز . سماع المعنى في شعر العقاد . الشم بالأذن في شعر صردر وبعض الاعرابيات وأبي حديدة الشاعر . البصر بالأذن في بعض كلام الدكتور طه حسين باشا . تدوق المبصرات في القرآن الكريم . كثرة الرمزية في شعر اللبنانيين والسوريين وسبب ذلك . قلة رواج الرمزية في مصر وسببها . الدكتور بشر فارس والرمزية . وثيقة الصلة بين طبيعة البلاد والرمزية .

الفصل العاشر

١٢٧-١٤٣

التشبيه المتعدد

الأصل في التشبيه إفراد الطرفين . عدم التعدد في تشبيهات القرآن الكريم . التعدد ضرب من المبالغة . تشبيه التسوية . تشبيه الجمع . التشبيه الملقوف والمفروق . أمثال طريفة لكل منها ، تعدد الطرفين . تشبيه اثنين باثنين ولا كثر الشعراء منه . تشبيه ثلاثة بثلاثة . تشبيه أربعة بأربعة . تشبيه خمسة بخمسة . تشبيه ستة بستة . تشبيه سبعة بسبعة . تشبيه ثمانية بثمانية . تشبيه عشرة بعشرة . أفضل أنواع المتعدد . تشبيه ثلاثة بثلاثة وما فوقه يكثر في شعر المولدين . المقبول من هذه الأنواع والمتكلف وما قل منه وما كثر . التمثيل لكل هذه الأنواع مع النقد والموازنة .

الفصل الحادي عشر

١٤٤-١٤٨

نشأة التشبيه المتعدد

السابق إلى التعدد امرؤ القيس . أول تشبيه اثنين باثنين وقع في شعره . احتذاء لبيد العامري له ثم بشار . موازنة بينه وبين بشار في تشبيهين وكلمة الحق في ذلك . تحليل بيت بشار : كأن مثار النقع . . . ذكاء المكفوفين وضرب المثل بعين بشار . سبق امرؤ القيس بتشبيه شيء بشيئين وأربعة بأربعة . مزية التشبيه المتعدد ومنزلة البلاغة . نزول قيمته عن التشبيه المركب . كلمات لعبيد القاهر والمغربي والحموي والعلوي في ذلك . عدم وجوب الترتيب بين أطراف التشبيه في هذا النوع .

الفصل الثاني عشر

القريب المبتدل والبعيد الغريب ١٢٩—١٥٩

اضطرابهم في مفهوم القرب والابتدال والبعد والغرابة .
 رأى الخطيب . رأى الرازي . رأى عبد القاهر . رأى شراح
 التلخيص . رأى المؤلف . ليس كل قريب مبتدلا . الفرق بين القرب
 والابتدال . ألقاظ لا يعرض لها الابتدال وسر ذلك . إيراد أمثال
 للألقاظ الخالدة . المبتدلات في العربية ورأى الأستاذ ديو مبین .
 الابتدال عرض طارئ على الألقاظ . كلمة لعبد القاهر في ذلك .
 أسباب الابتدال مع التمثيل له والتدليل عليه من علم النفس .
 العمليات العقلية والشعورية . جوامع تداعى المعانى وعلاقتها
 بالتشبيه . قرب التشبيه وبعده ورأى قدامة وابن رشيق .

الفصل الثالث عشر

قيمة التشبيه البعيد ١٦٠—١٧٦

أثر بعد التشبيه في النفس وتعليل استرواحها إليه . الاستدلال
 على ذلك من الشعر والتاريخ الأدبي . ما يتميز به الفنان العظيم من
 غيره . أمثال طريقة للتشبيه البعيد وتحليلها وبيان سر جمالها . بيان
 مقياس البعد وضبط حده مع التمثيل له . البعد المحمود ينافى الغموض
 والحقاء . رأى عبد القاهر في بعد المعنى ودقته . رأى بول فاليري
 وطه حسين في لغة الشعر . معنى التأليف بين المختلفين في التشبيه
 وشرطه . أمثال للبعيد المرغوب عنه والبعيد المخترع . ندرة التشبيه
 وغرابته . أسباب البعد والغرابة . كثرة التفصيل في التشبيه وبيان
 ذلك مع الموازنة . أنواع التفصيل وارتفاع قيمة التشبيه بعظم
 حظه منها .

الفصل الرابع عشر

رفع الابتذال عن التشبيه ١٧٧-١٩٢

الابتذال من أمراض التشبيه العارضة . وسائل رفع الابتذال . عنه . بحج . التشبيه مطويا . أمثال طريفة له . قيمته عند عبدالقاهر . الإيحاء إلى التشبيه في كلام العرب . تقسيم الخفاجي له . تنزيل المتوهم منزلة المتحقق . التشبيه المشروط . ألوان مختلفة له . نقاش بين الآمدي والمرتضى في بيت للبحترى . خروج الشاعر عن الطرق المألوفة في التشبيه والتمثيل له . تصرف الشعراء في وصف الشيب وبيان النهج الجديد في ذلك . ألوان من التصرف في التشبيه المبتذل تحليل قطعة من الشعر لعمر بن أبي ربيعة وييمان ما حوته من بلاغة نفسية

الفصل الخامس عشر

انتزاع التشبيه ١٩٣-٢١٥

قدرة البليغ على الانتزاع . الوسائل التي تعين على الانتزاع . مصادر الانتزاع . استفادة الخاصة من الحشوة والدعماء . الانتزاع من القصص الديني والاجتماعي . الانتزاع من حقائق التاريخ والسير . الانتزاع من الاعتقادات الشائعة . الانتزاع من عادات الناس والحيوان . الانتزاع من النواميس الطبيعية . الانتزاع من مصطلحات العلوم والفنون . رأى ابن سنان الخفاجي في استعمال المصطلحات العلمية والمهنية . رأيه في كتابة المعرى . رأى العلوى في ذلك . القدر المستحسن في استعمال هذه الأشياء . أمثلة طريفة لكل ألوان الانتزاع .

الفصل السادس عشر

شعراء التشبيه

٢٢١—٢١٦

اختلاف الشعراء في القدرة على صوغ التشبيه . براعة بعضهم في جميع ألوانه واقتصار جماعة على ألوان خاصة . زعماء التشبيه في العصور المختلفة ورأى النقاد فيهم . براعة ابن المعتز في التشبيه المحسوس . قلة الأمثال في شعره وكثرتها في شعر ابن عبد القدوس . مغالاة البلاغيين في قيمة امرئ القيس وذو الرمة وابن المعتز . زعيم التشبيه في الأندلس . فنون من الوصف عرف بها جماعة من الشعراء : طرفة . الراعي النخري . امرؤ القيس . عبيد بن الأبرص . أوس بن حجر . عبد بن الحبحاس . ذو الرمة . مسعود بن عمرو الأزدي . البطاين التميمي . اللعين المنقري . الطرماح . عدى بن الرقاع . الشماخ . الأعشى . الأخطل . أبو الشيص . أبو فواس . ابن أبي ربيعة . أبو زيد الطائي . ابن أبي الصلت . أبو دواد الإيادي . الثابتة الجعدي . سلامة بن جندل . طيفل الغنوي . أبو تمام . البحتري . المتنبى . ابن الرومي . الصنوبري . ابن خفاجة . ابن حمديس : السري الرفاء . محمد بن يزيد ابن مسلمة .

الفصل السابع عشر

الاشياء التي راجت في التشبيه

٢٣٦—٢٢٢

العيون . حظها من شعر الشعراء . العيون المحببة للعرب قبل الاختلاط بالأجانب . الفوق والافتنان في وصفها . تشبيه ذراعها بذراعي المرأة . أبلغ ما قيل في وصفها . وصف الخيل على اختلاف شياتها وبديع التشبيهات في ذلك . الأسد والغزال والمهاة . العقاب

والصقر والطاوس . الورد والزرجس وشقائق النعمان . وصف
أردشير للورد . وصف أنوشروان للزرجس . التفاح والرمان
والنارنج . الشمس والقمر وتشبيه الزوجين هما . أقوال الشعراء
في ذلك . الثريا وما شبهت به . كثرة التشبيه في اهللال . مباراة شعرية
في وصفه . البحر والنار . منزلة النار عند العرب . الأشياء التي تشبه
بالنار . القلم وما قيل فيه . النمل وكثرة حظها من التشبيه . تشبيهها
بالمطايا في شعر المتنبي وغيره . العروس وإضافتها إلى كل ما يحسن .
الأشياء التي تشبه بالعروس .

الفصل الثامن عشر

٢٣٧ - ٢٥٧

التجديد في التشبيه

قبول صور التشبيه للتجديد . وصف السفينة في شعر طرفة
والشيخ حمزة فتح الله وشوقي وحافظ وبيان التطور في ذلك . زرقه
العين وكرامة العرب لها وسبب ذلك . استعمالهم لها بعد الفتوحات
الإسلامية وأمثال لذلك . استعمالهم للشعر الأصفر والأحمر
وبخاصة في الأندلس . استعمالهم لسمن المرأة في العصور المتقدمة .
النموذج للمرأة في عصرنا . تأثر وصف الناقة بالبيئة الإسلامية . وصف
الندى وخضوعه لسمن الحضارة . تشبيه العيون بالخر والسيوف
والنبال . تشبيهها بالكهرباء في الشعر الحديث . وصف البحتری
للسقائيق وإعجابه بذلك . التجديد والتوليد والفرق بينهما . التوليد
غير المرفة وغير الاختراع مع التمثيل لذلك . التوليد ينمى صور
البيان . التجديد في الشعر المعاصر . حب النفوس للتجديد وشر ذلك .
قيمة التجديد عند القدماء وحشم عليه . مفاخرة شاعر أندلسي
بتجديد قومه . الدعوة إلى التجديد في العصر الحديث . وجوب
الاعتدال في التجديد . خلود بعض التعبيرات القديمة في كل اللغات .
التجديد الحق لا يهدم القديم . علامة التقدم في كل شاعر . أمثال
للتجديد القبيح .

الفصل التاسع عشر

التشبيه المضمحل الأداء والاستعارة ٢٥٨ — ٢٨٣

خلط القدماء بين التشبيه المضمحل والاستعارة مع التمثيل لذلك .
 فطنة القاضي الجرجاني إلى اضطرابهم في ذلك . اتهم ابن الأثير
 للخفاجي بذلك ودفع التهمة عنه . رأى عبد القاهر في التشبيه
 المضمحل والاستعارة وتمثيله لهما . تصوير من البلاغة النفسية له .
 اعترافه بدقة الفرق بين التشبيه المضمحل والاستعارة . رأى الزخشي
 فيهما وتفصيل ذلك . رأى الرازي وإفادته في التفرقة بينهما مع
 التعليل بمثال نفسي . تفرقة ابن الأثير بينهما بأمثلة تطبيقية على هدى
 النقد والموازنة . رأى السكاكي فيهما وأخذه لكلام عبد القاهر .
 رأى الأقلية في أن هذا التشبيه استعارة . موقف المتوسطين بين
 الرأيين . تفصيل مسهب شاف لابن السبكي في ذلك . رأى العلوي
 واتكأه على قول عبد القاهر وابن الأثير . ما يجوز حمله على
 الاستعارة والتشبيه مع التمثيل لذلك . ذكر طرفي التشبيه لا يمنع من
 من الاستعارة دائما . أمثال متنوعة لبيان هذا الرأي . اعتراض
 الرازي على ذلك وحججه . آراء العلماء في قوله — تعالى — : أضغاث
 أحلام ، . معنى التنويع مع التمثيل له . تفصيل القول في أشياء تلتبس
 بالتشبيه وليست منه .

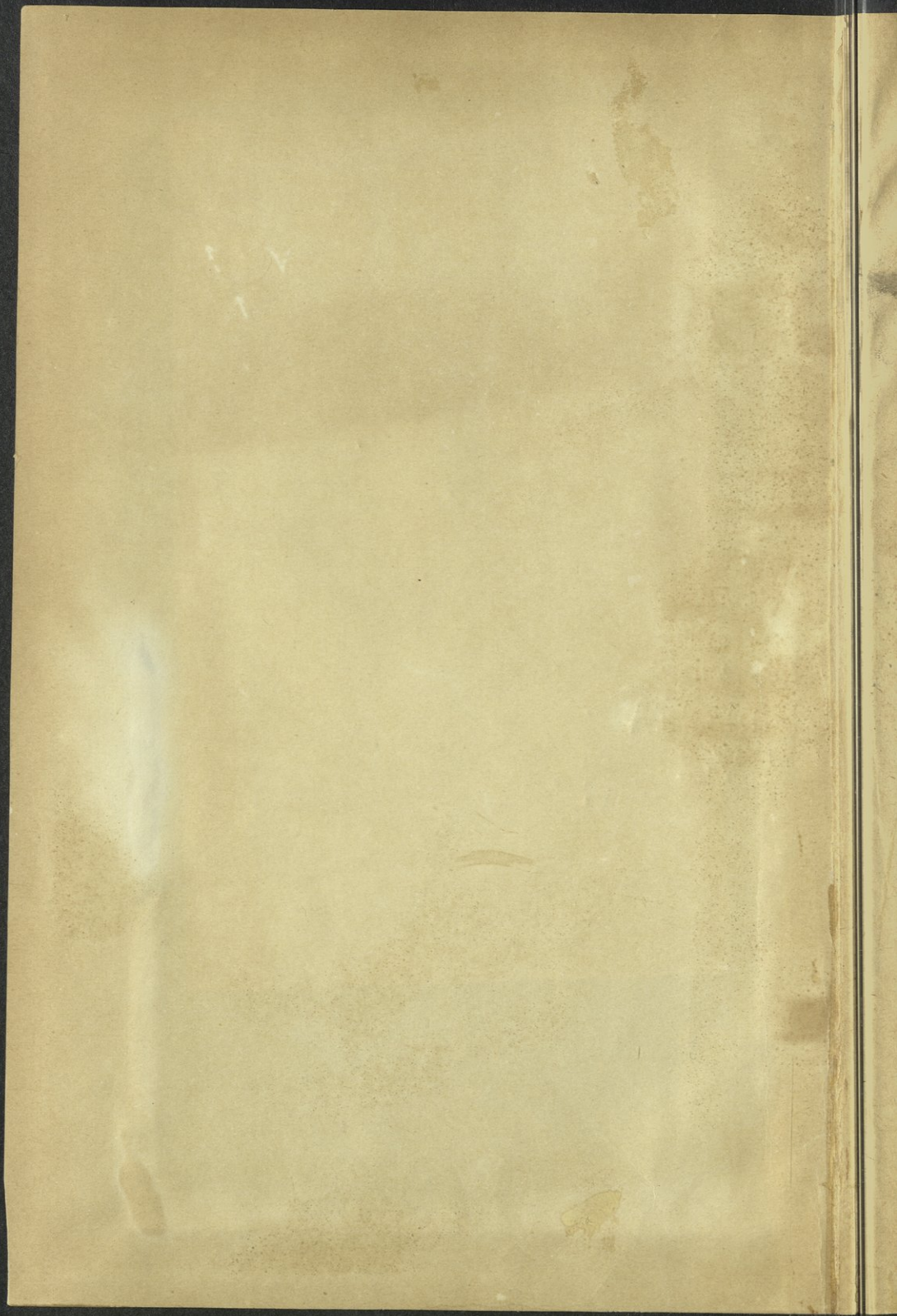
الفصل العشرون

بلاغة التشبيه وقوته

وجه المبالغة في التشبيه المؤكد المجمل . الفرق بين الأداء
 المحذوفة المقدرة والمحذوفة المنوية . تفاوت التشبيه قوة وضعفا
 باعتبار ذكر الأركان كلها أو بعضها . المراد بالتشبيه البليغ عندهم .

صور هذا التشبيه . منزلته البلاغية . رأى عبد القاهر . رأى عن الدين
ابن عبد السلام . بيان المجاز في الحديث ، أنت ومالك لأبيك . .
قانون الصفاء في الشعر وحذف أحرف التشبيه . رأى المؤلف في
بلاغة التشبيه . مبالغة العلماء في قيمة التشبيه البليغ بالمعنى المتعارف .
ليس من الحق أن يسمى بليغاً بل مؤكداً . جوهر البلاغة لا يرجع
إلى التأكيد والإجمال . الخصائص التي تمحقق بها بلاغة التشبيه .
متى يبلغ الفن درجة كماله . كثير مما يسمى بليغاً مغسول من البلاغة .
تشبيهات مؤكدة ترجع بلاغتها إلى غير التأكيد . أكثر تشبيهات
القرآن مذكورة الأداة . تشبيهات يذهب جماعها بالتوكيد . متى يقع
ذكر أداة التشبيه ؟ أمثال طريقة للتشبيهات المرسلة البليغة .

تم الجزء الثاني والحمد لله على نعمائه



DATE DUE



808:J952aA:v.2:c.1

الجندي، علي

فن التشبيه؛ بلاغة، ادب، نقد

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01030773

